

الطاهر بيبرس

وحضاره مصر في عصره

تأليف

محمد جمال الدين مرزوق

الحائز لدرجة ليسانس في الآداب وماجستير في الآداب (M. A.)

مع مرتبة الشرف من الجامعة المصرية

القاهرة

مطبعة دار الكتب المصرية

١٩٣٨

الطاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره

تأليف

محمد جمال الدين مرزوق

الحائز لدرجة ليسانسيه في الآداب وماجستير في الآداب (M. A.)
مع مرتبة الشرف من الجامعة المصرية

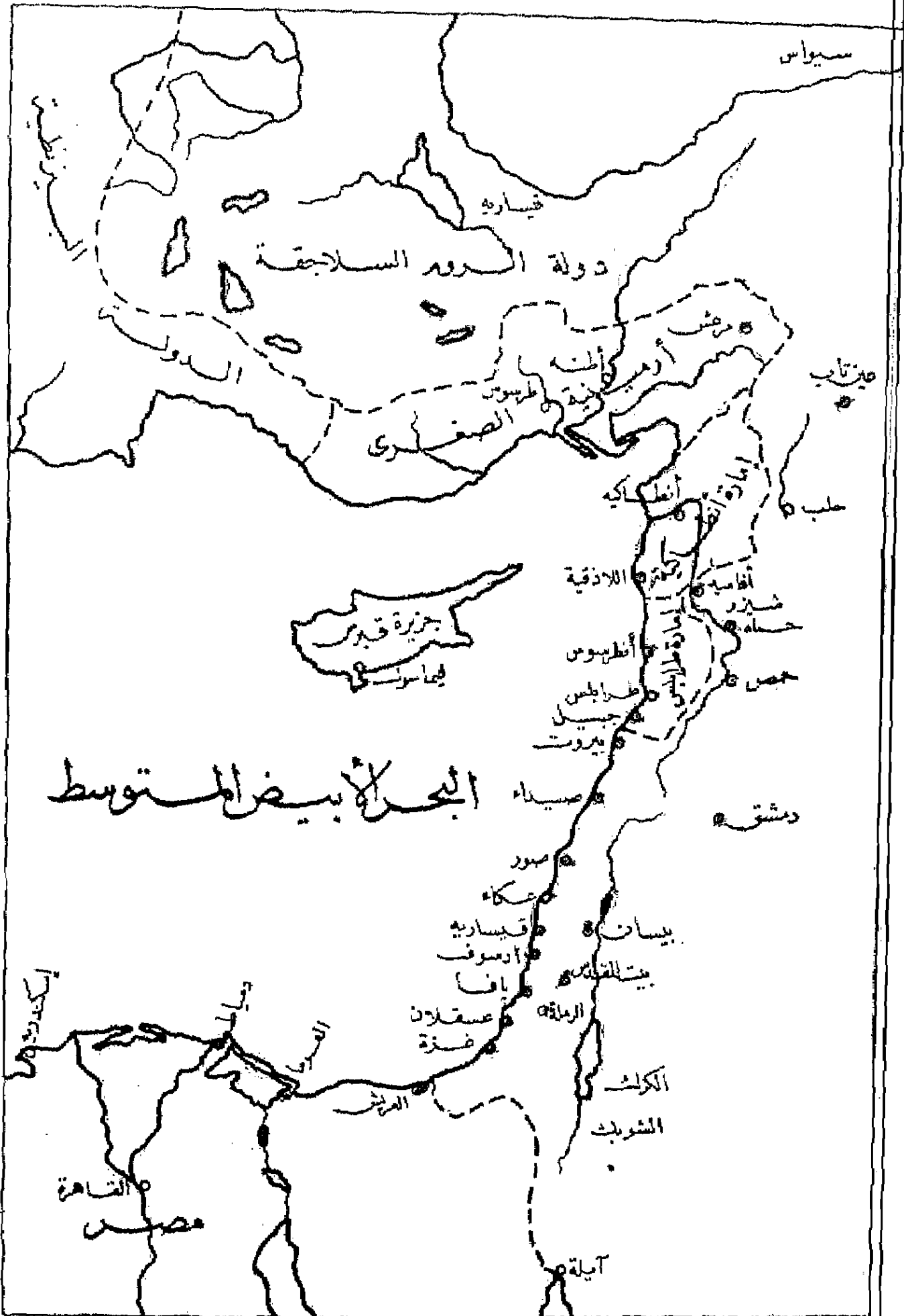
الطبعة

مطبعة دار الكتب المصرية

١٩٣٨

الثن ١٥ قرشا





سبيواس

قيساريه

دولة الروم السلاجقة

حيفا

مرشش

أرمينيا

الطرسون

الصفوري

حلب

أنطاكية

اللاذقية

جزيرة قبرص
ليمانوس

شيزر

أنطربوس

طرابلس

جبيل

دمشق

البحر الأبيض المتوسط

صيدا

صور

عكا

قيساريه

أرسوف

أف

عقلون

ضقة

الرملة

الكلث

الشوبك

الكلث

بيسان

القدس

القدس

القاهرة

مصر

آيلة

تصدير الكتاب

بقلم المؤرخ الجليل الدكتور حسن إبراهيم حسن

أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية الآداب بالجامعة المصرية

يسرنى أن أقدم إلى قراء العربية رسالة ممتعة ممتازة عن "الظاهر بيبرس وحضارة مصر فى عصره" ، كشفت عن كثير من نواحي التاريخ الإسلامى بوجه عام وعن تاريخ مصر فى عصر المماليك بوجه خاص ، وحققت رغبة كانت تتوق إليها نفوس الكثيرين من رجال العلم والأدب فى مصر . قد كان من المؤلم أن تظل نواح كثيرة من تاريخنا المصرى الحافل بأسباب العظمة والمجد مجهولة لكثير من المصريين والشرقيين ، مع أن فى كشفها كشفا عن صحيفة مشرفة لمصر والشرق الإسلامى كله . ولا ريب أن المؤرخين اذا حدوا حدوا الأستاذ محمد جمال الدين سرور ونقبوا عن هذه الكنوز المدفونة فى بطون الكتب القديمة ، فقد أسدوا الى أمتهم وبلادهم أجل الخدمات وأسمائها .

ولقد عنى المؤلف فى هذه الرسالة يبحث مسائل لم يسبقه إليها أحد من المؤرخين ، من حيث استقصاء المعلومات التاريخية وتنظيمها بأسلوب جذاب وعبارة طلية وطريقة تحليلية دقيقة . والمطلع عليها يرى أنه قد عاجل فيها نواحي جديدة حقا بالبحث لاتصالها بتاريخنا القومى وحضارتنا فى عصر من أزهى العصور فى التاريخ المصرى الإسلامى ، كظهور المماليك فى مصر ، والعوامل التى أدت الى انتقال الحكم من أيدي الأيوبيين الى المماليك ، وكيف ظهر بيبرس على مسرح السياسة المصرية بقوة دهائه وحسن سياسته وبعد نظره وثاقب فكره ، وكيف أحيى الخلافة الإسلامية فى مصر بعد أن قضى عليها التتار فى بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨م) ، فأصبحت مصر بفضلها مقر الخليفة العباسى وقلب الإسلام النابض ، وعاد إليها

مجدها المدارس وعزيمها التالد منذ أيام الفاطميين الذين اتخذوا القاهرة حاضرة لخلافتهم ، والذين اهتموا سلطانهم على البلاد الاسلامية التي بين المحيط الأطلسي غربا وبلاد العراق شرقا وبين آسيا الصغرى شمالا وبلاد النوبة جنوبا ؛ كما أبان أيضا كيف وقفت مصر في وجه الحملات الصليبية موقف البطولة والهمة حتى دقت معاقل الصليبيين في بلاد الشام معقلا تلو معقل رغم ما كان يتتابع عليهم من نجات أوربا المسيحية ، وكيف استطاع بيبرس أن يستولى على إمارة أنطاكية ومهد بذلك السبيل للقضاء على بقاياهم في عهد الأشرف خليل بن قلاوون سنة ١٢٩٢ م .

وقد حلل الأستاذ جمال الأسباب التي أدت الى فشل هؤلاء الصليبيين في غزواتهم ، كما بين لنا كيف وقف بيبرس في وجه المغول الطامعين في مصر ، وكيف قضى على قوتهم في الشام وحال بينهم وبين ما يشتهون ، بعد أن اجتاحوا الخلافة من بغداد وثلوا عروش الممالك التي نازلوها في الشرق والغرب حتى أصبحت أثرا بعد عين .

ولم يكتف المؤلف بسرد هذه الحوادث وتحليلها ، بل أبان لنا بجلاء ووضوح كيف كانت مصر في علاقتها بالتتار يتنازعها عاملان عظيمان : العامل الأول عامل ديني نشأ عن اعتناق بركة خان وكثير من أتباعه ببلاد القفجاق الدين الاسلامي وأيدته المصاهرة التي تمت بزواج ابنة هذا السلطان من الظاهر بيبرس ، والعامل الثاني عامل عدائي يرجع الى المحالفة التي عقدت بين هولاءكو سلطان المغول في فارس وجماعة الصليبيين الذين كانوا يناصبون مصر العدا .

وقد ألم الأستاذ جمال إلمامة عامة بعلاقات مصر الخارجية في عصر الظاهر بيبرس مع أمم الغرب وبخاصة مع أمبراطور الدولة البيزنطية ، وكيف استحسنت عرى المودة بين الامبراطوريتين المصرية والبيزنطية ، وكيف تبادلنا الرسل والهدايا ، وكيف توثقت العرى بين مصر وملكي صقلية وأرجونة (Aragon) وأمير إشبيلية ، وكيف أفادت مصر سياسيا وتجاريا من وراء هذه المحالفات . كما لم يفت المؤلف أن

يبين لنا كيف اتسع نفوذ مصر بين الأمم المجاورة لها والتي تلبط بها بأواصر قوية من الدين واللغة والتقاليد بجلاد النوبة والحجاز .

وإننى لأتوه هنا بمزيد الغبطة والاعجاب بما كتبه المؤلف عن الحضارة المصرية فى عصر الظاهر بيبرس . فقد أعطى لنا صورة واضحة جلية لا تدع مجالاً للشك فى أن هذا العصر كان من أزهى العصور الإسلامية قاطبة ، فأعاد الى الأذهان عصر الرشيد والمأمون وعصر المعز لدين الله الفاطمى وابنه العزيز فى النظام السياسى والادارى والقضائى والحربى ، وفى العناية بالزراعة والصناعة والتجارة ، وفى ازدهار رياض العلم والأدب ، والرقى الاجتماعى .

ولا غرو فقد بحث المؤلف نظام الحكم فى ذلك العصر ، وكيف عمل بيبرس على حصر وراثته العرش فى أسرته بعد أن كان غنيمة لكل قوى يستطيع التغلب عليه ، مما كان يدعو الى التطاحن والتنافس بين الأمراء . وقد كان من الطريف الممتع ما كتبه المؤلف عن نظام البلاط مما هو قريب الشبه بنظام البلاط الملكى فى عصرنا هذا ، كما بين أن السلطان كان يستعين فى ادارة شئون الدولة بولاية الأقاليم الذين كانوا يقومون بجمع الخراج والرسوم الجمركية والاشراف على شئون البلاد .

كذلك بحث الأستاذ محمد جمال الدين سرور نظام البريد فى عصر بيبرس ، وكيف كانت تتبادل الرسائل داخل البلاد المصرية وخارجها بطريق البر والبحو ، وأبان حالة الجيش فى ذلك العهد ؛ فوضح لنا كيف أعطى بيبرس لجيشه جزءاً كبيراً من عنايته لأنه القوة التى يعتمد عليها ويوطد بها عرشه ، فزاد فى عدده وعدده ، وبني لمصر أسطولا كان نواة لأسطول قوى فى عهد دولة المماليك بمصر ، كما توه بما كان لبيبرس من جهود موفقة فى سبيل تنمية الثروة المصرية عن طريق الزراعة والصناعة والتجارة ليستعين بذلك على تعبئة الجيوش لصد الأعداء فى داخل البلاد وخارجها .

ومما يذكر للمؤلف بزيد التقدير والاعجاب ذلك الفصل الممتع الذي كتبه عن الحياة العلمية والأدبية في ذلك العصر الذي طالما ظن كثير من الناس أنه عصر حروب وتطاحن ، ليس للعلم ولا للأدب فيه حظ . فقد أظهر لنا شخصيات فذة بارزة في نواحي العلم والأدب والشعر والثقافة العامة ، من أمثال : محيي الدين بن عبد الظاهر مؤلف كتاب " السيرة الظاهرية " ، والقاضي المؤرخ شمس الدين بن خلكان صاحب كتاب " وفيات الأعيان " ، وجمال الدين بن واصل الذي خلف لنا كتابه " مفترج الكروب في أخبار بني أيوب " ، والشاعر المبدع شرف الدين البوصيري صاحب الهمزية والبردة . كذلك تكلم الأستاذ جمال عما خلفه الظاهر بيبرس من آثار عظيمة رغم انشغاله بالحروب والمعارك طيلة أيامه ، كالمدرسة الظاهرية ، والجامع الظاهري ، وما أدخله من الإصلاحات على الجامع الأزهر .

ولا شك أن المطاع على هذا الكتاب يقف على ما بذله المؤلف من جهد متواصل وبحث عميق وتحليل دقيق واستقصاء للحقائق التاريخية من مصادرها مخطوطة كانت أو مطبوعة ، وهو في نظرنا جدير كل الجدارة بأن ينال حظه من العناية والتقدير لدى جمهور المؤرخين والمثقفين في مصر وغيرها من البلاد العربية ، إذ أنه يتناول بحث عصر يعتبر بحق من مفانح التاريخ الاسلامي .

ولنا لنأمل في الأستاذ جمال أن لا يقف جهوده عند هذا الحد ، وأن يجعل عمله هذا بداية لبحوث أخرى يواصلها في بحث ما غمض من بقية تاريخ الممالك في مصر . والله تعالى يوفقه ويسدد خطاه ما

مُقَدِّمَةُ الْكِتَابِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد أشرف المرسلين
وعلى آله وصحبه أجمعين !

وبعد، فهذا بحث قدمته إلى كلية الآداب، وثلت به وبغيره من الامتحانات
درجة الماجستير في الآداب . وإني الآن أقدمه بين يدي القراء كجهود ضئيل
ساهمت به في كشف بعض النواحي في تاريخ مصر في عصر المماليك .

وقد حملني على الكتابة فيه شغفي بدراسة تاريخ مصر الإسلامية، ورفع الستار
عن الحقائق التاريخية التي لم تتناولها أيدي الكتاب بالبحث والتحليل . وقد أمعنت
النظر طويلا في الموضوع الذي أكتب فيه رسالتي، فشرح الله صدرى لبحث عصر
الظاهر بيبرس، لأنه العصر الذي تتجلى فيه عظمة مصر بأجلى مظاهرها . ففيه
وقف بيبرس في وجه الصليبيين وصمد غاراتهم، كما ناهض التتار عن مصر حتى ردهم
على أعقابهم فانقلبوا خاسرين، لحفظ وطننا المحبوب من غارات أعدائه، ولأنه
العصر الذي ظهرت فيه الحضارة المصرية بمظهر يعتبر نواة نهضة دولة المماليك التي
قامت عليها نهضتنا الحديثة من قريب أو من بعيد .

وإن أنس لا أنس فضل أستاذي المؤرخ الجليل الأستاذ الدكتور حسن
إبراهيم حسن أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية الآداب، الذي غمرني بفضله وأظنني
برعايته وأمدني بإرشاداته، حتى قمت بتأليف هذه الرسالة على الشكل الذي يراها
القراء عليه . فقد ساعدني مساعدة قيمة في تبويب الكتاب وتنسيقه، وأمدني

بكثير من المعلومات في بحثي هذا، وقد كان من العسير عليّ أن أصل إليها، إذ استقاها لي من مراجع مخطوطة بمكاتب أوروبا، كما أرشدني إلى كثير من المراجع المخطوطة والمطبوعة مما له علاقة بهذا الموضوع، وبذل لي كثيرا من ضروب التشجيع خلال قيامي بإعداد تلك الرسالة، ولا سيما في الوقت الذي كنت ألقى فيه المتاعب في جمع المعلومات المشورة في بطون الكتب المختلفة .

ولا أنكر أنه لولا مائلته من عنايته وتشجيعه لما قمت بإتمام هذا المؤلف، كما لا أشك في أنني بفضل مائلته من هذه الثمرة تجددت عندي عزيمة القيام ببحوث أخرى أتم بها تاريخ دولة المسالك في مصر .

وإني لأسدي خالص شكري وعاطف ثنائي لحضرات المؤرخين الأجلاء :
الأستاذ محمد شفيق غربال وكيل كلية الآداب ، والأستاذ عيسا الحميد العبادي ،
والدكتور محمد مصطفى زياده على ما أولوني من تشجيع ورعاية وعلى ما قدموه لي من
ارشادات قيمة كان لها أثر كبير في توجيه رسالتي وجهة سديدة .

كذلك أقدم أجزل الشكر لحضرة الأستاذ الشيخ محمد سليمان مدير تخرج قسم
التخصص بالأزهر الشريف والمدرس بكلية أصول الدين لتفضله بقراءة الكتاب ،
كما لا يفوتني أن أتوه شاكرًا بهذه العناية التي بذلها حضرة محمد نديم أفندي ملاحظ
مطبعة دار الكتب المصرية في طبع هذا الكتاب وتنسيقه .

والله أسأل أن يوفقنا جميعا إلى ما فيه خير بلادنا ونفع أمتنا .

محمد جمال الدين سرور

١٢ ربيع الأول سنة ١٣٥٧
١٢ مايو سنة ١٩٣٨ } القاهرة في

محتويات الكتاب

صفحة	
٣	تصدير الكتاب
٧	مقدمة الكتاب
١٥	بحث في مصادر الكتاب

الباب الأول — نشأة بيبرس

- (١) ظهور المماليك في مصر : ٢٥
- العناصر الأجنبية في الدولة العباسية — المماليك في عهد الدولتين الطولونية والأخشيدية — الدولة الفاطمية تستخدم الأتراك في جيشها — اعتماد الدولة الأيوبية على الأتراك — استنكار الملك الصالح أيوب من شراء المماليك .
- (٢) بيبرس قبل اتصاله بالملك الصالح أيوب : ٢٨
- أصل بيبرس — تضارب روايات المؤرخين في تاريخ ولادته والجهة التي بيع فيها دخوله في حوزة الملك الصالح أيوب .
- (٣) بيبرس منذ اتصاله بالملك الصالح أيوب إلى أن انتصر على الصليبيين بمصر . ٣٠
- تدرج بيبرس في مناصب الدولة — حملة لويس التاسع على مصر — الدور الذي قام به بيبرس في صد هذه الحملة — وفاة الملك الصالح — حالة مصر منذ وفاته إلى قدوم تورانشاه إليها — موقعة المنصورة — قدوم تورانشاه إلى مصر — موقعة فارسكور — أسر لويس التاسع والافراج عنه — ازدياد نفوذ المماليك — إحلال تورانشاه ممالكة محل ممالك أبيه في المناصب — إضمار المماليك البحرية السوء لتورانشاه — قتل تورانشاه .

الباب الثاني — حالة مصر قبيل تولية بيبرس سلطتها

- (١) انتقال السلطة إلى المماليك : ٣٩
- تولية شجرة الدر سلطنة مصر — خروج أهل سورية عن طاعتها — اعتزالها الحكم — تولية المعز أيك أتابك العسكر سلطنة مصر — تنصيب أحد أمراء البيت الأيوبي —

رغبة الملك الناصر صاحب دمشق في الاستيلاء على مصر — قدومه إليها وانضمامه —
 فضل المالئكة في صفة جيوش الناصر عن مصر — الزيادة نفوذهم — إخماد ثورة
 العرب — المغزايك يتخلص من منافسه أنطاي — هروب ببيرس وزعماء المالئكة
 إلى البلاد الشامية — إغراؤهم الملك الناصر بحاربة مصر — عقد الصلح بين
 المنصور والناصر — اغتيال المغزايك — تولية ابنه على — المالئكة البحرية يحسنون
 للقيث الاستيلاء على مصر — قدومهم إلى مصر وهزيمتهم عند الصاخية — انحصار
 قنطرة على القنيث — تحويل المالئكة البحرية إلى الطور — مغادرتهم الطور ودعوتهم
 إلى الملك القنيث بالكرك — قدوم ببيرس إلى الملك الناصر — تولية قنطرة سلطنة مصر .

(٣) ظهور ببيرس على مسرح السياسة المصرية :

٤٧

مسير ببيوس إلى غزة — مرسلته الملك المنصور قنطرة بمصر — قدومه إلى مصر —
 انقطاعه ولاية قلوب — تهديد هولاء كرك بمصر — استعداد قنطرة لصد غارات التتار —
 ذهابه إلى بلاد الشام — فضل ببيرس في هزيمة التتار عند عين جالوت — طمع
 ببيرس في ولاية حلب — حقد ببيرس على قنطرة — مقتل قنطرة .

الباب الثالث — ساطنة الظاهر ببيرس

(١٠) اغتلاء ببيرس سلطنة مصر وتوحيد سلطته بها :

٥٥

تولية ببيوس سلطنة مصر — تقيده بالملك الظاهر — استجلابه وضم الرعية .

(١١) الثورات الداخلية :

٥٧

سنجر أنطلي يناهض نفسه سلطانا على دمشق — خروج شمس الدين البرلي
 عن طاعة ببيرس — تحريضه أمراء الشام على الانضمام إليه — هجومه على
 حلب — استيلاء جيوش ببيرس على حلب — هرب البرلي — اغتلاء
 الولاء للملك الظاهر — اتفاق الملك القنيث مع التتار على الاستيلاء على مصر —
 اعتقال الملك القنيث .

(١٢) إحياء الخلافة العباسية :

٦٣

رغبة ببيرس في إحياء الخلافة بمصر — دعوته للإمام أحمد لتقديم إلى مصر —
 مبايعته الإمام أحمد العباسي بالخلافة — هويض السلطنة — تعيين الخليفة
 أبي بغداد — انضمامه عند حيت ووفاته — مبايعة ببيرس للإمام أبي العباس
 أحمد بالخلافة — إضعافه نفوذ الخليفة الحاكم بأمر الله .

(٢) سياسة بيبرس الخارجية :

٧٤ (١) موقف بيبرس إزاء الصليبيين :

رغبة بيبرس في إحياء الامبراطورية الاسلامية — مناوآته للامارات اللاتينية — مخالفته الدول المحيطة به — نقض الصليبيين للعهد — قيسارية — أرسوف — صفد — محاولة بيبرس الهجوم على عكا — مهادنة بيبرس لأميرة بيروت والاستئثار بحصن الأكراد — هجومه على يافا — استيلائه على الشقيف أرنون — فتح أنطاكية — رغبة إمارة طرابلس وعكا في موادعة بيبرس — استيلاء بيبرس على حصن الأكراد — استيلائه على حصن عكا — شروع بيبرس في مهاجمة طرابلس — عقده الصلح مع طرابلس — مهاجمة بيبرس لحصن القرين — تلميته طلبات الصلح مع عكا — وصور — أسباب هزيمة الصليبيين .

٩٦ (ب) غزو جزيرة قبرس :

أسباب غزو بيبرس لقبرس — مسير أسطول بيبرس لمحاربتها — تحطيم الأسطول — انقراض أهل قبرس على المسلمين .

٩٨ (ج) قضاء بيبرس على نفوذ طائفة الاسماعيلية ببلاد الشام :

انحياز الاسماعيلية الى الصليبيين — قدوم رسل الاسماعيلية الى السلطان — دخول نجم الدين الشعراني في طاعة بيبرس — استيلاء بيبرس على حصون الاسماعيلية .

١٠٠ (د) علاقة بيبرس بالمغول :

(١) مغول فارس :

تحالف التار مع الصليبيين — إغارة التار على البيرة — وفاة هولوكو وتولية ابنه أباقا — اتفاق التار مع الصليبيين على الإغارة على بلاد الشام — إغارة التار على عين تاب — معاودة التار الهجوم على البيرة — مسير بيبرس الى الفرات — انتصاره على التار — اتفاق البرواناه مع الملك الظاهر بيبرس على القدوم الى بلاد السلاجقة الروم — شروع بيبرس في الاستيلاء على بلاد السلاجقة الروم — هزيمة التار والروم — جلوس بيبرس على عرش سلاطين قيسارية — مقتل البرواناه — أسباب تفاعد بيبرس عن محاربة التار .

صفحة

١٠٩

(٢) مغول القفجاق :

مخافة بيبرس لبركه خان — قدوم بعض التتار إلى مصر واطناقهم
الدين الاسلامي — تبادل الرسل بين بركة وبيبرس — وفاة
بركة — اعتقال منكوتمر عرش مغول القفجاق — اتفاهه مع بيبرس
على مناوأة بنت هولاكو .

١١٤

(هـ) علاقة بيبرس بأرمينية :

قدوم هيتوم إلى عين تاب — مسير جيش بيبرس إلى سيس — أسر ليفون —
هيتوم يطلب الصلح — اطلاق سراح سنقر الأشقر — عودة ليفون إلى
والده — بيبرس يعاود محاربة الأرمن لتفضهم اليهود .

١١٧

(و) علاقة بيبرس بملوك أوروبا :

تحالف بيبرس مع امبراطور القسطنطينية — تبادل الرسل والهدايا مع منفرد
ملك صقلية وتسكانيا — توثيق عرى الصداقة بينه وبين شارل صاحب
أنجو — تبادل الهدايا بين بيبرس وأمير أشبيلية .

١١٩

(ز) اتساع نفوذ بيبرس في بلاد النوبة :

امتناع بلاد النوبة عن دفع الجزية لبيبرس — مساعدة بيبرس لشكندة على
استرداد ملكه من ابن أخيه داود — هزيمة داود — تعهدات شكندة لبيبرس .

١٢٢

(ح) ازدياد سلطة بيبرس في الأماكن المقدسة بالحجاز .

١٢٣

(ط) تبادل المراسلات بين نجاشي الحبشة وبيبرس .

الباب الرابع — حضارة مصر في عصر الظاهر بيبرس

١٢٧

(١) النظام السياسي والاداري :

اهتمام بيبرس بشئون مصر الداخلية — نظام الحكم في عصر بيبرس — حصر وراثه
العرش في أسرته — تولية الملك السعيد عهد السلطنة — كراهية المماليك لنظام وراثه
العرش — أثر ذلك في نزول الملك السعيد عن العرش — انتقال السلطة من بيت
بيبرس إلى بيت قلاوون — استعانة بيبرس بالأمرء المقربين له في إدارة شئون
الدولة — نائب السلطان — الوزير — ناظر الدولة — ناظر الخاصة —
الحاجب — الاستنادار — الدوادار — الأمير جاندار — ولاة الأقاليم —
صاحب العسس — ديوان الانشاء — البريد .

محتويات الكتاب

١٣

صفحة

١٣٧

(٢) القضاء :

دار العدل — تفويض قضاء مصر لتاج الدين بن بنت الأعز — تعيين بيبرس أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة .

١٤٠

(٣) الجيش والبحرية :

الجيش في عهد الملك الصالح — جزيرة الروضة واهتمام بيبرس بعمارها — استئجار بيبرس من شراء المماليك — عنايته بربيتهم تربية دينية عسكرية — طبقات الجند — أزيائهم — مرتباتهم — اهتمام بيبرس بإنشاء دور صناعة السفن — تقدم مصر في ميدان الصناعة الحربية والبحرية .

١٤٥

(٤) الحضارة المادية :

عناية بيبرس بالزراعة — حفر الترع وتطهير الخلجان — ازدياد محصولات مصر — عناية بيبرس بغرس البساتين — ترقية مراكز الصناعة — الآلات الحربية — المنسوجات الصوفية — صناعة الفرش والبسط — صناعة السكر — مهارة الصناع المصريين — تقدم التجارة في عصر بيبرس — عقد المعاهدات التجارية — ازدياد تجارة مصر الخارجية — التجارة الداخلية — أسواق القاهرة — موارد الدولة المالية .

١٥٤

(٥) منشآت بيبرس :

المدرسة الظاهرية — الجامع الظاهري — إصلاح الجامع الأزهر — قناطر السباع — إصلاح منارقي الاسكندرية ورشيد — قرية الظاهرية — إصلاح الحرم النبوي — فن العمارة في عصر بيبرس .

١٥٨

(٦) الحياة العلمية والأدبية :

عناية بيبرس بنشر العلوم الإسلامية — العلماء والأدباء في عصر بيبرس . (محيي الدين ابن عبد الظاهر — ابن خلكان — ابن واصل) — النثر الفني — النظم — الشعراء في عصر بيبرس .

١٦٤

(٧) الحالة الاجتماعية :

عناصر السكان بمصر — موقف المماليك إزاء المصريين — جالية النصارى بمصر — الفرنجة — حرص بيبرس على نشر الفضيلة .

١٧١

خاتمة القول في بيبرس

نجاح بيبرس في إعلاء شأن مصر — اكتسابه محبة الأهلين — شجاعته — عدله — تخفيفه أعباء الحياة عن شعبه — ما يأخذه المؤرخون على بيبرس — وفاته .

١٧٧

مصادر الكتاب

بحث في مصادر الكتاب

تمتاز المراجع المخطوطة التي اعتمدت عليها في كتابي هذا بأن مؤلفيها عاشوا في عصر المماليك وأدرك بعضهم عهد بيبرس نفسه كما أن بعضهم تولى بعض الأعمال الإدارية في مصر في عهده وفي عهد من خلفه من سلاطين المماليك ولذلك فإنها تعد من هذه الناحية ذات أهمية تاريخية في دراسة عصر الظاهر بيبرس .

ومن المؤرخين الذين عاشوا في أيام الملك الظاهر : جمال الدين بن واصل المتوفى سنة ٦٩٧ هـ (١٢٩٧ م) مؤلف كتاب "مفترج الكروب في أخبار بنى أيوب" وهو مخطوط بدارالكتب الملكية ويعتمد عليه في دراسة تاريخ الدولة الأيوبية وصدر دولة المماليك بمصر . وقد اعتمدت عليه في استقصاء تفاصيل حياة بيبرس الأولى وما قام في وجهه من الصعاب على أثر توليته سلطنة مصر . فهو من هذه الناحية يوضح السبب الذي من أجله غدر بيبرس بالملك المغيث صاحب الكرك الذي خرج عن طاعة بيبرس على أثر توليته سلطنة مصر . ويمتدنا هذا المرجع أيضا بمعلومات لها قيمتها التاريخية فيما يختص بعلاقة بيبرس بجزيرة صقلية . ويؤخذ مما جاء بهذا المرجع بصدد هذه المسألة أن مؤلفه ذهب الى جزيرة صقلية سنة ٦٦١ هـ رسولا من قبل الملك الظاهر يحمل هدية الى ملكها وأنه انقطع عن الكتابة منذ هذه السنة وواصل تلميذه الكاتب كتابته الى سنة ٦٨٠ هـ ملخصا عن كتاب آخر اسمه التاريخ لا يعرف اسم مؤلفه .

أما بيبرس الدوادار المتوفى سنة ٧٢٥ هـ صاحب كتاب "زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة" وهو مخطوط بمكتبة الجامعة المصرية فقد تولى بعض المناصب الإدارية في عهد السلطان قلاوون وابنه الناصر محمد . قلده قلاوون ولاية الكرك ثم عزله

ابنه الأشرف خليل . وعندما تولى السلطان الناصر محمد بن قلاوون سلطنة مصر سنة ٦٩٣ هـ عينه رئيساً لديوان الانشاء ولقب منذ ذلك الوقت بالدوادار^(١) وأخذ يترقى في مناصب الدولة حتى عين نائباً للسلطان سنة ٧١١ هـ . ومن ذلك نرى أن هذا المؤلف كان يكتب عما شاهده في مصر في ذلك العصر . فكنا به يعتبر من المراجع الهامة في دراسة التاريخ السياسى في عهد الظاهر بيبرس وعهد من خلفه من السلاطين إلى أوائل عهد الناصر محمد بن قلاوون . وقد اعتمدت على هذا المرجع في دراسة موقف بيبرس إزاء الصليبيين وعلاقته بمغول فارس وكيف استطاع الملك الظاهر أن يقضى على نفوذ المغول ويوقع بهم المهزيمة بعد أن انضم إليهم سلاجقة آسيا الصغرى سنة ٦٧٥ هـ .

يأتى بعد ذلك الشيخ قطب الدين اليونينى المتوفى سنة ٧٢٦ هـ صاحب كتاب "الذيل على مرآة الزمان" وهذا المرجع مخطوط بدار الكتب الملكية وقد ضاع جل نرائه . ولم يبق منه إلا الجزءان الخامس عشر والسابع عشر . وهذا الجزء الأخير هو الذى نمدت عليه فى كتابى . وقد عثر عليه رجال دار الآثار العربية مدفوناً بجامع قايتباى ذلك سنة ١٨٨٢ م . وربما كان هذا هو السبب فى ضياع بعض أوراقه وتمزيق البعض الآخر . وعلى الرغم من الصعوبة التى لاقيتها فى قراءة هذا الكتاب فإننى تنطعت أن أستفيد منه بعض الفائدة وخاصة فيما يتعلق بنشأة بيبرس . فقد أمدنا هذا الكتاب برواية فى هذا الصدد أشرت إليها فى كتابى وهى تخالف ما ذكره كل من ابن واصل والمقرئزى عن نشأة بيبرس كما أفاض القول فى وفاة بيبرس وأسبابها وما قام به من الأعمال الجليلة التى خلدت ذكره .

ومن المراجع الهامة التى اعتمدت عليها أيضاً كتاب "نهاية الأرب فى فنون الأدب" لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى المتوفى سنة ٧٣٢ هـ (١٣٣٢ م)

(١) الدوادار : هو الكاتب . وهذا اللفظ مأخوذ من الدواة فكأن معناه صاحب الدواة .

فالجزء الثامن والعشرون من هذا المخطوط المحفوظ بدار الكتب الملكية والذي لم يتم طبعه بعد يمدنا بمعلومات هامة عن سياسة بيبرس الخارجية وخاصة فيما يتعلق بحروبه مع الصليبيين والمغول وموقفه إزاء طائفة الإسماعيلية ببلاد الشام . وقد اعتمدت على هذا المخطوط في بحث موضوع إحياء الخلافة العباسية بمصر وعلاقة بيبرس بالصليبيين والمغول وما أدخله بيبرس من التعديلات على نظام القضاء بمصر .

ومن بين الكتب الخطية التي اعتمدت عليها أيضا كتاب "رفع الإصر عن قضاة مصر" لابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٣ هـ (١٤٤٩ م) وهو مخطوط بدار الكتب الملكية . وقد أعانني على معالجة أحد مواضع كتابي وهو نظام القضاء في عصر بيبرس .

وهناك مرجع آخر اعتمدت عليه في بحث سياسة بيبرس الخارجية وهو عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان لبدر الدين محمود العيني المتوفى سنة ٨٥٥ هـ . فالجزء العشرون من هذا المخطوط المحفوظ بدار الكتب الملكية يمدنا بكثير من المعلومات عن علاقة بيبرس بالصليبيين والمغول وأسباب غزو بيبرس لجزيرة قبرس . ومما هو جدير بالملاحظة أن مؤلف هذا الكتاب كثيرا ما ينقل عن بيبرس الدوادار صاحب كتاب "زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة" .

كذلك اعتمدت على الجزء الثالث من كتاب "النجوم الزاهرة" لأبي المحاسن ابن تغرى بردى المتوفى سنة ٨٧٤ هـ (١٤٥٤ م) وهو مخطوط بدار الكتب الملكية . وقد أخذت دار الكتب في نشره وانتهت منه إلى أواخر عصر الدولة الأيوبية . وقد أمدني بكثير من المعلومات عن نشأة بيبرس الأولى والأدوار التي مر بها قبل دخوله في حوزة الملك الصالح . وهو يروي لنا رواية عن نشأة بيبرس تشبه تمام الشبه ما ذكره اليوناني عن نشأته . كذلك يمدنا هذا الكتاب بمعلومات مستفيضة عن كيفية اعتلاء بيبرس سلطنة مصر ومبايعته للخليفة العباسي ومحاربتة للصليبيين

والمغول وعن منشئاته وما أدخله بيبرس من التعديل على نظام القضاء المصرى وما الى ذلك مما قام به من الأعمال الداخلية والخارجية . وكثيرا ما ينقل مؤلف هذا الكتاب عبارات بومتها عن كتاب " السلوك لمعرفة دول الملوك " لتقى الدين المقرئى .

وهناك أيضا كتاب آخر له أهمية خاصة فى دراسة الحياة الأدبية فى عصر الظاهر بيبرس وهو كتاب " عيون التواريخ " لابن شاكر الكتبي المتوفى سنة ٧٦٤ هـ (١٣٦٣ م) المخطوط بدار الكتب الملكية . فالجزء الحادى والعشرون من هذا المرجع يمدنا بكثير من المعلومات عن هذه الحياة ويذكر لنا كثيرا من الشعراء الذين عاشوا فى ذلك العصر وما قرضوه من الشعر . وعلى الرغم من أن هذا المرجع يحوى الكثير من الأشعار التى نظمت فى عصر بيبرس إلا أنه يصعب على القارئ قرائتها لضيق كثير من كلماتها ، فضلا عن ذلك فإن هذا الكتاب يمدنا بمعلومات وافية عن الحروب التى وقعت بين بيبرس والصليبيين ومغول فارس وعن ازدياد نفوذ بيبرس فى بلاد التوبة .

ومن المصادر التى تناولت الكلام عن صفات بيبرس واصلاحاته وحروبه مع الصليبيين والمغول كتاب " المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية " مؤلفه شافعى بن على بن عباس . وهو مختصر قصيدة نظمها أبو الفضل عبد الله بن عبد الظاهر فى مدح الظاهر بيبرس . وكان ابن عبد الظاهر قد طالب منه أن يختصرها وينثرها . وفى ذلك يقول ابن عباس^(١) " وكان كاتب سره البليغ محيى الدين أبو الفضل عبد الله بن شيخ الاسلام رشيد الدين عبد الظاهر قد افتتح أيامه بنظم سيره رتل منها سور محاسنه صورة صورة وأرخ وقايحه (كذا فى الأصل) التى هى فى صحايف (كذا فى الأصل) حسناته مسطورة فأطال وأطاب وخطب بامتع خطاب وأتى على مجموع أيامه يوما يوما ... لكن اقتضى الحال أن يثبت منها الفث والسمين وأن

(١) المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية ورقة ١٤ .

يكرر ما يشافه به سمع سلطانه من اطراء وإن كان فيه صادق لا يمين . وكان رحمه الله قد تحدث معى في اختصارها فلم يتفق في حياته ولم يقع تأدبا معه في اثبات لقبه ونفى إثباته . وقد اختصرتها رغبة في الإيجاز الذى هو عين البلاغة وعذوبة مياه الفصاحة المسافة وذكرت منها الأهم المقدم لتلذذ مطالعتها وتروق مراجعتها وبالله التوفيق“ .

وهناك مراجع أخرى مطبوعة اعتمدت عليها في استقصاء سياسة الملك الظاهر الخارجية . ومن أهمها : ”كتاب النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد“ لمفضل ابن أبى الفضائل الذى لا تعرف سنة وفاته وكل ما نعرفه عنه أنه انتهى من كتابه سنة ٧٣٥ هـ . وتختصر أهمية هذا الكتاب في أن مؤلفه عاش في مصر في عصر الناصر محمد بن قلاوون (٦٩٣ - ٧٤١ هـ) واعتمد على كثير من المراجع الهامة المعاصرة التى لاتزال مخطوطة الى الآن . نخص بالذكر منها كتاب ”السيرة الظاهرية“ لمحبي الدين بن عيسد الظاهر و”زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة“ لبيبرس الدوادار و”نهاية الأرب في فنون الأدب“ للنويرى . وعلى الرغم من أن مفضل بن أبى الفضائل كان مسيحى المذهب فانه اتبع في تأليفه الخطة التى سار عليها المؤرخون من المسلمين فبدأ كتابه بالبسملة وأرخ الحوادث بالسنين الهجرية . وقد أمدنى هذا الكتاب بحقائق تاريخية عن اتساع نفوذ بيبرس ببلاد النوبة وعن المراسلات التى تبودلت بينه وبين نجاشى الحبشة وبه فوق ذلك كثير من المعلومات الهامة عن سياسة بيبرس إزاء الصليبيين والمغول .

كذلك اعتمدت على كتاب ”السلوك لمعرفة دول الملوك“ لتقى الدين المقرئى المتوفى سنة ٨٤٥ هـ (١٤٤١ م) عند بحث حالة مصر قبيل اعتلاء بيبرس عرش السلطنة بها ، وسياسته الخارجية مع الصليبيين والمغول ، وعلاقته بالملوك الشرقيين والغربيين المعاصرين له ، وما قام به من الاصلاحات . والمقرئى في كل هذه الموضوعات يمدنا بكثير من المعلومات القيمة . ومما يلاحظ عليه أنه ينقل كثيرا عن النويرى فيما يتعلق بكلامه عن الأيوبيين والنماليك .

وهناك كتاب آخر اعتمدت عليه وهو كتاب "المختصر في أخبار البشر" لأبي الفدا المتوفى سنة ٧٣٢ هـ (١٣٣١ م) . وقد أمدني بمعلومات هامة عن الأمراء الذين خرجوا عن طاعة بيبرس على أثر اعتلائه عرش مصر، كما أعانني على بحث مسألة إحياء الخلافة العباسية بمصر. هذا وغيره خاف ما لغير ما ذكرنا من الكتب من جليل الفائدة لهذا البحث مثل كتاب "العبر وديوان المبتدا والخبر" لابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ (١٤٠٥ م) . وتاريخ الخلفاء للسيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ (١٥٠٥ م) . و"بدائع الزهور في وقائع الدهور" لابن إياس المتوفى سنة ٩٣٠ هـ (١٥٢٣ م) .

ومن أهم المصادر وأتممها في بحث النظم الإدارية والمالية في عصر بيبرس كتاب "صبح الأعشى في صناعة الإنشاء" لأبي العباس أحمد القلقشندي، وكذلك كتاب "المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار" للقريزي، و"حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة" للسيوطي . فبمادنا السفر الأول بكثير من المعلومات عن ديوان الإنشاء . وقد أفرد القلقشندي الجزئين الأول والثاني من كتابه في التعريف بهذا الديوان وفي بحث نشأته في الإسلام إلى زمنه، كما يمدنا بمعلومات هامة عن الوظائف والموظفين في ذلك العصر وعن الطبقات التي كان يتكوّن منها الجيش وعن نظام البريد والقضاء وما أحاط سلاطين الماليك من أهبة وجلال . أما كتاب الخطط للقريزي فقد اعتمدت عليه في وصف منشآت بيبرس والأسواق التجارية التي ت في عصره كما ساعدني على بحث النظام الإداري في عصره والوظائف الهامة أنشأها . كذلك يمدنا السيوطي ببعض المعلومات عن الموظفين في ذلك العصر ومهمة كل منهم وعن القضاة الذين تولوا قضاء مصر في عصر بيبرس ومن خلفه من سلاطين الماليك .

وهناك كتاب تهافت على قراءته العامة وبعض الخاصة ويعرف بالسيرة الظاهرية ويقع في ثلاثين جزءا . وكنت أظن أنه يحوى شيئا ذا غناء في سيرة هذا

البطل العظيم ولكنني تصفحته فاذا هو يحوى طائفة من الخرافات والأخبار المشوهة التي لا يصح أن يعتمد عليها الباحث الحديث، لذلك أهملتها واكتفيت بالمراجع الموثوق بها .

ومن المصادر الأفرنجية التي اعتمدت عليها كتاب :

Sir William Muir, "The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt" وقد أمدني بعض المعلومات عن سياسة بيبرس إزاء الصليبيين والمغول، وعن رغبة بيبرس في حصر وراثته العرش في أسرته وما ترتب على ذلك من الحوادث .

وهناك كتب أخرى اعتمدت عليها في بحث موقف بيبرس إزاء الصليبيين وهي: كتاب "The crusaders in the East" Stevenson, وكتاب Barker, "The crusades" وكتاب King, "The Knights Hospitallers in the Holy Land" . وهذه الكتب لم تفصل القول فيما قام به بيبرس من الأعمال الجلية ببلاد الشام للقضاء على نفوذ الصليبيين .

كذلك اعتمدت على الترجمة الإنجليزية لمذكرات جواتثيل عن حملة لويس التاسع على مصر : "Memoirs of the crusades" by Villehardouin & Joinville, translated by Sir Frank Marzials. و كتابه Davies "Invasion of Egypt in A.D. 1249 by Louis IX of France" و Stanley Lane-Poole في كتابه "A History of Egypt in the Middle Ages". عن هذه الحملة أيضا . وعلى الرغم من أن جواتثيل قدم الى مصر مع لويس التاسع وشاهد المعارك التي وقعت بين المصريين والصليبيين فإنه لم يمدنا بمعلومات ذات غناء عن نصيب بيبرس في صد هذه الحملة وكذلك ديفز (Davies) الذي اعتمد على ما كتبه جواتثيل في مذكراته لا يمدنا بمعلومات هامة في هذا الموضوع . أما (Stanley Lane-Poole) فقد وضع لنا فضل بيبرس وفرة الممالك

في صدد حملة لويس التاسع عن مصر ، كما تكلم عن علاقة بيبرس بملوك أوروبا وما عقده معهم من المحالفات والمعاهدات التجارية .

ومن الكتب التي اعتمدت عليها في دراسة علاقة بيبرس بالمغول كتاب "Literary History of Persia" ، Browne ، فهذا المرجع يمدنا بكثير من المعلومات عن سقوط بغداد على يد هولاكو وما ترتب على ذلك من القضاء على الخلافة العباسية ، وعن الدور الذي قام به بيبرس في صدد جنس هولاكو المغولية في موقعة عين جالوت (٦٥٨ هـ = ١٢٦٠ م) قبل اعتلائه سلطنة مصر ، كما يوضح لنا أيضا ما كان بين بيبرس ومغول فارس من العداء وما كان من تغلبه عليهم في موقعة قيسارية سنة ١٢٧٧ م .

وهناك كتاب آخر اعتمدت عليه في بحث علاقة بيبرس بالمغول الذين يقطنون ببلاد القفجاق وهو كتاب : Sir Thomas Arnold, The Preaching of Islam وقد أمدنا هذا الكتاب بمعلومات هامة عن كيفية انتشار الاسلام بين أهالي القبيلة الذهبية ببلاد القفجاق وما ترتب على ذلك من قدوم كثير من المغول الى مصر واعتناقهم الاسلام بها .

ومن الكتب المتمعة التي اعتمدت عليها في بحث حضارة مصر في عصر الظاهر بيبرس كتاب : Heyd, Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age وقد أعانني هذا الكتاب على بحث تجارة مصر الخارجية في عصر الظاهر بيبرس والمعاهدات التجارية التي عقدها الملك الظاهر مع ملوك أوروبا وبعض الأمراء الشرقيين .

الباب الأول

نشأة بـيـرس

- ١ - ظهور المماليك في مصر .
- ٢ - بـيـرس قبل اتصاله بالملك الصالح أيوب .
- ٣ - بـيـرس منذ اتصاله بالملك الصالح إلى أن انتصر على الصليبيين بمصر .

الباب الاول نشأة بيبرس

١ - ظهور المماليك في مصر

يجمل بنا قبل أن نمضى في الكلام عن حياة بيبرس أن نوجز القول عن ظهور المماليك في مصر . ولا بأس من أن نرجع قليلا الى تاريخ الدولة العباسية التي وضعت الأساس الأول لاستخدام عناصر أجنبية تقوم بإدارة الدولة دون الاعتماد على عصبيتها . تلك السنة التي كان لها أكبر الأثر في اضمحلالها والتي درج عليها بقية الدول الاسلامية بعدها .

قامت الدولة العباسية في مبدأ أمرها على أكتاف الفرس^(١) . ومن ثم كان لهم الخطوة التامة عند الخلفاء العباسيين . فقد ألقوا اليهم مقاليد الدولة كما عهدوا اليهم بالشئون الخطيرة فيها كالوزارة والحجابة وما الى ذلك من مهام الدولة . نرى ذلك جليا في بيتي بنى برمك وبنى سهل . بيد أن هؤلاء الفرس لم يقفوا عند هذا الحد . بل أخذوا في سلب السلطة تدريجيا من أيدي الخلفاء العباسيين . ولقد شعر بذلك بعضهم فأوقع بهم قبل أن يوقعوا به وأدرك العباسيون أنهم في الواقع مع الفرس كالمستجير من الرمضاء بالنار ؛ ذلك أنهم أبعثوا العرب عن مناصب الدولة ولم يعد في استطاعة الخلفاء أن يعيدوهم الى ما كانوا عليه من سلطة ونفوذ ولم يبق أمامهم إلا البحث عن عنصر جديد بعيد عن أهواء العرب السياسية ومصالح الفرس الخاصة . فاجأوا الى العنصر التركي لاعتقادهم أنه مجتذ من الطموح الذي امتاز به الفرس والعصبية التي عرف بها العرب . وهذه السياسة نراها واضحة في عهد

(١) Sir William Muir, The Caliphate, its Rise, Decline and Fall, p.433.

(١) المعتصم الذي اصطنع الأتراك واستخدمهم في جيشه وعهد اليهم بولاية الأقاليم؛ غير أنه سرعان ما ظهر خطأ هذه السياسة فتدخل هؤلاء الأتراك على مر الأيام في تولية الخليفة وعزله اذا لم يحز رضاهم . ظهر ذلك جليا بعد وفاة الواثق (٢٣٢ هـ) حيث عرض عليهم ابنه فلم يوافقوا على توليته لصغر سنه ثم أشير عليهم بجعفر بن المعتصم فلقى هذا الاختيار قبولا لديهم؛ ومن ثم لم يجد الناس بدا من مبايعته .

وهكذا صار أمر الخلافة بأيدي هؤلاء الأتراك . وهذا يفسر لنا طمع الأمراء واستقلالهم بالأقاليم الاسلامية الأمر الذي أضعف الخلافة العباسية وأدى الى سقوطها في النهاية على أيدي التتار سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) .

وأما استخدام المماليك في مصر فانه يرجع الى أيام الدولة الطولونية (٢٥٤ - ٢٩٢ هـ) ، [٨٦٨ - ٩٠٥ م] . فقد اشترى أحمد بن طولون مؤسس هذه الدولة المماليك من الديلم ليقوى بهم جيشه . وقد ذكر ابن إياس أن عدد هؤلاء المماليك وصل الى أربعة وعشرين ألف مملوك . ثم جاءت الدولة الاخشيدية (٣٢٣ - ٣٥٨ هـ) ، [٩٣٥ - ٩٦٩ م] وعلى رأسها محمد بن طنجج الاخشيد . وكان معظم الجيش في عهده وعهد من جاء بعده من أولاده من الأتراك والديلم . ويروى لنا أبو المحاسن^(٤) "أنه كان متجملا في موكبه وملبسه . فكان موكبه يضاهي موكب الخلافة وبلغت عدّة ممالিকে ثمانية آلاف مملوك" . ولما جاء الفاطميون الى مصر (٣٥٨ - ٥٦٧ هـ) ، [٩٦٩ - ١١٧١ م] وأسسوا بها دولتهم ساروا على طريقة العباسيين في الاعتماد على غير أبناء جنسهم وأصبح جيشهم يتألف من عدّة عناصر أهمها :

(١) ابن طباطبا: الفخرى في الآداب السلطانية ص ٢١١؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٢٢٣

• Sir William Muir, The Caliphate. p. 513

(٢) Sir William Muir. Op. Cit. p. 523. (٣) تاريخ مصر: ج ١ ص ٣٧

(٤) النجوم الزاهرة (طبعة دار الكتب) ج ٣ ص ٢٥٦

- (١) المغاربة الذين قامت على أكتافهم هذه الدولة في بلاد المغرب .
 (٢) السودان الذين استكثر منهم الخلفاء منذ أيام المستنصر .
 (٣) الأتراك الذين اشتراهم الخلفاء المتأخرون ليكونوا عماد جيشهم وعلى الأخص بعد خروج بلاد المغرب عن سلطانهم في عهد الخليفة المستنصر (٤٢٧ - ٤٨٧ هـ) . وعلى يد هؤلاء كان انحلال الدولة الفاطمية وزوالها سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) وذلك بسبب قيام العداة بينهم وبين السودان من جهة والتنافس بين رجالهم على الوزارة من جهة أخرى واستعانة بعضهم بالصليبيين مما أوجب تدخل نور الدين محمود صاحب دمشق في أمر مصر وإرساله الجيوش مع أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب . فقصوا على البقية الباقية من استقلال الخلفاء الفاطميين .

وقد نجح صلاح الدين في توطيد سلطته في مصر وانضوى تحت لوائه كل رجالات الدولة وسقطت إلى الحضيض سلطة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين . وعلى أثر وفاة هذا الخليفة تم استقلال صلاح الدين^(١) مؤسس الدولة الأيوبية في مصر (٥٦٧ - ٦٤٨ هـ) ، [١١٧١ - ١٢٥٠ م] ولم يكن سلاطينها مصريين - كما نعلم - بل كانوا أجنبان عن هذه البلاد . جاءوا إليها من أذربيجان^(٢) ، وقد عملوا على جلب الأتراك إليها وبدلوا الأموال الضخمة في شرائهم بغية الاعتزاز بقوتهم .

(١) كان صلاح الدين قد تولى الوزارة بعد وفاة شيركوه وبدأ عمله بالانتصار على الفرنجة في دمياط فاعتبره المصريون حاميا لهم ثم عمل تدريجيا على تقوية مركزه في مصر . فأرسل إليه نور الدين يرغبه في إحلال اسم الخليفة العباسي في الخطبة محل الخليفة الفاطمي . غير أن صلاح الدين تردد في تنفيذ هذه الرغبة حتى لا يثير أهالي مصر . وكان الخليفة في ذلك الوقت مريضا . فعقد صلاح الدين مجلسا من الأمراء استشارهم في ذكر اسم الخليفة العباسي في الخطبة فوافقته بعضهم وتردد البعض الآخر وكان في هذا المجلس رجل فارسي اعترم أن يتولى بنفسه هذا الأمر فصعد المنبر ودعا للستضىء العباسي . ولما لم يحتاج أحد على ذلك أمر صلاح الدين بأن يخطب الخطباء باسم الخليفة العباسي . وبعد أيام قلائل توفي الخليفة العاضد فاستولى صلاح الدين على قصره وسقطت بذلك الدولة الفاطمية . الفاطميون في مصر : الدكتور حسن إبراهيم ص ٣٠٨ و ٣١١ - ٣١٢ (٢) ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ص ٦٩

وكان أكثر الأيوبيين استجلاباً لهذه الطائفة الملك الصالح نجم الدين أيوب . فقد روى لنا أبو المحاسن^(١) وابن إياس^(٢) أن الصالح أكثر من شراء المماليك بعد أن آل إليه حكم مصر حتى كان عامة عسكره منهم . ولما خذله أنصاره وانفض عنه أعوانه من الأكراد وجد فيهم عدته فاعتز بهم وأكثر من شرائهم ؛ فتكثرت عنده منهم جمع غفير زاحموا أهل البلاد وسرعان ما انتشر بينهم الفساد حتى ضج الأهلون وقال في ذلك بعض الشعراء :

الصالح المرتضى أيوب أكثر من ترك بدولته يا شر مجلوب
 قد أخذ الله أيوبا بفعلة
 فالناس قد أصبحوا في ضر أيوب
 يشير الشاعر بذلك إلى قوله تعالى : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ .
 [سورة الأنبياء]

٢ - بيبرس قبل اتصاله بالملك الصالح أيوب

نبغ من بين المماليك الذين استكثر منهم الملك الصالح عدة رجال كان لهم أثر كبير في تغيير مجرى السياسة المصرية نخص بالذكر منهم بيبرس ذلك المملوك الذي أصبح فيما بعد سلطاناً على مصر وعم صيته أكثر بقاع الأرض وصار بعد وفاته موضع حديث الناس وسمهم يتغنى المصريون بأخباره ويترنمون بما قدم لهم وللمالك الإسلام عامة من جليل الأثر وعظيم المفاجر .

وعلى الرغم من أن بيبرس قام بكثير من الأعمال الجليلة التي خلدت ذكره فإنا لا نجد له في كتب التاريخ ما يشفي الغلة عن تفاصيل حياته الأولى ولا ما يكشف لنا القناع عن تطوراته منذ ولد إلى أن بيع في البلاد الشامية . نعم لن يضيرنا ذلك في مثل بيبرس الذي فاق من تقدمه من المملوك والسلاطين بمواجهة الأخطار المحدقة

(١) النجوم الزاهرة : ج ٣ القسم الأول ورقة ١٧٥

(٢) بدائع الزهور : ج ١ ص ٨٣

بشرق البلاد الإسلامية وغربها، وبذل كل ما لديه من عدة لإيقاف هذا التيار الجارف ورد هؤلاء المغيرين على أعقابهم حتى كتب له النصر عليهم ورد كيدهم في نحورهم، وكون مملكة متحدة الأواصر مرتبطة العرى من تلك الأقطار التي امتد إليها نفوذ الصليبيين والتي شملها استبداد الأمم التتارية ولاقت من صنوف الأذى ما جعلها ترحب بكل من مد لها يد المساعدة لينتشلها من هذه الهوة السحيقة التي سقطت فيها .

وقد أجمع المؤرخون على أنه ولد ببلاد القفقاج^(١) وقضى بها شطرا من حياته الأولى إلى أن بيع لأحد تجار الرقيق على أثر هجوم المغول على هذه البلاد سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٢ م) . غير أنهم اختلفوا في الجهة التي بيع فيها بعد ارتحاله عن موطنه .

يحدثنا المقرئ^(٢) أن تاجرا قدم به إلى حماه . ولما عرضه على الملك المنصور محمد لم يعجبه فبيع^(٣) بدمشق بثمانمائة درهم ثم رده مشتره لبياض في إحدى عينيه ؛ فاشتراه الأمير علاء الدين أيديكين البندقدار مملوك^(٤) الملك الصالح نجم الدين أيوب وهو معتقل بحماه وأقام في خدمته مدة ثم أخذه منه الملك الصالح .

(١) تشمل بلاد القفقاج حوض الفلجا والأراضي التي حول بحر قزوين .

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك، طبعة الدكتور زيادة ج ١ القسم الثاني ص ٦٣٧

(٣) أورد ابن واصل "مفرج الكروب في أخبار بني أيوب" ج ٢ ص ٤٠ ب، في هذا الصدد

قصة طريقة عن سبب رفض الملك المنصور شراء بيبرس ثم ذكر ما حدث لبيبرس بعد ذلك مفصلا . وهالك نصها مع بعض التصرف : "وكان السلطان الملك المنصور إذ ذاك في سن الصبا . وكان من عادته أنه متى أراد شراء رقيق أحضر لراه الصاحبة والدته فن أشارت بإبقائه أخذ . وكان الملك المنصور لما بلغه وصول الملك الظاهر مع التاجر تقدم باحضاره فأحضر ومعه خشداش له وعرضا على الصاحبة فرأتهما من داخل الستارة . فلما استأذنها السلطان ولدها في شرائها . قالت له : خذ المملوك الأبيض والأسمر لا يكون بينك وبينه معاملة (يعنى الملك الظاهر) فان عينيه فيها الشر لايم . فردها على التاجر . ولما بلغ الأمير علاء الدين البندقدار حضور هذين المملوكين اللذين جلبا بعث في طلبهما . وعند ما قدما إليه اشتراهما وهو في الاعتقال وظلا عنده حتى أفرج الملك الصالح نجم الدين أيوب عنه وتوجه بهما إلى مصر فأخذهما الملك الصالح منه " .

(٤) البندقدار : هو حامل الجراوه . (كيس البندق) خلف السلطان أو الأمير . القلقشندي : صبح الأعشى ج ٢ ص ١٤٥ ج ٥ ص ٤٥٨

ويروى الشيخ قطب الدين اليونيني المتوفى سنة ٧٢٦ هـ في كتابه "الذيل على مرآة الزمان" وأبو المحاسن المتوفى سنة ٨٧٤ هـ في كتابه "النجوم الزاهرة"^(٢) عن هذه المسألة رواية يستفاد منها أن بيبرس قدم إلى سيواس على أثر بعيه ببلاده ثم نقل إلى حلب وبيع بعد ذلك بالقاهرة للأمر علاء الدين أيدكين البندقدار وظل عنده حتى أخذه منه الملك الصالح عند ما قبض عليه في شوال سنة ٦٤٤ هـ .

وبينما نتضارب الروايات في تاريخ مولده^(٤) وفي الزمن الذي بيع فيه إلى علاء الدين وفي أي بلد كان ذلك البيع فإنا لا نجد فيها جميعها شيئاً ذا غناء، اللهم إلا منذ ذلك الوقت الذي دخل فيه في حوزة الملك الصالح نجم الدين أيوب . ومن هنا نرى له الكثير في كتب التاريخ وسنعرض لذلك بشيء من الإسهاب .

٣ - بيبرس منذ اتصاله بالملك الصالح

إلى أن انتصر على الصليبيين بمصر

بدأ بيبرس على أثر انتقاله إلى ملك الملك الصالح حياة جديدة تغيرت تمام المغايرة

(١) ج ١٧ ورقة ٩٨ / (٢) ج ٣ القسم الثاني ورقة ٢٣٢ (٣) هناك عبارة وجهها رسول أيضا ملك التتار للظاهر بيبرس عند ما قدم إليه للفأوضة معه في عقد الصلح سنة ٦٦٧ هـ يفهم منها أن بيبرس بيع بسيواس وهذه العبارة هي: "أنت مملوك وأبعت في سيواس فكيف تشافق المملوك ملوك الأرض". المقرئى: السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٥٧٣ - ٥٧٤ (٤) ورد في (Ene. Isl. Art. Baibars I) أن بيبرس ولد سنة ٦٢٢ هـ . وهذا يخالف ما رواه أبو المحاسن ج ٣ القسم الثاني ورقة ٢٣٢ من أنه ولد سنة ٦٢٥ هـ . (٥) كان الصالح أيوب قد أعطاه أبوه الملك الكامل حصن كيفا وسيره إليه سنة ٦٣٠ هـ . وقد قصد بهذا أن يعده عن مصر فيخلو بذلك الحق له ولولده العادل ولي العهد من بعده . المقرئى: السلوك ج ١ القسم الأول ص ٢٤٤

ولما توفي الملك الكامل سنة ٦٣٥ هـ بدمشق اتفق رأى الأمراء بمصر على أن يولوا ابنه الأمير أبا بكر ولقبوه بالملك العادل فاستاء لذلك الملك الصالح واتهم فرصة استدعاء المصريين له وهم بمغادرة الشام إلى مصر ليستولى عليها فاعتقله الناصر داود صاحب الكرك بنا بلس وما لبث أن أطلق سراحه وتحالف معه على أن تكون مصر للصالح أيوب والشام للناصر . وفي هذه الأثناء كانت قد دبرت مؤامرة بمصر لخلع الملك العادل وأتفق المماليك الكاملة على استدعاء الملك الصالح فسار معه مماليكه إلى مصر وأعلن نفسه سلطانا عليها سنة ٦٣٧ هـ . وقبض على أخيه العادل وظل في السجن حتى مات سنة ٦٤٥ هـ . المقرئى: السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٢٦٧ و ٢٩٤ - ٢٩٦

ما كان عليه في حياته الأولى من يوم أن وصل الى بلاد الشام . فقد اتخذ الملك الصالح سنة ٦٤٤ هـ (١٢٤٦ م) رئيسا لإحدى فرق حرسه الخاص^(١) لما رآه فيه من الهمة الشماء والفتنة والذكاء ، وظل يرتفع ذكره ويسمو قدره ويتدرج في المناصب حتى أصبح قائدا لفرقة المماليك التي كان لها الفضل الأكبر في صدّ حملة لويس التاسع عن مصر .

وقبل أن نتكلم عن الدور الذي قام به بيبرس في صدّ هذه الحملة يجمل بنا أن نذكر شيئا عن سبب قيامها والعقبات التي صادفتها حتى اشترك بيبرس في صدّها :

لما انقضت الجيوش الخوارزمية^(٢) على سوريا سنة ١٢٤٤ م ونحرت بيت المقدس أثار ذلك ملوك أوروبا واتجهت مجهودات لويس التاسع ملك فرنسا الى تجهيز حملة صليبية لمهاجمة مصر يقودها بنفسه ويكون عمادها الفرنسيون . غير أن هذه الحملة لم تلبث أن عصفت بها العواصف عند مرورها بقبرس في أوائل سنة ١٢٤٩ م . ففتح أكثر من نصف سفنها الى سواحل الشام ولم يصل منها سوى سبعمائة قطعة ، ونزح سكان دمياط الى منزلة المنصورة على أثر ظهور سفن الملك لويس التاسع وتركوا مراكب التعديّة فعبرت جيوش لويس عليها بدون عناء^(٣) .

وعلى الرغم من ذلك فقد أخطأ قائد تلك الحملة بتأخره في التقدّم جنوبا إذ كان يجب عليه أن يتقدّم بسرعة نحو القاهرة قبل حلول زمن الفيضان وقبل أن يفنيق

(١) Enc. Isl. Art Baibars I.

(٢) هؤلاء الخوارزمية هم عسكر جلال الدين الخوارزمي . وقد ساروا بعد مقتله الى كيقباد ملك روم السلاجقة ثم فارقه لما قبض على أكبر مقدميهم ، فاستألفهم الصالح أيوب وأستأذن أباه الملك الكامل ، استخدمهم في جيشه فأذن له بذلك . أبو الفدا : ج ٣ ص ١٥٩

(٣) Stevenson, The Crusaders in the East. pp. 324-326.

(٤) Davis, The Invasion ; Joinville, Memoirs of the Crusades p. 116.

of Egypt by Louis IX of France p. 21

المسلمون من صدمة الفرار عن دمياط . وبدلا من التقدم بسرعة ضرب الملك لويس خيامه وظل ينتظر وصول المراكب التي بعثتها العواصف ، ثم تقدمت جيوشه من دمياط في طريقهم الى القاهرة بعد أن أقامت فيها ستة شهور . غير أن جهلها الطريق كان سببا في تأخيرها فاستغرقت شهرا كاملا في قطع الطريق بين دمياط ومنزلة المنصورة وهو لا يزيد على خمسين ميلا وتأخر تلك الحملة في دمياط وتعثرها في الطريق ذلك الوقت الطويل أتيجت للمسلمين الفرصة بجمعوا شملهم وضموا صفوفهم^(١) .

أما الصليبيون فإنهم وصلوا الى شامساح — وتقع في منتصف الطريق بين دمياط والمنصورة — ولكي يتقدموا جنوبا وينفذوا فكرة مهاجمة القاهرة كان عليهم أن يعبروا فرع دمياط أو قناة أشموم طنح . فاختر لويس الطريق الأسهل وعمل على بناء سد في عرض النهر الصغير^(٢) ، وأنشأ أبراجا متحركة لتحمي الجنود الذين يعملون في السد . غير أن المسلمين بدأوا في مناوشة هؤلاء الجنود وعبرت فرقة منهم هذا النهر من مكان بعيد وحاولت تطويق مؤخرة الجيش الصليبي فطاردها الملك لويس ولكن معسكره على الرغم من ذلك كان معرضا للخطر من جميع الجهات^(٣) .

وفي تلك الأثناء تقدم أحد أهالي بلدة سلامون وعرض على الصليبيين أن يدلم على محاضرة كبيرة جهة أشموم طنح في مقابل مبلغ من المال . فاستخدمه الملك لويس دليلا ، وسير فرقة الخيالة على ثلاث دفعات : أولها الفرسان الداوية . وثانيها الخيالة الرماة وعلى رأسها روبرت كونت أرتوا (Robert Count d'Artois) (أخو الملك لويس) . وثالثها فرقة الملك^(٤) .

(١) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages

(٢) ويعرف الآن باسم البحر الصغير . pp. 232-233

(٣) Stanley Lane-Poole, Op. Cit. p. 234.

(٤) Davis, The Invasion of Egypt by Louis IX of France, p. 38.

(٥) Stanley Lane-Poole; op. cit. p. 234.

لم يلق الصليبيون مقاومة وهم يعبرون النهر أول الأمر . غير أن روبرت كونت أرتوا يجتهد عبور الفرقة الثانية عزم على التقدم للحاق بالعدو ثم اقتحم معسكر المسلمين ، فاخترقه من مقدمته الى مؤخرته وتمكن بعض الفرسان من قتل القائد فخر الدين فانهمز المسلمون وتفترقوا . ثم دارت الدائرة على الصليبيين ، فقد ثبتت فرقة المماليك أمام هذا الهجوم العنيف وحالت بينهم وبين ما أرادوا من الإستيلاء على قصر السلطان . وكان قائد تلك الفرقة بيبرس الذي انقض عليهم وقلب نصرهم هزيمة واندفع جنود الصليبيين في شوارع المنصورة وسقط كثير منهم قتلى من بينهم الكونت أرتوا وفرقة ^(١) .

أما بقية الصليبيين بلحقت بالملك لويس عند السد الذي كان قد شرع في بنائه على النهر الصغير . وقد عرض نفسه بموقفه هنا لمجموع الفرق المملوكية التي أحاطت به وأصبح من الصعب عليه أن يهزم جيش المسلمين وخاصة بعد أن فقد كثيرا من فرسانه ولم يبق معه إلا الجنود المشاة الذين لا يستطيعون الحرب إلا بالسيوف .

وعندما أصبح مركز لويس حرجا فكر في بناء جسر مؤقت على الجزء الذي لم ينته من السد . ولما تم بناؤه استطاعت فرقة من الضفة الأخرى أن تأتي لنجدته ، غير أن النجاح في بناء هذا الجسر لم يغير شيئا من موقف جيش لويس فلم يمهلهم المسلمون حتى عاودوا الهجوم عليه موجهين همهم نحو هذا الجسر في الوقت الذي لم يكن لهم سلطان يأمرون بأمره . فقد توفي الملك الصالح في نوفمبر سنة ١٢٤٩ م عندما بدأ الصليبيون يتقدمون نحو المنصورة . وكان ابنه وولي عهده الملك المعظم تورانشاه بعيدا عن مصر بحصن ^(٢) كيفا فرأت زوجه شجرة الدر أن تخفى وفاته حتى لا يتطرق الوهن الى نفوس المسلمين فيفرون من ساحة القتال اذا علموا بموت

(١) Stanley Lane-Poole, Op. Cit. pp. 234-235 ; Davis, The Invasion of Egypt by Louis IX of France pp. 38-39.
(٢) Stanley Lane-Poole, Op. Cit. pp. 236-237.

السلطان وبذا يتم للصليبيين الاستيلاء على الديار المصرية ، وأحضرت الأميرين نجر الدين والطواشى جمال الدين محسن وهما من حاشية السلطان وخاصته وأسرت اليهما بموت الملك الصالح واتفقت معهما على القيام بتدبير شئون الدولة حتى يحضر ابن زوجها تورانشاه من حصن كيفا^(١) . فأخذ الأمير نجر الدين يصدر الأوامر مذيلة بتوقيع السلطان الملك الصالح ، وقد قيل إنها كانت بنحط خادم يقال له سهيل يشابه توقيع توقيع الملك . ولما وقف حسام الدين نائب القاهرة على حقيقة الأمر وعلم بوفاة السلطان اشتد خوفه من الأمير نجر الدين فكتب الى تورانشاه يطلب منه التعجيل بالحضور ، كما أمر الخطباء بأن يدعوا على منابر القاهرة يوم الجمعة لتورانشاه بعد الدعاء لأبيه الملك الصالح^(٢) .

ولم يمض على ذلك وقت طويل حتى قدم تورانشاه الى مصر . فترل بقصر السلطنة بالمنصورة وسامته شجرة الدر مقاليد الأمور فأخذ يشرف على الحرب بنفسه . ويدبر خطتها برأيه الصائب ونظره الثاقب واستطاع بذلك أن يتختم واقعة المنصورة بنصر على الصليبيين . وكان أول ما قام به من الأعمال أن نقل أسطولاً من المراكب على ظهور الجمال الى نقطة على فرع دمياط شمالي المراكب الفرنسية . وهناك اشتبك الأسطولان المصري والفرنسي ودارت الدائرة على الأخير بعد أن خسر كثيراً من مراكبه .

ساء مركز لويس بعد هذه الهزيمة اذ لم يصبح لديه من القوى ما يستطيع بها مقاومة تقدم المسلمين وكذلك لم يبق لديه من الميرة ما يعينه على الوقوف أمام المصريين والمماليك . فضاقت الوسائل بالصليبيين وثار نفوس الجند من قلة الأزواد

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٤٣ — يقع حصن كيفا على الضفة الغربية لنهر دجلة بالقرب من أمد .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٤٤ — ٣٤٥

(٣) حملت هذه المراكب من سمود الى القنائة التى تعرف الآن باسم بحر شين Davis, Invasion

وتفشى فيهم الوباء وظل الملك لويس صابرا لا يجد وسيلة تخلصه من هذا المأذق؛ فاضطر الى طلب الهدنة وتسليم دمياط على أن يأخذ الصليبيون القدس وبعض بلاد الساحل. فأبى عليهم المصريون ذلك. فأحرق الصليبيون أخشابهم وألقوا مراكبهم وولجأوا الى التحصن في دمياط. فركب المسلمون أقميتهم وحاربوهم حتى أوصولهم الى فارسكور؛ وهناك حملوا على الفريخة حملة صادقة واستمات الممالك في الدفاع بقيادة بيبرس حتى أزاحوا الصليبيين عن موقعتهم وقتلوا منهم عددا كبيرا، كما أسروا كثيرا من الأمراء والجنود وامتلات أيديهم بالغانم من السلاح والخيول وغير ذلك.

أما لويس فإنه التجأ مع بقية جيشه الى تل منية عبد الله بالقرب من المنصورة واعتصموا به؛ فتبعهم المسلمون وشددوا عليهم الحصار فاضطروا الى التسليم على أن يؤمنوا على حياتهم. وكان يبلغ عددهم خمسة آلاف معظمهم من الفرسان والأشراف، وسبق لويس ممتقلا الى دار القاضي إبراهيم بن لقمان بالمنصورة، ثم أفرج عنه بعد أن دفع مبلغا كبيرا من المال وبعد أن تم الاتفاق معه على إخلاء دمياط.

علت كلمة الممالك البحرية وعلى رأسهم بيبرس واشتد أزرهم بهذا النصر الثمين الذي أحرزوه في موقعة فارسكور. وحينئذ نراهم يضمرون السنوء لسلطانهم تورانشاه حين قرب إليه ثمانيكه وحاشيته الذين جاءوا معه من حصن كيقا وأحلهم محل ممالك أبيه البحرية في منصب الدولة، وتضحية على زوجة أبيه شجرة الدر وتوصله لها إن لم تقتله بمال أبيه. فلما ضاق بهذا الصدر وعيل منها الصبر أرسلت الى الممالك تقول لهم "اقتلوا تورانشاه وعلى رضاكم". فصادف قولها هذا هوى

(١) Stanley Lane-Poole, Op. Cit. p. 238.

(٢) المقرئى: السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٣٥٥ — ٣٥٦

(٣) تعرف الآن بسجن لويس ويقصد بها كثير من السياح والزائرين وقد نقش على بابها تاريخ

(٤) Davis, Op. Cit. pp. 51, 57 أسر لويس بها .

في نفوس المماليك ، وزاد الطين بلة والطنبور نغمة ما كان يبلغهم عنه أنه إذا ثمل من الخمر يضع أمامه الشموع مصفوفة ويتناول بيده السيف ويضربها به واحدة بعد أخرى وهو يقول " هكذا أفعل بالملك البحرية " ويذكر أسماءهم واحدا بعد آخر . كل هذه الأمور أحفظت نفوسهم وأوغرت صدورهم وضاقوا بتحملها ذرعا . فأجمعوا رأيهم على الفتك به وتولى أسراؤهم تنفيذ ما اعترضوا عليه بزعامه بيبرس ومعه من الأمراء قلاوون الصالحى وأقطاي الجامدار وأبيك التركمانى وغيرهم .

فلما أقيم السباط على أن تزول تورانشاه بفارسكور سنة ٦٤٨ هـ تقدم إليه هؤلاء البحرية وبأيديهم السيوف فبادره ركن الدين بيبرس بالسيف على أصابعه فقطعها وتبعه في ذلك الأمراء ، فقتل تورانشاه هاربا ودخل برجا من الخشب كان قد أعده على النيل ليجلس فيه أيام إقامته بفارسكور ، وأخلق عليه بابه فأدركه بيبرس ومن معه وأضرموا النار في البرج فالتقى بنفسه في النيل وأخذ يسبح طالب النجاة بنفسه . فلم يغه ذلك شيئا ورموه بالشباب من كل ناحية وهو يستغيث ولا مغيث وينادى ولا مجيب ويقول " خذوا ملككم ودعوني أرجع الى حصن كيفا " . فلم يلتفت أحد الى قوله ولم يجد من يدفع عنه مخالب الموت وينجيه من القتل وانتهى أمره بان مات قتلا غريقا حريقا . ولما أيقنوا من وفاته انتشلوا جثته من النيل وتركوها على شاطئه ثلاثة أيام . ولم يجرؤ أحد من حاشيته على دفنه ثم وورى التراب في مكانها .

بذلك انتهت حياة تورانشاه دون أن يجلس على عرش آبائه أو يدخل القاهرة مقر حكمهم . وبقتله انتهى حكم الأيوبيين بالديار المصرية وابتدأ عصر المماليك .

(١) المقرزى السلوك : ج ١ القسم الثانى ص ٣٥٨ - ٣٦٠ ، أبو الفدا : المختصر فى أخبار

البشر ، ج ٣ ص ١٨١

(٢) Stanley Lane-Poole, Op. Cit. p. 239.

الباب الثاني

حالة مصر قبيل تولية بيبرس سلطنتها

- ١ - انتقال السلطة الى المماليك .
 - ٢ - ظهور بيبرس على مسرح السياسة المصرية .
-

الباب الثاني

حالة مصر قبيل تولية بيبرس سلطنتها

١ - انتقال السلطة الى المماليك

اتفقت كلمة أمراء المماليك البحرية بعد قتل تورانشاه على تولية شجرة الدر مكانه^(١) . فأخذت تقترب من أزباب الدولة وتمنعهم الرتب والاقطاعات كما خفضت الضرائب عن الأهلين لتستميل قلوبهم وساست الرعية أحسن سياسة^(٢) . على أن الناس على الرغم من ذلك قد كرهوا حكمها إذ لم تجر عادة المسلمين بأن يتقلد حكمهم امرأة^(٣) . فخرج أهل سوريا عن طاعتها وبايعوا الناصر يوسف الأيوبي صاحب حلب .

ولما علمت بذلك شجرة الدر آثرت المحافظة على كيان الدولة وأظهرت رغبتها في التخلي عن الحكم . فأشار عليها القضاة والأمراء بأن تتزوج من عز الدين أيبك التركاني أتابك العساكر وتفوض إليه أمور الدولة^(٤) ؛ فقبلت ذلك ونزلت عن سلطنة مصر لزوجها بعد أن لبثت في الحكم ثمانين يوماً برهنت فيها على كفاءة ممتازة وحكمة نادرة في تصريف الأمور وتديير الملك^(٥) .

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٦١

(٢) ابن إياس : ج ١ ص ٨٩

(٣) لنا علم الخليفة المستنصر بالله العباسى بتولية شجرة الدر سلطنة مصر فضب على أهل مصر وكتب

إليهم بأن يولوا عليهم رجلا منهم أو يرسل لهم من يصلح للحكم إن لم يوجد بمصر من يصلح له . المقرئى :

السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٦٨

(٤) Stanley Lane-Poole, a History of Egypt in the Middle Ages p. 250

(٥) ابن إياس : ج ١ ص ٩٠

وقصارى القول فقد كانت شجرة الدر ذات ذكاء وقاد وشجاعة نادرة وشخصية ممتازة قل أن يوجد لها نظير . ولا عجب في هذا فقد حنكتها التجارب من يوم أن اتصلت بزوجها الملك الصالح نجم الدين أيوب .

وعندما تخلت شجرة الدر عن العرش أقام أمراء المماليك عز الدين أيبك أتايك العسكر ساطانا على مصر ولقبوه بالمعز؛ غير أنهم لم يلبثوا بعد ذلك أن طالبوا بتنصيب أحد أمراء البيت الأيوبي معه في السلطنة واتفقوا على تولية الأشرف مظفر الدين موسى وله من العمر ست سنين^(١) . وقد علل ابن واصل^(٢) رغبة هؤلاء الأمراء في إشراك أحد الأيوبيين مع المعز أيبك الى أنفتهم من الخضوع له ورغبتهم في التدخل في شئون الدولة .

اتهمز الملك الناصر صاحب الشام فرصة هذا الاضطراب الذى ساد مصر في ذلك الوقت وخرج بعساكره من دمشق يريد الاستيلاء عليها . فلما ورد الخبر بذلك الى مصر اضطربت الدولة ، وقبض المعز أيبك على جماعة من الأمراء اتهموا بالميل للملك الناصر وأعد العدة لملاقاته حتى قدمت جيوشه الى مصر واشتبك الفريقان بالقرب من العباسية في معركة هزم فيها المصريون أول الأمر ؛ ثم لم يلبثوا بعد ذلك أن هاجموا الناصر وجيشه فولوا منهزمين نحو الشام^(٣) .

ازداد نفوذ المماليك البحرية على أثر هذا الانتصار الذى أحرزه المعز على جيوش الشام بفضل جنودهم الذين أبلوا بلاء حسنا فى صدّ جيوش الناصر ؛ فارتكبوا كثيرا من الفظائع مع أهل مصر . وفى ذلك يقول المقرئى^(٤) : " فنزل بالناس من البحرية بلاء لا يوصف ما بين قتل ونهب وسبي بحيث لو ملك الفرنج بلاد مصر

(١) المقرئى : السلوك القسم الثانى ج ١ ص ٣٦٩

(٢) مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ج ٢ ص ١٣٧٦

(٣) أبو الفدا : ج ٣ ص ١٨٤ - ١٨٥

(٤) المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار : ج ٢ ص ٢٣٧

ما زادوا في الفساد على ما فعله البحرية وكان كباراؤهم ثلاثة : الأمير فارس الدين أقطاي ، وركن الدين بيبرس البندقداري ، وسيف الدين بلبان الرشيدى .^(١)

لم يكد المعز أيك يفرغ من صد جيوش الناصر عن مصر حتى وصلت إليه الأخبار سنة ٦٥٠ هـ (١٢٥٢ م) بأن هولاء كو سار من قوه قورم (Karakarum) ومعه تعليمات من أخيه ملك التتار خلاصتها القضاء على الاسماعيلية بفارس وهدم الخلافة العباسية ببغداد^(٢) . فانتهم المعز هذه الفرصة وأزال اسم الملك الأشرف موسى من الخطبة وقبض عليه وسجنه وانفرد بالسلطة دونه وأرهب الأهلىن بجمع الأموال الكثيرة والمكوس التي لم تكن مقررة من قبل وعين الأمير سيف الدين قطر نائبا للسلطنة بمصر ، ثم عقد صلحا مع الملك الناصر يوسف صاحب الشام تقرر فيه أن يكون للعز إلى نهر الأردن وللك الناصر ما وراء ذلك^(٣) .

ولما اطمأنت نفس المعز أيك من ناحية بلاد الشام شرع في تهدئة نائرة العرب بالوجه البحرى والصعيد الذين اجتمعوا على شخص من ذرية على بن أبى طالب يسمى حصن الدين بن ثعلب ؛ فأرسل إليهم الأمير فارس الدين أقطاي وغيره من الأمراء فاقتتل الفريقان بالقرب من باميس وتفترق كثير من العرب عن حصن الدين ، فولى منهزما ؛ ثم سار المماليك لإخضاع عرب الغربية والمنوفية فهزموهم بناحية سخا وسنهور ولحق الشريف حصن الدين بمن بقى من أصحابه وبعث يطلب الأمان من الملك المعز فأمنه ؛ غير أن المعز لم يلبث أن نقض الأمان عند ماسار حصن الدين إلى بلييس إذ قبض عليه وأرسله إلى الإسكندرية وقتل أتباعه وبذلك تبدد شمل العرب في مصر^(٣) .

(١). Browne, A Literary History of Persia, Vol. II. pp. 452-453.

(٢) المقرزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٨٤ — ٣٨٥

(٣) المقرزى : نفس المرجع ص ٣٨٦ — ٣٨٨

ويرجع سبب هذه الثورة إلى انتشار روح القومية بين العرب المقيمين بمصر الذين يرى كثير منهم أن مصر عربية دينياً ولغة وعادات وأنه لا بد لهم من ملك عربي مستقل يحكمهم ، فغضبت نفوسهم وثارت حميتهم لإمارة الأتراك والمماليك عليهم . وليست هذه الروح جديدة فيهم بل لقد دب دبيها منذ عهد الدولة الطولونية حين قامت الفتن والثورات على أيدي العرب في مصر ضد الطولونيين والأتراك^(١) . لم يبق أمام المعز بعد ذلك إلا منافسه فارس الدين أقطاي وكان قد استفحل أمره في ذلك الوقت ، فرأى أن يتخلص منه ويشتت شمل من معه من الجنود وخاصة بعد أن طلب منه الإقامة بقاعة الجبل ، فاتفق مع طائفة من مماليكه المعزية على قتله إذا مر بهم ، فوثبوا عليه عند باب قاعة الأعمدة (بالقاعة) بسيوفهم فأذاقوه كأس المنون وأغلقت أبواب القلعة وشاع خبر قتله ، فاجتمع أنصاره وأعوانه من المماليك البحرية وأحاطوا بالقلعة فرمى إليهم المعز برأس أقطاي فسقط في أيديهم وانفضوا خائبين وأدركوا أن المكيدة لاحقة^(٢) بهم ، فاجتمع رؤسائهم بيبرس وقلاوون الألفي وستقر الأشقر والأمير بيسرى وغيرهم وقرروا الخروج إلى البلاد الشامية . وسرعان ما علم المعز بنواياهم فألق دونهم أبواب القاهرة ولكنهم أحرقوا باب القراطين ونرجوا منه هار بين صوب مقصدهم واختفى غيرهم ممن لم يسايرهم . ولما تشتت شملهم استصغى المعز أملاكهم واسترد ما كان لديهم من الأموال والذخائر وأعاد ما أخذه أقطاي إلى بيت المال وأضاف أعمال الاسكندرية إلى أعمال السلطان وبذلك صفاه له الجؤ وانفرد بتدبير المملكة^(٣)

Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages. (١)
pp. 259, 261-262

(٢) كان المعز قد أهمل جانب المماليك البحرية واتخذ له مماليك غيرهم سموا بالمماليك المعزية .
(٣) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٨٩ — ٣٩٠ . (٤) عرف هذا الباب بعد ذلك بالباب المحروق وهو باب القاهرة الشرقى . Lane-Poole : Cairo, p. 129.
(٥) ابن خلدون : ج ٥ ص ٣٧٥ و ٣٧٦ ؛ المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ، ص ٣٨٨ — ٣٩٢

نخرج بيبرس ومعه أمراء المماليك قاصدين الشام ولما وصلوا غزة كاتبوا
الناصر يوسف صاحب حلب يستأذنونه في القدوم عليه فأذن لهم^(١) وعند ما وصلوا
إليه قابلهم بالترحاب وأكرم وفادتهم وشملهم بعطفه ولين جانبه وأقطعهم البلاد
الساحلية . ولما استقروا لديه أغروه بحجارة مصر والاستيلاء عليها ؛ فصادف
كلامهم هوى في نفسه فبادر بتجهيز جيش إلى القاهرة ؛ وسرعان ما أعد سلطان
مصر جيشه أيضا وغادر المدينة ليقطع الطريق على الجنود الشامية ويقاتلهم قبل أن
يدخلوا بلاده .

التقى الجيشان عند قرية العباسة ولم يجر بينهما قتال ، بل دارت المفاوضات
وتم الأمر بالصلح على أن يكون للملك المعز ما كان للملك الصالح نجم الدين أيوب
(أى ساحل الشام ومصر) وعلى ألا يؤذى الملك الناصر أحدا من المماليك البحرية^(٢)
وعاد كل إلى بلده سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) .

هذا ولا يفوتنا أن نذكر أن المعز أيبك بعد انفراده بالسلطنة فلت زوجه شجرة
الدر من شوكتها ، ووقع بينهما التشاحن والتباغض وأثار غضبها ما كان من خطبته
من ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ؛ فعملت على اغتياله وأرسلت إليه توهم
أنها باقية على طاعته وقد رجعت عما كان يلاحظ عليها من غطرسة وشدة . وكانت
قد أعدت خمسة من الخدام وأمرتهم بقتله إذا ما أمكنتهم الفرص ؛ فقام هؤلاء
الخدام بما أمروا به وقتلوه داخل الحمام (ربيع الأول سنة ٦٥٦ هـ) وأشاعوا أنه قد
أغشى عليه . وفي الصباح أذيع قتله بين الناس فدفنه آسنه على ومماليكه ثم قبضوا على
شجرة الدر وسلموها إلى الجوارى فضر بها بالنعال حتى ماتت في ربيع الثاني من هذه
السنة وألقيت جثتها في أحد الخنادق ثلاثة أيام ثم دفنت بتربتها المعروفة باسمها
اليوم .

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٩٢

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٣٩٨

ولى الأمراء مكان المعز أيك ابنه عليا وعمره خمس عشرة سنة وكان القائم بتدبير المملكة اذ ذاك علم الدين سنجر الحلبي والوزير شرف الدين بن صاعد الفاضلي . فلما تم الأمر نعلي بن أيك الملقب بالملك المنصور نور الدين ولى سيف الدين قطز^(١) نيابة السلطنة بمصر وقبض على وزيره شرف الدين واستولى على أمواله ، ثم ولى فارس الدين أقطاي المستعرب أتابكية العسكر بدلا من علم الدين سنجر .

استمر قطز في النيابة لابن أيك وتولى قيادة الجيش لصمد المماليك البحرية والمغيث على ما سيأتى — وكانوا قد حسنوا للمغيث أخذها لما علموا أن التتار على وشك مهاجمتها بعد استلائهم على الشام . وفي عهد على هذا كانت إغارة التتار على البلاد الشامية بعد أن دمروا بغداد وقتلوا الخليفة المستعصم واستولوا على حلب وغيرها من البلدان^(٢) .

لم يرض المماليك البحرية بهذا الصالح الذى عقد بين الملك الناصر والمعز أيك ، ونمى الى الناصر أنهم يريدون الفتك به فأجلاهم الى غزة ؛ وهناك كتبوا بالطاعة الى الملك المغيث صاحب الكرك ، فأرسل اليهم الناصر عسكرا لمقاتلتهم فانتصر عليهم المماليك البحرية وهزموهم ، ثم أعاد عسكر الناصر الكرة فانتصروا وطردهوا البحرية الى البلقاء^(٣) ملتجئين الى المغيث فأنفق عليهم أموالا ضخمة وأطعموه هو أيضا في ملك مصر فجهزهم بالعدد والعدد ، وساروا متجهين الى مصر وخرج الجيش المصرى يقوده سيف الدين قطز ، والتقى الفريقان بالصالحية فانهمز المماليك البحرية ومن معهم وأسر منهم قلاوون الصالحى وبلبان الرشيدى وغيرهما ، ثم أطلق سراح قلاوون بعد أيام ولحق بأصحابه بالكرك^(٤) .

(١) كان قطز من أولاد الملوك الخوارزمية . يقال انه ابن أخت خوارزم شاه واسمه محمود بن مودود وقد أسرى في حروب التتار وبيع بدمشق للمعز أيك . ابن خلدون ج ٥ ص ٣٧٩ ؛ *Enc. Isl.* Kutus, s.v.
(٢) ابن إياس : ج ١ ص ٩٤ (٣) كورة من أعمال دمشق . ياقوت : معجم البلدان . (٤) أبو الفدا : ج ٣ ص ١٩٢ و ١٩٣
(٥) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٠٦

أما عن موقف الملك الناصر في ذلك الوقت فإنه أنفذ ابنه الملك العزيز إلى هولاء كويطلب منه النجدة للاستيلاء على مصر من المماليك، فأجابه هولاء كويطلب . غير أن المماليك البحرية الذين كانوا بدمشق في ذلك الوقت لما سمعوا بذلك ساروا إلى الملك المغيـث بالكرك وحببوا إليه أخذ مصر، فسار في عساكره سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) ، وقدم إليه بعض الأمراء الذين كاتبوه من مصر وتقدم إليهم . فطز في عسكر مصر والتقى بهم فهزمهم وفر المغيـث إلى الكرك^(١) . أما المماليك البحرية فانهزم ذهبوا إلى الطور واجتمعوا بمن هناك من الأكراد الفارين من التتار وصاهروهم . وقد أثار هذا الاجتماع مخاوف الناصر فجهز إليهم عسكرا من دمشق والتقى الفريقان بالطور فهزمت عساكر الناصر ، ثم عاود قتالهم وسار على رأس جيشه يخاف المماليك البحرية لقاءه وتركوا الأكراد وذهبوا إلى بلاد الكرك ، فأرسل الناصر إلى المغيـث يتوعده إن لم يسلم هؤلاء البحرية . وترددت الرسل بينهما وانتهى الأمر بأن اتفقا على أن يتسلم الناصر من المغيـث طائفة المماليك البحرية وأن يبعد عن المغيـث الشهرزورية^(٢) .

لما علم بذلك بيبرس هرب ومعه جماعة من البحرية إلى الملك الناصر فأحسن إليهم ، وقبض الملك المغيـث على من بقي عنده من المماليك البحرية وبعث بهم إلى الناصر فقبضهم بقلعة حلب^(٤) . وقد ظلوا بها إلى أن استولى التتار عليها وأخذهم هولاء كويطلب مع من أسر إلى بلادهم^(٥) .

(١) أبو الفدا : ج ٣ ص ١٩٥ ؛ المقرئى : السلوك ص ٤١٠ و ٤١١

(٢) المقصود بها طور سيناء .

(٣) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤١٤ ؛ والشهرزورية نسبة إلى شهرزور وهى إحدى جهات كردستان . وكان بتلك الجهة جماعة من الأكراد ظلوا بها حتى استولى هولاء كويطلب على بغداد وتقدمت جيوشه شمالا نحو شهرزور وغيرها ، ففر الشهرزورية من وجه التتار إلى الشام ومصر .

Enc. Isl. Art. shehrizur.

(٤) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر، ج ٣ ص ١٩٨

(٥) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر، ج ٥ ص ٣٧٨

يتضح لنا مما تقدم كيف ازداد نفوذ المماليك البحريةية وعلى رأسهم بيبرس ، كما نرى من هذه المنازعات التي حدثت بينهم وبين المعز أيك كيف أن السلطنة في مصر يتنازعها فريق من أمراء المماليك ، وكان لهذا أثره في حالة مصر الداخلية في ذلك الوقت فشغل المعز أيك وابنه من بعده عن إصلاح مرافق البلاد بالقضاء على هذه المشاغبات التي أثارها المماليك البحريةية . وإن الناظر الى هذه المناقشة التي دارت بين علاء الدين سلطان السلاجقة الروم والأمير علم الدين سنجر الباشقردى على أثر الكتاب الذي أرسله المعز أيك الى سلطان الروم عندما التجأ اليه فريق من المماليك فراراً من غدر المعز أيك بهم ليقف على مبلغ العداء المستحکم بين المعز أيك والمماليك البحريةية . وفي ذلك يقول المعز في كتابه الى سلطان الروم "البحرية قوم مناحيس أطراف لا يقفون عند الايمان ، ولا يرجعون الى كلام من هو أكبر منهم ، وإن استأمنتهم خافوا ، وإن استحلقتهم كذبوا ، وإن وثقت بهم غدروا ، فتحجز منهم على نفسك فإنهم غدارون مكارون خوانون ، ولا آمن أن يمكروا عليك " .

كان لهذا الكتاب أثره في سلطان الروم ، فأرسل يستدعيهم فلما حضروا قال لهم : " يا أمراء ! ما لكم ولأستاذكم ؟ فتقدم الأمير علم الدين سنجر الباشقردى وقال : يا مولانا ! من هو أستاذنا ؟ قال : " الملك المعز صاحب مصر " . فقال الباشقردى : " يحفظ الله مولانا السلطان ! إن كان الملك المعز قال في كتابه إنه أستاذنا فقد أ ، إنما هو خوشدأشنا ونحن وليناه علينا وكان فينا من هو أكبر منه سنا وقدرنا س وأحق بالملكة . فقتل بعضنا وحبس بعضنا وغرق بعضنا فهربنا وتشتتنا في البلاد ونحن التجأنا اليك " (٢) .

لما علم قطز بما فعله التتار بالمدن الشامية وأنهم على وشك الهجوم على مصر جمع أمراء دولته وقال لهم " لا بد من سلطان قاهر يقاتل هذا العدو ، والملك

(١) الخشداشية في اصطلاح عصر المماليك بمصر الأمراء الذين نشأوا عند سيد واحد فنبت بينهم رابطة الزمالة القديمة ونقلها في الفرنسية (Comrades) المذكور زيادة .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٣٩٣

المنصور صسبي لا يعرف تدير المملكة“ . والواقع أن الملك المنصور كان مستهترا بأمور الدولة ولم يقتصر الأمر على ذلك بل تدخلت أمه في إدارة شؤون البلاد فاضطربت الأمور وساعد ذلك قطز على الطمع في الوصول إلى سلطنة مصر ، فاتهم فرصة خروج الأمراء للصيد وقبض على الملك المنصور وأخيه وأمهما واعتقلهم بقلعة الجبل وأعلن نفسه سلطانا على مصر (٦٥٧ هـ = ١٢٥٩ م) . فلما علم بذلك الأمراء أنكروا عليه هذا العمل ، فاعتذر إليهم بقوله ”إني ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال التتر ولا يتأتى ذلك بغير ملك فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدد فالأمر لكم . أقيموا في السلطنة من شئتكم“^(١) .

٢ - ظهور بيبرس على مسرح السياسة المصرية

ذكرنا أن المماليك البحرية فرّوا من المغيث حين رأوا منه عين الغدر بهم . ووصل بعضهم إلى مصر . وكانت هجمات التتار على البلاد الشرقية متوالية في ذلك الوقت كما كانوا ينتقلون بسرعة من بلد إلى آخر، ذلك أن هولاء كو على أثر سقوط بغداد في يده سار إلى ديار بكر ونزل على آمد يريد حلب ، ثم زحف على حران وأستولى عليها ، وأرسل ابنه سموط إلى الشام وعندما وصل إلى ظاهر حلب خرج إليه نائبها الملك المعظم تورانشاه بن السلطان صلاح الدين من قبل بن أخيه الملك الناصر ، فاقتتل الفريقان ودارت الدائرة على المسلمين ودخل التتار حلب^(٢) .

ولما بلغ الملك الناصر يوسف شروع التتار في الاستيلاء على حلب كتب إلى الملك المغيث صاحب الكرك والملك المظفر قطز صاحب مصر يطلب منهما نجدة ، وكان الأمراء متخوفين من غارات هولاء كو ، فأشار أحدهم وهو الأمير زين الدين الحافظي بمداراة والدخول في طاعته . وهنا نجد موقفا مشرفا لبيبرس

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٤١٧ - ٤١٨

(٢) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر، ج ٣ ص ١٩٩ - ٢٠٠

إذ أنه ما كاد يسمع حديث هذا الأمير حتى انقض عليه وضربه وقال "أتم سبب هلاك المسلمين" فشكاه الأمير إلى الملك الناصر . ولم يلبث المماليك بعد ذلك أن هجموا على الملك الناصر ففتر إلى قلعة دمشق ، ثم بادر إليه بعض الأمراء وأشاروا عليه بالخروج ؛ فوافقهم على ما أرادوا وخرج إلى المعسكر^(١) .

انتهاز بيبرس هذه الفرصة وسار إلى غزة ؛ وهناك راسل الملك المظفر قطز وأرسل إليه علاء الدين طيبرس الوزيرى يطلب منه الأمان ، فكتب إليه قطز بأن يفد إليه ووعده بالوعود الجميلة^(٢) .

وصل بيبرس مصر في ربيع الأول سنة ٦٥٨ هـ . فركب قطز للقائه وأنزله بدار الوزارة ، وأقطعته قلوب وأعمالها^(٣) وجعله قائد جيشه . وسرى ما فعله هذا القائد مع سيده الذى أعتقه من مخالب الموت وأغدق عليه نعمه .

في سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) أرسل هولاء كوا إلى مصر خطاب تهديد ووعيد إن هى امتنعت عن التسليم إليه والإذعان له . وقبل أن تتكلم عما فعله سلطان مصر إزاء رسل هولاء كوا نذ كر هنا خطاب هذا الطاغية لئرى منه كيف كان تجبر هؤلاء المغيرين واعتزازهم بقوتهم ووفرة عددهم وزهوهم بأنفسهم حتى أحترقوا من عداهم من الأمم وظنوا أنهم مانعتهم أسلحتهم وجيوشهم ولم يقدروا هزيمتهم فى أية معركة لهم وغاب عنهم أن الدهر قلب . واليك نص كتاب هولاء كوا كما ذكره كل من القلقشندى^(٤) والمقرزى^(٥) : " من ملك الملوك شرقا وغربا القائد الأعظم . باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء . يعلم الملك المظفر قطز الذى هو من جنس المماليك الذين

(١) المقرزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤١٩ - ٤٢٠

(٢) أبو الفدا : ج ٣ ص ٢٠٠ (٣) ابن راصل : ج ٢ ص ٣٩٤ ؛ أبو الفدا : ج ٣

ص ٢٠٠ ؛ المقرزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٢٦ (٤) صبح الأعشى ج ٨ ص ٦٣

(٥) السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٢٧ - ٤٢٨

هربوا من سيوفنا إلى هذا الاقليم ، يتنعمون بأنعامه ، ويقتلون من كان بساطنانه بعد ذلك . يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال ، أنا نحن جند الله في أرضه ، خلقنا من سخطه وسلطانا على من حل به غضبه . فلکم بجميع البلاد معتبر ، وعن عزمننا مزدرجر ، فاتعظوا بغيركم ، وأسأموا إلینا أمرکم قبل أن ینکشف الغطاء فتندموا ويعود علیکم الخطأ . فنحن مانرحم من بکی ولا نرق لمن شکى . وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد وطهرنا الأرض من الفساد وقتلنا معظم العباد فعلیکم بالهروب وعلینا الطلب . فأی أرض تؤویکم ، وأی طریق تنجیکم وأی بلاد تمجیکم ؟ فما لکم من سیوفنا خلاص ، ولا من مهابتنا مناص . فخیولنا سوابق وسهامنا خوارق وسیوفنا صواعق وقلوبنا كالجبال وصددنا كالرمال . فالحصون لدينا لاتمنع والعسا کرلقتالنا لاتنفع ودعاؤکم علینا لا یسمع ... إلى أن یقول ” أسرعوا برّد الجواب قبل أن تضرم الحرب نارها وترمی نحوکم شرارها ، فلا تجدون منا جاها ولا عزرا ، ولا کافیا ولا حرزا وتدهون منا بأعظم داهية ، وتصیح بلادکم منکم خالية . فقد أنصفناکم إذ راسلناکم ، وأیقظناکم إذ حذرناکم ، فما بقی لنا مقصد سواکم . والسلام علینا وعلیکم وعلى من أطاع الهدى وخشى عواقب الردى وأطاع الملك الأعلى “ .

لما وصل هذا الكتاب إلى قطز جمع أمراءه وشاورهم في الأمر — وقد أحذق بهم الخطر وتهددهم هؤلاء التتار؛ فتردد بعض الأمراء أول الأمر في الخروج لملاقاة هذا العدو العنيد ومنازلته وذلك خشية منه ؛ وقتر رأى قطز على قتل الرسل فقتلوا وعلقت رءوسهم على باب زويلة^(١) .

ولما كان يوم الاثنين ١٥ شعبان سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) نخرج قطز بعسكر مصر ومن انضم إليهم من عسكر الشام والعرب والترکان وغيرهم من قلعة الجبل

(١) المقریزی : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٤٢٩ ، Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, p. 262.

قاصدين الصالحية؛ ولما بلغوها طلب قطن الأمراء وأمرهم بالرحيل فامتنعوا . فقال لهم "يا أمراء المسلمين ! لكم زمان تأكلون أموال بيت المال وأتم للغزاة كارهون وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبنى ومن لم يختر ذلك يرجع الى بيته فإن الله مطلع عليه وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين^(١) ."

كان لهذا القول أثر في نفوس أمراء المماليك الذين أمتنعوا عن الرحيل من مصر لملاقاة التتار، فلم يكذ قطن ينتهى من حديثه حتى آتفقوا جميعا على مهاجمة هذا العدو وإيقافه عند حدّه .

لم يدخل قطن في مخبرات مع العدو بشأن إبرام الصلح خشية أن ينضم ضعاف القلوب من أمرائه إلى المغول، ولكنه أراد أن يقيم الدليل لهم بأنه يستطيع أن يقود جيشا قويا متحدا إلى الحدود . وقد تبذرت سحب الإشاعات وزادت الحماسة حينما هزم المماليك بقيادة بيبرس حامية المغول في غزة؛ ومن ثم واصل الجيش المصرى السير محاذيا الساحل نحو الشمال وضمن حياض الفرنجة في عكاء، ثم عيم السير لملاقاة المغول فقابلوهم قريبا من بيسان في المكان المعروف «بعين جالوت»^(٢) حيث مزق الجيش المغولى شمل قوى المصريين؛ على أن هرب المصريين قد أدى إلى انتصارهم بسبب تعقب المغول للقالاة منهم في شراذم متفرقة مما سهل على جيش المماليك القضاء عليهم . وقد وقع القائد المغولى «ككتبغا» صريعا في حومة القتال وارتد جيشه الذى انضمت اليه حامية دمشق التى ثار أهلها وذبحوا المسيحيين لتأمرهم على زوال الإسلام .

أعاد قطن الأمن الى نصابه فى جميع المدن المنخرية، كما أعاد أمراء الأيوبيين على ولاية حمص وحماه على أن يدفعوا له الجزية، واقامت الخطبة له فى البلاد التى بين

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٢٩

(٢) بلدية بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين . ياقوت : معجم البلدان

نحلب والفرات . وعند عودته من هذه المعركة التي نجحت مصر وأعادت بلاد الشام وقع فريسة لذلك الحسد الذي طالما تعرض له قواد الجيش المنتصرون . وكان بيبرس أقدر هؤلاء القواد وقد حال قطز دون تحقيق رغبته في ولاية حلب^(١) — وكان قد وعده بها — إلا أنه لم يف له بوعده وأعطاهما لعلاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ^(٢) فكان ذلك الخلف مثيرا لمكان الضغينة والحقد اللذين كونا في نفوس بيبرس وإخوانه على قطز منذ قتل الفارس أقطاي^(٣) ؛ فأضرموا السوء له وحدث بيبرس جماعة من الأمراء في قتل السلطان^(٤) .

على أن قطز قد أخطأ حين رفض أن يمنح بيبرس ولاية حلب ؛ فإنه لو كان قد منحه إياها لتمكن من إبعاد أكبر منافس له في سلطنة مصر . لكنه لم يترث في هذا الأمر فأخلف وعده واعتقد أنه بعمله هذا يضعف من شأن بيبرس . غير أنه نسي أن المركز الذي كان يتمتع به بيبرس في ذلك الوقت وخاصة بعد انتصاره على المغول وإخراجهم من دمشق وحلب وانتزاعه أكبر إمارات الشام من أيدي بني أيوب لا يقلل من شأنه جرمانه من إحدى الولايات وخاصة إذا علمنا أنه كان على رأس فريق من المماليك لعب دورا خطيرا على مسرح السياسة المصرية . وكان قطز نفسه يخشى بأسهم وقد اضطر أخيرا إلى مصافاتهم والاعتماد عليهم في صد ذلك العدو الخطير الذي اجتاح البلاد الإسلامية وقضى على الخلافة العباسية . فهذه السياسة التي اتبعها هذا السلطان إزاء قائد جيشه أودت به في هوة سحيقة ؛ وكان الأجدر به أن يقرب إليه المماليك البحرية ويقطعهم الاقطاعات كما أقطع الأمراء المعزية وبذلك يتقى شرهم ويأمن جانبهم .

(١) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, p.262.

(٢) أبو الفدا : ج ٣ ص ٢٠٧

(٣) ابن خلدون : ج ٥ ص ٣٨٠

(٤) المقرئ : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٤٣٥

ولا ضير إذا قلنا إن هؤلاء المماليك البحريةية — وعلى رأسهم بيبرس — نسوا ما قابلهم به قطز من الحفاوة والاكرام وإنزاله لهم منزلة رفيعة أيام كانوا ثائرين بعد فرارهم الى الشام . نعم ! لقد نسوا هذا ولم يذكروا أن قطز هو الذى وهبهم الحياة بعد أن كانوا قاب قوسين أو أدنى من السيف، وأجمعوا أمرهم على اغتياله .

تمت المؤامرة بين المماليك البحريةية وعلى رأسهم بيبرس على أن يستريحوا من قطز وترقبوه وهو فى طريقه الى مصر حتى إذا ما قارب الصالحية انشغل بالصيد ؛ فلما فرغ من ذلك طلب منه بيبرس بعض أسرى المغول فأنعم عليه قطز بامرأة من سبي التتار؛ فما كان من بيبرس إلا أن تظاهر برغبته فى تقييل يد السلطان وانقض عليه بالسيف وتبعه الآخرون بسيوفهم فأجهزوا عليه ؛ وكان ذلك فى شهر ذى القعدة سنة ٦٥٨ هـ .^(١)

وهكذا انتهت حياة ذلك الرجل العظيم ونار أعدائه لأنفسهم وبعد أن قتلوه تركوه ملقى على الأرض وعادوا شاهرين سيوفهم الى أن وصلوا الى عرش الملك بغاس عليه بيبرس وأخذ المملكة بالقوة على ما سياتى .^(٢)

(١) أبو الفدا : ج ٣ ص ٢٠٧

(٢) ابن إياس : ج ١ ص ٩٧

الباب الثالث

سلطنة الظاهر بيبرس

١ - اعتلاء بيبرس سلطنة مصر وتوطيد سلطته بها :

(أ) القضاء على الفتن والثورات .

(ب) إحياء الخلافة العباسية .

٢ - سياسة بيبرس الخارجية :

(أ) موقف بيبرس إزاء الصليبيين .

(ب) غزو جزيرة قبرس .

(ج) قضاء بيبرس على نفوذ الطائفة الاسماعيلية ببلاد الشام .

(د) علاقة بيبرس بالمغول .

(هـ) علاقة بيبرس بأرمينية .

(و) سياسة بيبرس إزاء ملوك أوروبا .

(ز) اتساع نفوذ بيبرس في بلاد النوبة .

(ح) ازدياد سلطة بيبرس في الأماكن المقدسة بالحجاز .

(ط) تبادل المراسلات بين نجاشي الحبشة وبيبرس .

الباب الثالث

سلطنة الظاهر بيبرس

١ - اعتلاء بيبرس سلطنة مصر وتوطيد سلطته بها

وقع اختيار الأمراء بعد قتل الملك المظفر قطز على الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى ، وتقدم إليه فارس الدين أقطاي المستعرب وبايعه وحلف له ثم تبعه الأمراء ؛ وذلك قرب الصالحية قبل وصولهم الى القاهرة . فلما تمت البيعة قال له أقطاي : لا تتم لك السلطنة إلا بعد دخولك القاهرة وطلوعك الى قلعة الجبل . فركب ومعه الأمير قلاوون وبلبان الرشيدى وجماعة آخرون فلقبهم في طريقهم الأمير عز الدين أيذر الحلبي نائب السلطنة - وكان خارجا لمقابلة قطز - فأخبره هؤلاء بما حدث ؛ فبايع بيبرس وقدم له فروض الطاعة ثم تقدمهم الى القلعة ووقفوا على بابها حتى وصلوا ليلا . وكانت القاهرة قد زينت لقدم قطز فرحا به وسرورا لما فعله بالتنازل واستبشارا بقدومه اليها ، واستمرت تلك الزينة حتى قدم بيبرس رغم ما لحق الناس حين أشيع خبر تملكه وقتل قطز من هم ووجل خوفا من ظلم المهالك البحرية ومعاودتهم ما كانوا عليه من الجور والفساد .

لما تولى بيبرس عرش مصر تلقب بالملك القاهر ركن الدين بيبرس الصالحى فأشار عليه وزيره زين الدين بن الزبير بتغيير هذا اللقب وقال له ما تلقب به أحد فأفصح ، فاستمع بيبرس لمشورته وتلقب بالملك الظاهر .

(١) ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ ج ٢٠ ورقة ١٨٦ (٢) مفصل بن أبي الفضائل : النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد ص ٦٥ - ٦٧ ؛ انقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٣٦ - ٤٣٧ (٣) أبو القدا : المختصر فى أخبار البشر ج ٣ ص ٢٠٨ ؛ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ القسم الثانى ص ١٨٦ .

أخذ بيبرس بعساك تربيته على دست الملك يطمح الى بلوغ ما بلغه صلاح الدين من توسيع نطاق الامبراطورية المصرية ، والى اعلان الحرب على الصليبيين الذين كانوا لا يزالون يغيرون على سواحل البحر الأبيض المتوسط . وسنرى أنه بذل جهده في استئصال شأفتهم من هذه البلاد وان كانت لم تتحقق كل أغراضه ، اذ لم يمهله الزمان حتى يرى المدن الساحلية خالية من النواقيس والصلبان .

وكان همه موجها بنوع خاص الى رد غارات المغول الذين كانوا قد ثبتوا قدمهم في فارس وأسبوا لهم أسرة ملكية تسمى أسرة «الايلاخانات» أو الأسرة الهولاكية ، وكذلك محاربة الصليبيين الذين انفقوا مع التتار ضد الولايات الباقية في أيدي الخلافة العباسية^(١) . ولذا نراه بعد أن دخل القلعة واجتمع حوله الأمراء وكبار رجال الدولة يأخذ في منحهم الألقاب وتوليتهم المناصب العالية وإغداق نعمه عليهم بالاقطاعات الواسعة ليشتد بهم أزره ويقوى بهم ساعده . ولم يكتف بولاء الأمراء له بل أراد أن يكسب عطف الرعية ومحبة الشعب ويميل النفوس النافرة اليه فأخذ في ترتيب شئون دولته وتنصيب الأمراء عليها ، فعين فارس الدين أقطاي المستعرب أتابكا للعسكر واستناب عنه في السلطنة الأمير بدر الدين الخازندار وفوض إليه جميع أمور الدولة وصار صاحب الحل والعقد بها وولى تاج الدين بن بنت الأعز قضاء مصر وعزل الصحاح زين الدين بن الزبير من الوزارة وولى مكانه الصحاح بهاء الدين بن حنا^(٢) .

أراد بيبرس أن يستجلب رضى الرعية عنه ويثبت في نفوسهم عوامل المحبة له والميل إليه وتناسى ما قدمت يدها من السيئات ؛ فأبطل كل ما أحدثه قطز من المكوس

(١) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, p. 264.

(٢) المقرئى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٣٨ ؛ ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ج ١ ص ٩٨ - ٩٩

(١) والضرائب . فاطمأت إليه النفوس وحمد له الناس هذا الصنيع وأشربوا محبته في قلوبهم ؛ ثم جد في إحضار الممالك البحرية الذين كانوا متفرقين في البلاد منذ أن قتل الفارس أقطاي . وبذلك تلافى بطشهم بالأهالي فجمعهم حوله وأفاض عليهم من النعم الشيء الكثير .

كذلك أرسل بيبرس الى سائر النواب والأمراء في مصر والشام يعلمهم باعتلائه عرش البلاد المصرية ؛ فأجابوه بالطاعة والاذعان في سائر النواحي سوى بعض الأمراء في بعض الجهات الشامية فانه عظم عليهم تولية الظاهر وامتنعوا عن الاعتراف به سلطانا واستقلوا ببلادهم مما حدا بالظاهر إلى محاربتهم حتى ينضووا تحت لوائه قبل أن يتفرغ لشئون بلاده الخارجية .

(١) الثورات الداخلية :

لم يصف الجوّ تماما لبيبرس على أثر اعتلائه عرش مصر ؛ إذ خرج بعض الأمراء عن طاعته وطالبوا بالملك لأنفسهم . ومن هؤلاء الثائرين علم الدين سنجر الحلبي الذي استنابه الملك المظفر قطز بدمشق . فقد نادى بنفسه سلطانا عليها في ذي الحجة سنة ٦٥٨ هـ ، وتلقب بالملك المجاهد وخطب له على منابرها وضربت السكة باسمه . ولم يكتف بذلك بل راسل الملك المنصور صاحب حماه والأشرف ابن شيركوه صاحب حمص ليدخلا في طاعته ، فامتنعا عن إجابة طلبه .

ولما علم بيبرس بخروج سنجر عليه ، جهز جيشا مع علاء الدين أيديكين البندقدارى لمحاربتة ؛ فوصل هذا الجيش إلى دمشق في صفر سنة ٦٥٩ هـ ، والتقى

(١) كان قطز قد أنقل كاهل أهالي مصر بالضرائب فصار يأخذ منهم ثلث الزكاة وثلث الترك ، كما فرض دينارا على كل فرد ؛ فبلغ مقدار ذلك نحو ٦٠٠٠٠٠ دينار في السنة . مفضل بن أبي الفضائل :

النهج السديد ص ٦٧ — ٦٨ ؛ ابن شاذان الكنتي : عيون التواريخ ج ٢٠ ورقة ١٨٦

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٤٣٨ ؛ Sir William Muir, The

Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 14.

(٣) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ص ٢٠٨

ي جيش الحلبي بظاھرھا فتغلب عليه وفر الحلبي وأتباعه هاربين إلى قلعة دمشق، حتى إذا ما جنّ الليل خرج لا يلوي على شيء قاصداً بعلبك فتبعه العسكر وقبضوا عليه وحملوه إلى الديار المصرية فاعتقل بها^(١)، وولى الظاهر مولاه علاء الدين على دمشق وعاد صاحباً حماء وحصص إلى بلديهما. ومن هذا الوقت اعتبرت هذه البلاد داخلة في حوزة الملك الظاهر تقام له الخطبة فيها ويدعى له على منابر^(٢).

أما عن ولاية حلب فإن قطز كان قد ولى عليها عند عودته إلى مصر من غزو التتار السعيد علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، غير أن السعيد سار في حلب سيرة معوجة، كان من جرائها أن بغضه العسكر وكره الناس ولايته عليهم وعند ما بلغه مسير التتار إلى البيرة^(٣) في أواخر سنة ٦٥٨ هـ جرد إليهم جماعة قليلة من الجند، ولم يقبل نصيحة أحد في منع هذه الشرذمة القليلة من ملاقات التتار أو العمل على زيادة عددهم لتقوى على مصادمة العدو وأصر على مسير تلك الفئة، وسرعان ما أبادها التتار بالقرب من البيرة، فازداد غيظ الأمراء لذلك وقبضوا على السعيد واستولوا على كل ماله الذي ابتزه من الأهالي ظلماً، ويقدره المؤرخون بنخمسين ألفاً من الدنانير.

ولى الأمراء مكانه حسام الدين لاجين العزيزى وأعلموا الملك الظاهر بذلك فوافقهم واستقرت حسام الدين بها. غير أن التتار ساروا إليها وملكوها وفر حسام الدين ومن معه إلى حماء، وهناك حذروا الملك المنصور صاحبها من التتار فظنّ في أوّل الأمر أن ذلك حيلة منهم للغدر به، غير أنه لما تحقق من صدق قولهم خرج إليهم ولحق بهم وسار معهم إلى حمص — وكان التتار في هذه الأثناء قد انقضوا على حماء — فاتفقت هذه الجموع المحتشدة بحمص في المحرم سنة ٦٥٩ هـ على محاربة التتار، فالتقوا

(١) المقرئى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٤٤ و ٤٤٥ و ٤٥١

(٢) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر، ج ٣ ص ٢١٠ (٣) البيرة : بلاد قرب سمساط بين حلب والنعمور الرومية . ياقوت : معجم البلدان . (٤) أبو الفدا : المختصر

فى أخبار البشر، ج ٣ ص ٢٠٨ - ٢٠٩ ؛ المفضل بن أبى الفضائل : النهج السديد ص ٧٠

(١)
بهم بظاهر حمص وقتلواهم وتمت النصر للساميين وهزم التتار مع كثرة عددهم وتبعهم
المسامون يقتلون ويأسرون ؛ ورجع الملك المنصور إلى حماه ومعه أخوه الأفضل
ثم سارا إلى دمشق واجتمعا هناك بالأشرف صاحب حمص وظل الجميع بدمشق
حتى انتهت ثورة سنجر . أما حسام الدين لاجين فإنه ذهب إلى مصر وأقام بها
واستقر مكانه نحر الدين الحمصي نائبا من قبل الملك الظاهر .

بعد أن استقر علاء الدين البندقدارى بدمشق كلفه الظاهر بالقبض على جماعة
من المماليك الذين كان يتوهم منافستهم له في الملك أمثال بهاء الدين بغدى الأشرقى
وشمس الدين أقوش البرلى وغيرهما . وكان الأخير واليا على نابلس وغزة وبلاد
الساحل من قبل المظفر قطز وقد انضم إلى علاء الدين لمحاربة سنجر بدمشق . ولما
قبض علاء الدين على بغدى اجتمع المماليك العزيزية والناصرية حول شمس الدين
وفتروا إلى دمشق ليلا، ثم سار بهم إلى حمص وأراد حمل صاحبها على الانضمام إليه
ضد بيبرس فلم يجبه إلى ذلك، فتركه وتوجه إلى حماه وراسل المنصور في ذلك فأغلظ
له في الرد؛ فغضب نحو حلب وبها نحر الدين الحمصي الذي أرسله علاء الدين
لاستطلاع أخبار التتار بالبيرة واحتال عليه في المسير إلى الملك الظاهر لتأمينه وتركه
بهذه الأطراف تحت طاعته؛ فاعتز نحر الدين بقوله وسار نحو الظاهر، ولم تمض
مدة قليلة حتى انقض البرلى على حلب واستولى على ما بها من الأموال وجمع حوله
العرب والتركان واستعد للقتال . وسار جيش مصر قاصدا الشام لمحاربتة بقيادة
جمال الدين محمودى وعلم الظاهر بمسير نحر الدين إليه فوجه على تركه حلب وردّه
مع الجيش وعفا عن سنجر الحلبي وسيره هو أيضا لمحاربة البرلى؛ فسار الجميع إلى
حلب واستولوا عليها فهرب البرلى إلى البيرة ولما لم يجد بيسته غيرها أعلن ولاءه

(١) ذكر مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد ص ٧٥ ؛ أن هذه الموقعة كانت أعظم من موقعة
عين جالوت لكثرة ما أصاب التتار من الخسائر فيها .

(٢) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ص ٢٠٩ — ٢١٠

للملك الظاهر واستأذنه في القدوم إلى مصر . ولما قدم إليه أكرم بيبرس وفادته ، ثم غادرها ثانياً إلى البيرة ، ولم يلبث أن تغير عليه الملك الظاهر فقبض عليه سنة ٦٦١ هـ .^(١)

وفي هذه الأثناء كان على مدينة الكرك الملك المغيث أحد أمراء الأيوبيين . وقد وصل إليه على أثر اكتساح التتار للبلاد الشرقية جماعة من شهرزور فاتخذهم جنداً له ووجههم للاغارة على الشوبك ومما يليها من الولايات التي دخلت في حوزة الظاهر بيبرس .

جاءت الأخبار إلى مصر بما فعله هؤلاء الأكراد ، فهم الظاهر بالذهاب إلى الكرك وعلم المغيث بذلك فأرسل إليه بطاعته وطلب الأمان للأكراد ، فأمهم واستدعاهم إلى مصر فوافوها وقبلهم الظاهر وعفا عنهم .^(٢) غير أن بيبرس لم يأمن بعد ذلك جانب المغيث — وكان على تخوف دائم من ثورته — فغادر مصر في ربيع الآخر سنة ٦٦١ هـ . ولما وصل إلى غزة وفدت عليه أم الملك المغيث شافعة في ولدها وأخذ أمان السلطان له فأجاب طلبها الملك الظاهر وأذن لها في العودة ثم استدعى المغيث فقدم إليه بعد تردد وتقابلا في بيسان . غير أن الظاهر لم يرع للمغيث عهده له وتأمينه كما أنه تناسى استعظافه والعفو عنه فقبض عليه وبعثه إلى القاهرة مقيداً ، فظل معتقلاً بقلعة الجبل حتى قتل .^(٣)

وقد يكون للظاهر في قتله بعض العذر إن صح ما يرويه المؤرخون عن هذه الحادثة ، فقد ذكر أبو الفدا^(٤) أن المغيث كان قد راود امرأة الظاهر عن نفسها حين فز بيبرس منه إلى غزة وقدم إلى مصر وترك زوجته بالكرك في عهد سلطنة قطز كما تقدم . وهذه الحادثة إن صحت تُحفظ القلوب وتُنسى معها العهود والمواثيق .

(١) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ص ٢١٠ و ٢١١ و ٢١٤ (٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج ٥ ص ٣٨٤ (٣) المفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد ص ١٠٧ — ١٠٨ ؛ ابن شاكر الكنتي : عيون النوارنج ج ٢٠ ورقة ٢٣٠ و ٢٣١ (٤) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ٣ ص ٢١٦

لذا نرى الظاهر يضمم السوء للمغيث ويتظاهر له بلين القول وزخرف الحديث حتى تمكن منه . وهناك أمر آخر يميز للظاهر فعله مع المغيث . فقد زوى كل من أبي الفدا والمفضل والمقرزي أن الظاهر بعد أن قبض على المغيث أحضر الملوك والأمراء وقاضي القضاة شمس الدين بن خلكان والشهود ورسل الفرنجة وأظهر لهم فتاوى الفقهاء بقتله وأحضر السفراء الذين كانوا بينه وبين هولاء كو وقرت الكتب المذكورة عليهم^(١) ، وانفض الجمع وكتب السلطان إلى من بالكرك يحذرهم ويتوعدهم وسير إليهم بدر الدين بيسرى وعز الدين الاستادار بالكتب والخلع والأموال . وهذه الرواية تفيد أن المغيث كان متواطئا مع التتار متصلا بهم اتصالا سريا بالمكاتب والرسل مما قوى الشبهة في اتهامه لدى الظاهر ، كما أن هناك سببا آخر دعا بيبرس إلى الغدر به وهو أن أحد رسل التتار كان قد قدم إلى المغيث ليوقف على أخبار الملك الظاهر ، فلما علم بذلك بيبرس بعث بمن يحضره إليه فأنكره المغيث أولا ثم اضطر إلى إرساله^(٢) . ومن هذا نفهم أيضا أن استعطاف المغيث للظاهر وطلبه الأمان ما كان إلا خوفا من قوته وسطوته بينما هو يدبر المنكايد له بمناصرة أعدائه والانضمام إليهم ولو من طرف خفي .

وبعد أن اعتقل المغيث أرسل الملك الظاهر واليا على الكرك وأمن أهلها ورتب أمورها وأصبحت منذ ذلك الوقت تحت سلطانه وانتهى عهد الأيوبيين بها ، ثم عاد بيبرس إلى مصر وبلغه عند عودته وفاة الأشرف بن شيركوه صاحب حمص - وكان

(١) المختصر في أخبار البشر، ج ٣ ص ٢١٧ ؛ النهج السديد ص ١٠٩ ؛ السلوك لمعرفة دول الملوك

ج ١ القسم الثاني ص ٤٨٢

(٢) ذكر ابن واصل : مفرج الكرب في أخبار بني أيوب ص ٤١٣ ؛ ابن شاكر الكتبي : عيون

التواريخ ج ٢٠ ورقة ٢٣١ ، أن هذه الكتب تتضمن شكر هولاء كرك للمغيث ووعده إياه باقطاعه البلاد من بصرى إلى غزة ، وبارسال عشرين ألف فارس لفتح مصر .

(٣) ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ ج ٢٠ ورقة ٢٣١

ملكها وراثيا لآبائه من أيام الملك العادل نور الدين ، ولم تزل متوارثة فيهم إلى أن مات الأشرف سنة ٦٦١ هـ — وبموته آلت إلى سلطان مصر وانقرض منها ملك بني أيوب .^(١)

(ب) إحياء الخلافة العباسية :

تولى الظاهر عرش مصر في وقت كانت البلاد فيه مفككة العرى منصوصة الوحدة والاضطرابات شاملة كل ناحية من النواحي . فمصر تنازعها عدة عوامل من مناوشات الصليبيين لها واستبداد الأمراء من المالِك بالأمر فيها وتطلع الأيوبيين بالشام إليها وتهديد التتار لها ، والبلاد الشامية كأنها ممالك متعددة فبعضها في أيدي الأيوبيين ، والصليبيون يحتلون سواحلها ، والتتار قد أغاروا عليها واحتلوا جزءا عظيما منها بعد أن تم لهم الاستيلاء على جزء كبير من البلاد الشرقية من أقاصى بلاد ما وراء النهر إلى حوض دجلة والفرات .

ولما أمر هولاكو بالهجوم العام على بغداد في ٣ يناير سنة ١٢٥٨ م ، ودحر جيوش الخليفة ولم يبق في طريقه إلى أبواب بغداد مقاومة سلم الخليفة نفسه بعد أن وعده هولاكو بالأمان ، ثم لم يلبث أن قتل بعد أيام قلائل هو وولده أبو العباس أحمد وأبو الفضائل عبد الرحمن . وبقتل هذا الخليفة خلت البلاد الإسلامية من الخلافة وليس من أمراء المسلمين من يجرؤ على إعادة الخلافة إلى سابق عهدها .

حقا لقد شغل كل أمير إسلامي بالعمل على بقاء سلطته في دولته التي أمر عليها أو مقاطعته التي ملكها وليس له وراء ذلك غاية أو مآرب إلا أن يكون رغبته

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج ٥ ص ٣٨٥

(٢) تختلف الروايات في كيفية قتل الخليفة المستعصم وفي هذا يقول ابن واصل ص ٣٨٥ ب : وأما الخليفة رحمه الله فأنهم قتلوه لكن لم يطلع أحد على قتله كيف كان . فقيل إنه خنق وقيل وضع في عدل ورفس حتى مات وقيل غرق في الدجلة والله أعلم بحقيقة ذلك .

(٣) Bröwne, A Literary History of Persia II. pp. 462-463.

في اتساع منطقتة أو ازدياد نفوذه في بعض النواحي الأخرى . ولم يفكر أحد في إعادة الخلافة سيرتها الأولى ؛ فظل منصبها شاغرا حتى اعتلى عرش مصر الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م) .

أخذ بيبرس في السنة التالية من توليته عرش مصر يعمل على إعادة الخلافة العباسية الى مكانها بعد أن قضى عليها هولاء في بغداد . وكان بيبرس يرى من وراء ذلك الى أن يقوى عرشه في مصر ضد أحقاد نظرائه من المماليك ويجعل حكمه شرعيا في البلاد . ويعزو السيروليم ميور سعى بيبرس لإحياء الخلافة العباسية ^(١) بمصر الى خوفه من قيام الشيعة لإرجاع الدولة الفاطمية . وهذا الرأي بعيد عن الصواب إذ أننا لا نجد ما يؤيده في المصادر العربية والافرنجية ؛ فإنه على أثر المؤامرات التي دبرت سنة ١١٩٤م لإرجاع الخلافة الفاطمية بمصر لم نسمع عن أى محاولة أخرى لإعادة الفاطميين الى حكم مصر . ولعل السيروليم ميور اعتمد أن طائفة الإسماعيلية التي كانت تقطن سورية في ذلك الوقت والتي كانت على عدا مع بيبرس ربما تفكر في إرجاع الخلافة الفاطمية ؛ ولكن هذه الطائفة لم يكن لديها من القوة ما يجعلها تعمل على تقويض سلطة الملك الظاهر بمصر ، كما أنه ليس لدينا من النصوص ما يجعلنا نعتقد أنهم فكروا في إرجاع الخلافة للفاطميين ، ولم نسمع أنهم اشتركوا في المؤامرات التي دبرها شيعة مصر لإعادة الخلافة الفاطمية .

على أن الملك الظاهر لم يكن أول من فكر في إحياء الخلافة العباسية بل سبقه الى التفكير في ذلك الملك الناصر يوسف صاحب دمشق الذي ما كاد يعلم من

(١) The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt pp. 14-15.

(٢) اشترك في هذه المؤامرة مع بقايا الفاطميين شيخ الإسماعيلية وملك صقلية وعموري ملك بيت

القدس وتمكن صلاح الدين من القضاء عليها .

Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages pp. 197-198.

(١١)
الأمير عيسى بن مهنا أن أميراً عباسياً قدم إلى دمشق حتى أرسل يستدعيه إليه؛ غير أنه فوجئ بقدوم التتار فعاد الأمير ثانية إلى عيسى بن مهنا . وعند ما قدم الملك المظفر قطز إلى دمشق على أثر انتصاره على التتار في موقعة عين جالوت أخبره الأمير عيسى بن مهنا بقدوم ذلك الأمير العباسي . فقال له "إذا رجعنا إلى مصر أنفذه علينا لنعيده إن شاء الله" (١٢) . ونستفيد من ذلك أن قطز كان يرمى إلى تولية هذا الأمير خليفة للمسلمين؛ غير أنه لم يعمر طويلاً حتى ينفذ هذه الفكرة .

مما تقدم يتضح لنا كيف أن الأمراء المسلمين في ذلك الوقت كانوا يميلون إلى إحياء الخلافة العباسية؛ وظلت هذه الرغبة ملحوظة حتى تولى بيبرس سلطنة مصر فشرع في تنفيذ ما فكر فيه هؤلاء الأمراء المسلمون لكي يعزز زعامته للإسلام . وقد تحققت آماله في إحياء الخلافة عندما ورد إليه كتاب من الأمير علاء الدين طبرس والأمير علاء الدين البندقداري يتضمن أن رجلاً وصل إلى دمشق يدعى أنه أحمد بن الإمام الظاهر ابن الإمام الناصر العباسي ومعه جماعة من عرب خفاجة؛ فكتب إليهما السلطان يوصيهما به خيراً ويكلفهما بأن يعينا من يقوم في خدمته ويرسلا معه حجاً إلى مصر وأعد العدة لاستقباله . وعند ما علم بجيئته طار إلى لقائه وخرج معه الوزير بهاء الدين ابن حنا وقاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز والأمراء والعساكر؛ واليهود يحملون

- (١) هذا الأمير هو أبو العباس أحمد بن أبي علي الحسن القبي بن علي بن أبي بكر بن الخليفة المسترشد ابن المستظهر بالله . وكان قد اختفى أثناء هجوم التتار على بغداد ثم تمكن من الفرار وأقام عند حسين بن فلاح أمير بني خفاجة ثم ذهب إلى دمشق وأقام عند الأمير عيسى بن مهنا . السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٣١٧ - ٣١٨ (٢) مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد ص ٩٣ (٣) ذكر السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٣١٨ ؛ أن الملك المظفر قطز بايع الأمير أبا العباس أحمد بدمشق وزاد على ذلك فقال إن هذا الأمير سار في جماعة من أمراء العرب ففتح عانة والحديشة وهيت والأنبار وانصر على التتار ثم كاتبه علاء الدين طبرس نائب دمشق ليذهب إلى الملك الظاهر غير أنه امتنع عن الذهاب إلى مصر لما علم أن أميراً عباسياً آخر قدم إليها ورجع إلى حلب فبايعه صاحبها شمس الدين البرلي . وسرى فيما بعد أن هذا الأمير هو الذي استدعاه بيبرس على أثر مقتل الخليفة المستنصر بالله .
- (٤) النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ج ٢٨ القسم الأول ص ١٨

التوراة والنصارى يحملون الإيجيل وساروا جميعا الى المطرية لمقابلته . وحين وقع نظر الملك الظاهر عليه ترجل وعانقه وركب الخليفة وهو لابس شعار بنى العباس ومعه السلطان يتبعهما الجيش حتى وصلا الى قلعة الجبل ^(١) . وهنا نرى من بيبرس ظاهرة تدل على مبلغ احترامه للخليفة وتقديسه لمن يهيا لهذا المركز ؛ إذ أبى حين وصوله الى القلعة أن يتقدم الإمام أحمد في الدخول ، ولم يشأ بعد أن استقرا في مكانهما أن يجلس على مرتبة أو كرسي معه .

لم يقتصر الظاهر على هذا بل عقد مجلسا في قاعة الأعمدة دعا اليه القضاة والعلماء والأمرء وسائر أرباب الدولة ليشهدوا بإثبات نسب هذا الإمام ^(٢) ، وحضر هذا الاجتماع شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام ، كما شهدوه العربان الذين قدموا الى مصر مع الإمام أحمد . ولما انتظم عقد المجلس جلس الملك الظاهر بين يدي هذا الإمام العباسي واستدعى العربان الذين قدموا معه من بغداد ؛ فأقرؤا جميعا بين يدي قاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز بأن الإمام أحمد بن الخليفة الظاهر بأمر الله بن الخليفة الناصر لدين الله المتصل بالنسب بالعباس بن عبد المطلب ، وأقر ذلك أيضا بعض القضاة والفقهاء ، فقبل قاضي القضاة شهاداتهم وحكم بصحة نسبه وبايعه بالخلافة ثم قام بعد ذلك الملك الظاهر وبايعه ^(٣) "على كتاب الله وسنة رسوله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله وأخذ أموال الله بحقها وصرفها في مستحقها" ، وكذا بايعه القضاة ولقبوه بالمستنصر بالله ، ثم أرسل الملك الظاهر لأخذ البيعة له من الناس على اختلاف طبقاتهم وتم ذلك ونقشت السكة في مصر باسميهما ، وكذا أمر

(١) المقرئى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٤٧ ؛ أبوالمحسن : النجوم الزاهرة ج ٣ القسم الثانى ص ١٨٧ ب ؛ Sir William Muir, The Caliphate p. 593.

(٢) كان لفظ الإمام من ألقاب الخلفاء أنفسهم وقد يطلق أحيانا على كبار العلماء . القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء ج ٦ ص ٩

(٣) النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ج ٢٨ القسم الأول ص ١٨ - ١٩ ؛ المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٤٩ - ٤٥٠

بالدعاء للخليفة قبل الدعاء له في خطبة الجمعة . ولم يكتف بذلك بل دعاه ليخطب
ويصلي بالناس صلاة الجمعة بجامع القلعة ، فاجتمع القضاة والعلماء وسائر الأمراء
بالجامع وخطب الإمام أحمد خطبة بليغة أثنى فيها على فضل الملك الظاهر الذي رذ
الخلافة لبي العباس^(١) .

رأينا كيف أن الملك الظاهر كان حريصا عند شروعه في مبايعة الأمير العباسي
الذي قدم إليه ، فلم يبايعه بالخلافة إلا بعد أن تأكد من صحة نسبه إلى بني العباس
بخلاف الملك المظفر قطز الذي ما كاد يعلم أن أميرا عباسيا وصل إلى دمشق حتى
سارع إليه وبايعه بالخلافة .

وعلى الرغم من ذلك فإنه يفهم من كلام بعض المؤرخين أنهم يشكون في نسبة
هذا الخليفة إلى العباسيين . ويتضح لنا ذلك من عبارة أبي الفدا^(٢) في هذا الصدد
ونصها : "وفي هذه السنة (٦٥٩ هـ) قدم إلى مصر جماعة من العرب ومعهم شخص
أسود اللون اسمه أحمد زعموا أنه بن الإمام الظاهر بالله بن الإمام الناصر" ثم يقول
في موضع آخر عند كلامه على سفر الخليفة إلى بلاد الشام لمحاربة التتار "وبرز الملك
الظاهر والخليفة الأسود وتوجها إلى دمشق" . كذلك نجد مفضل بن
أبي الفضا^(٣) يسمي هذا الخليفة باسم المستنصر بالله الأسود .

ولعل الشك الذي يبدو في عبارة هذين المؤرخين من حيث صحة نسب هذا
الإمام إلى العباسيين إنما تطرق إليهما من سواد لونه ، ولكن سواد اللون لا يمنع صحة
النسب ، فقد كان بعض الخلفاء العباسيين كالمأمون مثلا أسمر اللون . ويستدل على
ذلك بما رواه لنا بن إياس^(٤) حيث قال إن أم الخليفة المستنصر كانت أم ولد حبشية .

(١) ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج ١ ص ١٠١

(٢) المختصر في أخبار البشر، ج ٣ ص ٢١٣

(٣) النهج السديد فيما بعد تاريخ ابن العميد ص ١٠٥

(٤) بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج ١ ص ١٠٠

أما النويري^(١)، والمقرزي^(٢)، وأبو المحاسن فلم يظهر لنا من كلامهم عن هذا الخليفة ما يشعرنا بأنهم كانوا يشكون في صحة نسبه، بل يثبت لنا الأخير أن هذا الخليفة ينتمي حقيقة إلى بني العباس ويذكر سلسلة نسبه إلى عبد الله بن العباس الهاشمي .

وتنفيذا لرغبة الملك الظاهر في تقوية عرشه ضد مناوئيه من أمراء المالكي وإحاطة مملكته بسياج من الهيبة والاحترام رأى أن يعقد اجتماعا يتلى فيه تفويض الخليفة العباسي له بالسلطة . فخرج في ٤ شعبان سنة ٦٥٩ هـ إلى المطرية وضرب هناك خيمة كبيرة وجلس على كرسي والأمراء بين يديه . ولما اكتمل عقد الاجتماع صعد القاضي نحر الدين بن لقمان — صاحب ديوان الإنشاء — المنبر وقرأ على الأمراء تقليد الخليفة المستنصر بالله للملك الظاهر .

وقد أورد لنا النويري^(٤)، والمقرزي^(٥)، وأبو المحاسن^(٦) صورة هذا التفويض تقتطف منه ما يلي :

” بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله الذي اصطفى الإسلام بملابس الشرف وأظهر بهجة درره وكانت خافية بما استحکم عليها من الصدف ، وشيد ما وهى من علاقته حتى أنسى ذكر ما سلف وقبض لنصره ملوكا اتفق على طاعتهم من اختلاف... وبعد ، فإن أولى الأولياء بتقديم ذكره وأحقهم أن يصبح القلم راكعا وساجدا في تسطير مناقبه وبره من سعى فأضحى بسعيه الحميد متقدما ... وما بدت يد من المكرمات إلا كان لها زندا ومعصا ولا استباح بسيفه حمى وغى إلا أضرمه نارا وأجراه دما . ولما كانت هذه المناقب الشريفة مختصة بالمقام العالى المولوى السلطاني

- (١) نهاية الأرب في فنون الأدب ج ٢٨ القسم الأول ص ١٨ - ٢٠
- (٢) السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثاني ص ٤٥١
- (٣) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ٣ ص ١٨٨ أ
- (٤) نهاية الأرب في فنون الأدب ج ٢٨ القسم الأول ص ٢١ - ٢٨
- (٥) السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثاني ص ٤٥٣ - ٤٥٧
- (٦) النجوم الزاهرة ج ٣ القسم الثاني ص ١٨٨ أ - ١٨٨ ب .

الملك الظاهري الركني شرفه الله وأعلاه ، ذكره الديوان العزيز النبوي الإمامي المستنصري أعز الله سلطانه تنويها بشريف قدره واعترافا بصنعه الذي تنفذ العبارة المسهبة ولا تقوم بشكره . وكيف لا وقد أقام الدولة العباسية بعد أن أقعدتها زمانة الزمان ومنح أمير المؤمنين عند القدوم عليه حنوا وعطفا ... وأبدى من الاهتمام بأمر الشريعة والبيعة أمرا لورامه غيره لا تمتنع عليه ... وأمير المؤمنين يشكر لك هذه الصنائع ويعترف أنه لولا اهتمامك لا تسع الحرق على الراقع . وقد قللك الديار المصرية والبلاد الشامية والديار بكرية والحجازية واليمنية والقراتية وما يتجدد من الفتوحات غورا ونجدا ، وفوض أمر جندها ورعاياها إليك حين أصبحت بالمكارم فردا ، ولا جعل منها بلدا من البلاد ولا حصنا من الحصون يستثنى ، ولا جهة من الجهات تعد في الأعلى ولا في الأدنى . فلاحظ أمور الأمة فقد أصبحت لها حاملا ... وأبسط يدك بالاحسان والعدل ... وهذه الأقاليم المنوطة بك تحتاج إلى نواب وحكام وأصحاب رأي من أصحاب السيوف والأقلام . فاذا استعنت بأحد منهم في أمورك فنقب عليه تنقيبا ... وأمرهم بالأناة في الأمور والرفق ومخالفة الهوى إذا ظهرت أدلة الحق وأن يعاملوا الضعفاء في حوائجهم بالنعير الباسم والوجه الطلق ... ومما تؤمرون به أن يعي ما أحدث من سيئ السنن وجدد من المظالم التي هي من أعظم المحن ... وحقيق بالمقام الشريف المولوي السلطاني الملك الظاهري الركني أن تكون ظلمات الأنام مردودة بعده ... ومما يجب أيضا تقديم ذكره أمر الجهاد الذي أضحى على الأمة فرضا ... وبك يرجي أن يرجع مقر الخلافة إلى ما كان عليه في الأيام الأول . فأيقظ لنصرة الاسلام جفنا ما كان غافيا ولا هاجعا وكن في مجاهدة أعداء الله إماما متبوعا لا تابعا وأيد كلمة التوحيد فما تجدد في تأييدها إلا مطيعا سامعا . ولا تخل الثغور من اهتمام بأمرها ... وشيد منها كل ما غادره العدو منهدما ... وأولاها بالاهتمام ما كان البحر له مجاورا ... وكذلك أمر الأسطول ... إلى أن يقول : والله يمدك بأسباب نصره ويوزعك شكر نعمته فإن النعمة ستتم بشكره

فلما فرغ من قراءته أحضر للسلطان الملك الظاهر خلعة السلطنة وهي (جبة بنفسجية اللون وعمامة سوداء وطوق من ذهب وسيف) فلبسها وسار الموكب من باب النصر في طريق مفروش بالهسط إلى القلعة وتقدم السلطان الموكب وتلاه الخليفة فالصاحب بهاء الدين بن حنا يحمل التقليد على رأسه وتبعهم سائر الناس على الأقدام فكان منظرا لا يحيط به الوصف ^(١) .

شرع الملك الظاهر بعد ذلك يعد العدة لإعادة الخليفة إلى كرسيه ببغداد؛ فوثب له بعض الأمراء والعساكر وهيا له كل سبل الراحة وخرج السلطان ومعه الخليفة وأولاد صاحب الموصل ^(٢) . ولما وصلوا إلى دمشق قيل للملك الظاهر إن تأسيس خلافة قوية الأركان في بغداد قد تكون خطرا عليه فأوغر ذلك صدره على الخليفة وتركه هناك يخرق الصحراء برفقة قوة من الأعراب والترك ^(٣) . فتابع الخليفة السير حتى وصل إلى الرحبة ^(٤) . وهناك فارقه أولاد صاحب الموصل وأبوا السير معه وقالوا « ما معنا سر سوم بذلك » وأرسلوا معه ستين رجلا من مماليك والدهم ، ثم رحل الخليفة من الرحبة بعد أن أقام بها ثلاثة أيام إلى مشهد على ومنها إلى عانة . وهناك تقابل بالأمير أبي العباس أحمد ^(٥) ، وكان معه سبعمائة فارس من التركان تمكن الخليفة من استمالتهم إليه واضطر أخيرا هذا الأمير إلى الانضمام إلى الخليفة بعد أن أمنه ، ثم رحل

(١) المقرزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثاني ص ٤٥٧

Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, pp. 15-16

(٢) المقرزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثاني ص ٤٦٢

Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 16 (٣)

(٤) تقع على شاطئ الفرات جنوب قرقيسيا وتبعد عن بغداد مائة فرسخ . يه قوت : معجم البلدان .

(٥) كان صاحب حلب شمس الدين البرلي قد بايع هذا الأمير بالخلافة عند ما امتنع عن الذهاب إلى

مصر لما علم أن المستنصر قدم إليها ، ولقبه بالحاكم بأمر الله وقمى اسمه على الدراهم ، ثم جهزه على رأس

جيش صغير فذهب إلى عانة حيث قبل المستنصر بالله ودخل تحت طاعته كما رأينا . السديوطي : تاريخ

الخلافة ص ٣١٧ — ٣١٨

إلى الحديدية ففتحتها من غير مقاومة ، وقصد بعد ذلك إلى هيت فأغلق أهلها الباب دونه فظل محاصرها حتى تمكن من فتحها ونهب أموال من بها من اليهود والنصارى .
ولما علم التتار بذلك أدركوا أن الخليفة ما جاء إلا للاستيلاء على كرسى الخلافة وأخذ البلاد منهم فخرجوا لقتاله بقيادة قرابغا ووقعت بين الفريقين معركة دموية انتهت بانتصار التتار وهزيمة الخليفة وجيشه واستشهاده في تلك الموقعة سنة ٦٦٠ هـ .
ولم يفلت من جيشه سوى بعض الأمراء ومن بينهم الأمير أبي العباس أحمد الذي قدم إلى مصر فيما بعد وتلقب بالحاكم بأمر الله .^(٢)

ولما بلغ الظاهر خبر الهزيمة أظهر لذلك أشد الأسف لا على قتل الخليفة وهزيمة جيشه فقط ، بل على ما أنفقه في سبيل ذلك أيضا من الأموال الكثيرة والمعدات التي تفوق قيمتها وصف الواصفين . كما أنه رأى أن سياسته في إحياء الخلافة العباسية خاب فألها ففكر في الأمر حتى انجلى رأيه عن إقامة خليفة آخر تكون له الزعامة الدينية على البلاد التي تحت سيطرته ليستقر له الأمر فيها ؛ ومن هنا نجد أنه يبعث في طلب أمير عباسي آخر وهو أبو العباس أحمد .^(٤) ولما قدم عليه

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ القسم الثاني ص ١١٨٩ — ١١٩٠ .

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٢٦٧ .

(٣) ذكر المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٤٦٧ ؛ أن مقدار ما أنفقه الملك الظاهر على الخليفة وأولاد صاحب الموصل بلغت نحو مليون دينار نقدا و ٦٠٠٠٠ دينار عينا . أما السيوطى (تاريخ الخلفاء ص ٣١٧) فقال إنه صرف نحو مليون دينار ذهباً وستين ألف درهم .

(٤) ذكر أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ج ٣ ص ٢١٥ إن هذا الأمير كان قد قدم إلى مصر سنة ٦٥٩ هـ وأنه بويع بالخلافة في أواخر سنة ٦٦١ هـ . أما المفضل : النهج السديد ص ٩٢ ، المقرئى : السلوك ص ٤٦٨ و ٤٧٧ ؛ فيفهم من كلامهما أنه قدم إلى مصر سنة ٦٥٠ هـ ، وأن الملك الظاهر احتفل بلقائه وأنزه في البرج الكبير بقلعة الجبل ، ثم بايعه بالخلافة في أوائل سنة ٦٦١ هـ . على أن الرواية التي لايشوبها غموض وتنمق مع مجرى الحوادث هي التي ذكرها السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣١٨ ؛ وهي أن هذا الأمير العباسى قدم إلى عيسى بن مهنا على أثر قتل الخليفة المستنصر بالله وإمرازمه عند هيت على يد التتار ؛ فكتب الأمير عيسى الملك الظاهر يخبره بقدم الأمير أبي العباس أحمد ، فأرسل يستدعيه إليه . ولما قدم إلى مصر أكرمه الملك الظاهر وبايعه بالخلافة سنة ٦٦١ هـ .

سنة ٦٦١ هـ احتفل بمبايعته بالإيوان الكبير بقلعة الجبل بحضور القضاة والأمراء وأرباب الدولة، ثم قرئ نسيبه بعد ما ثبتت صحته نقاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعرن الذى بايعه على أثر ذلك، ثم تلاه السلطان فبايعه "على العمل بكتاب الله وسنة رسوله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجهاد أعداء الله وأخذ أموال الله بحققها وصرفها في مستحقها والوفاء بالعهود وإقامة الحدود وما يجب على الأئمة فعلة في أمور الدين". فلما تمت البيعة أقبل الخليفة على السلطان وقلده "أمور البلاد والعباد وجعل إليه تدبير الخلق وأقامه قسيمه في القيام بالحق وفوض إليه سائر الأمور وصدق به صلاح الجمهور". ثم أخذ الناس على اختلاف طبقاتهم في مبايعته ولقب بالحاكم بأمر الله أمير المؤمنين^(٢)، وبذلك أعيدت الخلافة العباسية ثانية إلى مصر، غير أنه في هذه المرة لم يكن هناك تفكير في الاستيلاء على بغداد كما أن الخلفاء العباسيين بمصر أصبحت سلطتهم منذ ذلك الوقت مقصورة على الأمور الدينية^(٣).

على أن مسألة الخلافة العباسية لم تكن قد انتهت تماما بمبايعة الحاكم بأمر الله بالخلافة سنة ٦٦١ هـ، إذ لم تمض ثلاث سنوات على هذا الحادث حتى نرى بيبرس يرسل إلى مصر - على أثر وصوله إلى دمشق بعد استيلائه على قلعة صنفد رجلين ادعى أحدهما أنه مبارك بن الإمام المستعصم، أما الثاني فقال إنه من أولاد الخلفاء^(٤)، ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل وفد إليها في ذلك الوقت أيضا على بن الخليفة المستعصم^(٥). ويتضح من هذا أن أبناء البيت العباسي كانوا يعتبرون عاصمة الديار المصرية ملجأ أميناً لإيوائهم. غير أننا لا ندرى ما الذى دفع الملك الظاهر

(١) ابن شاكر الكنتي : عبون التواريخ ج ٢٠ ورقة ٢٣٠

(٢) المقرئى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٧٧ - ٤٧٩

(٣) Stanley Lane-Poole. N. I p. 265.

(٤) النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ج ٢٨ القسم الأول ص ١٢٩

(٥) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٥٤

إلى إرسال هذين الرجلين إلى مصر مع أنه قد باع قبل ذلك أميراً عباسياً بالخلافة ،
لعل السبب في ذلك يرجع إلى رغبة بيبرس الصادقة في استمرار الخلافة العباسية
بمصر . ويتبين لنا ذلك من عبارة النويري في هذا الصدد . وهالك نصها ” وفي شهر
رمضان من سنة ٦٦٤ هـ وصل إلى دمشق ولد الخليفة المستعصم بالله المسمى بالمبارك
الذي كان عند هولاكو وصحبه جماعة من أمراء العربان فأنزله الأمير جمال الدين
النجيبي في أعز مكان . فلما وصل الساطران إلى دمشق سمي إليه جلال الدين بن
الدوادار والطواشي مختاراً فاعرفاه وظهر أنه بخلاف ما ادعاه فسير إلى مصر تحت
الاحتياط “ . على أننا نرى أن هناك سبباً آخر دفع بيبرس إلى ذلك وهو رغبته
في إضعاف نفوذ الحاكم بأمر الله فيهدده كلما حدثته نفسه بالتدخل في شؤون الدولة
بخلعه ومبايعة خليفة آخر . وقد أخذ بيبرس لنفسه الحيلة حتى لا يجعله يشغل
المكانة التي كان يتمتع بها سلفه فجعله شخصاً عادياً مراقباً سجيناً في القلعة^(٢) .

ولا شك أن الرغبة الأكيدة التي جالت في نفس الظاهر بيبرس والتي أراد
أن يحققها من وراء عقد الخلافة الإسلامية لرجل من العباسيين رغبة سياسية أكثر
منها دينية وبعبارة أدق إن الظاهر كان يريد امتداد ملكه واتساع سلطانه بمساعدة
الخليفة له باعتباره حامى الدين ؛ فإن فكرة الزعامة الدينية تعمل في الروس مالا تعمله
أساليب السياسة أياً كان نوعها ومالا تتاله أسنة السيوف مهما أراقت من دماء .
ولم يكن غرض بيبرس من تولية ذلك الخليفة المقتول إعادة ملك العباسيين واسترداد
ما كان لهم من عز وجاه ؛ فإن ذلك كما يتقوض دعائم ملك التتار الذين استولوا
على بغداد يهدم ساطة الظاهر في مصر والشام ؛ وبيبرس لا يهدم ساطانه بيده .
وصفوة القول أن الأمم الإسلامية كانت في هذا الوقت لا تزال متعلقة بأهداب
الخلافة ناظرة إلى الخليفة نظرة إكبار وإجلال ، كما كانت لا تزال تنظر إلى من يحقق

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب ج ٢٨ القسم الأول ص ١٢٩

(٢) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 16.

فكرة إقامة الخليفة بنفس العين التي كانوا ينظرون بها إلى الخليفة نفسه . وتنجلي لنا رغبة الشعب العامة في إبراز فكرة الخلافة فيما يرويه بن إياس^(١) عن بعض الشعراء حين بويج الخليفة بمصر :

يا أسد الـترك يا رُكُنهم * ويا آخذَ النار بعد المخافة

كسرت الطغاة جبرت العفاة * قطعت الفرات وصلت الخلافة

ولعلنا نرى من خضوع بيبرس للخليفة في المجلس الحافل بعطاء الرجال وكبار الدولة مثلاً ضربه للحاضرين وللشعب بوجوب احترام وتقديس هذا الخليفة ولنفسه هو باعتباره السلطان عليهم القائم على شئون الدولة والمالك لزام الحكم فيها قد أبت نفسه أن ترتفع في المجلس على منضدة أو أريكة في حضرة أمير المؤمنين ليريهم أن هذه المنزلة لم يسم إليها إلا الخليفة . فكان ذلك أكبر عامل بعث في نفوس الشعب الخضوع والتقديس لتلك الشخصية . هذا إلى ما تنطوى عليه نفوسهم من إكبار فكرة الخلافة .

ومما هو جدير بالذكر أنه لما استقر ملك بيبرس في البلاد المصرية والشامية أصبح في غنية عن ظهور الخليفة في المجتمعات العامة ، كما لم يصبح في حاجة إلى إسماع كلمته للشعب . لذلك نراه يزوج به في أعماق دار^(٢) لا يصل إليه أحد من خواص الدولة ورجالات الشعب . ولعل السر في إخفائه أنه خاف على نفسه من طول اتصال الشعب به حتى لا يتألب عليه ويقم مقامه الخليفة فتنتقل إلى يده السلطة الزمنية أيضا . ومن ذلك يتضح لنا أن الظاهر لم يرم بعمله هذا إلى إحياء الخلافة الإسلامية فحسب وإنما فعل ذلك لأسباب سياسية أيضا .

(١) بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج ١ ص ١٠٣

(٢) ذكر أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ القسم الثاني ص ١٩٠ ؛ أن الملك الظاهر أنزل الخليفة الحاكم في مناظر الكباش التي أنشأها أحمد بن طولون وزاد على ذلك ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج ١ ص ١٠٤ فقال إن السلطان رتب لهذا الخليفة ما يكفيه كل يوم هو وعائلته كما أمره أن يصعد القلعة في أول كل شهر ليقدم له فروض التهنئة .

٢ - سياسة بيبرس الخارجية

(١) موقف بيبرس إزاء الصليبيين :

رأى بيبرس بعد أن وطد سلطته في مصر أن يعمل على إحياء الامبراطورية الإسلامية، لذلك كان من أهم أركان سياسته مناضلة الصليبيين الذين كانوا لا يزالون مقيمين على سواحل الشام . وعلى الرغم من أن وسائل القضاء عليهم قد توفرت منذ انهزامهم في موقعة المنصورة سنة ١٢٥٠ م إلا أنه لم يشرع في القضاء على دولتهم ببلاد الشام إلا منذ تولى بيبرس سلطنة مصر سنة ١٢٦٠ م . ويرجع ذلك إلى انشغال سلاطين المماليك بالعمل على إيقاف خطر المغول وضم الشام إلى مصر بعد أن انفصلت عنها على أثر اختيار أمراء دمشق الناصر داود الأيوبي سلطاناً عليهم^(٢)، فكان لابد من التغلب على تلك العثرات قبل أن يستطيع سلاطين المماليك مواجهة الصليبيين مواجهة تامة .

وقد نجح المماليك في أيام الملك المظفر قطز في إزالة العقبة الثانية وذلك بعد إجلائهم المغول عن دمشق على أثر هزيمتهم على يد بيبرس في موقعة عين جالوت

(١) كان لاستقلال دمشق وانفصالها عن الجبهة الإسلامية في أيام الحروب الصليبية الأولى أثر كبير في تقدم الصليبيين ، إذ حالفت مملكة دمشق الدولة الصليبية بيت المقدس سنة ١١٣٩ م ضد أتراك الموصل (Stevenson p. 143) . فلما صارت دمشق والموصل بيد نور الدين وضع الخطر على مملكة الصليبيين (Stevenson p. 173) ثم لما انفصلت دمشق مرة أخرى بتوزيع القوات الإسلامية على أثر إقامة صلاح الدين بمصر ونور الدين بالشام ضعفت المقاومة الإسلامية وقل الخطر الإسلامي إلى حد ما ثم زاد وبلغ النهاية العظمى لما أصبحت دمشق والقاهرة والموصل بيد صلاح الدين (Stevenson p. 240) غير أنه لما انقسمت مملكته على أثر وفاته بين أهل بيته ضعفت الجبهة الإسلامية أمام الصليبيين وشراعت ذلك راضحة ، فلهذا كانت التي عقدتها العاد مع الصليبيين كان من أسبابها انشغال الأيوبيين بأموالهم والمعاهدة التي عقدتها الكامل مع فردريك الثاني كان من أسبابها انشغاله بأخيه المعظم صاحب دمشق . Stanley Lane-Poole, pp. 213, 215, 217, 225-226.

من هذا كله نرى أهمية انضواء الشام ومصر تحت سلطان واحد في مصير الصليبيين .

(٢) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ٢ ص ١٨٣

التي مهدت الطريق لانضواء الشام ومصر تحت سلطان واحد سنة ١٢٦٠م؛ وبذلك تهيأت الأسباب التي تنذر بالخطر على دولة الصليبيين بالشام . أما عن المغول الذين أسسوا دولة لهم بالعراق ، فإنه على الرغم من تطلع المسيحيين الى هذه القوة الناشئة لتساعدهم في حروبهم ضد المسلمين وتضمن لهم امتلاك الأراضى المقدسة تمكن بيبرس بفضل انتصاراته عليهم في بلاد الشام وتحالفه مع بركه خان سلطان مغول القفجاق من أن يجعل أمد الحلف بينهم وبين إيلخانات فارس قصيرا . وكان من أثر ذلك أن انصرف مغول فارس الى الاهتمام بمصالحهم الشخصية ، كما أنه قد أساء الى سمعة المسيحيين في غرب آسيا ما ارتكبه إخوانهم في الدين في دمشق وغيرها من مدن الشام من الفظائع في تلك المدة القصيرة التي أقامها بين ظهرانيهم مغول فارس حيث أولوهم عطفهم ورعايتهم^(٢) .

وقد عمل بيبرس على مناوأة الامارات اللاتينية في الشرق (من سنة ١٢٦١ - ١٢٧١ م) . ولم تمض سنة من تلك السنوات العشر بدون حملة يرسلها بيبرس الى تلك الامارات . فبدأ حملاته بغزوات صغيرة على أنطاكية - التي أعلنت عطفها على المغول - وقيليقيا وجهات عكا^(٣) . وكانت خاتمة أمره معهم أن ضيق عليهم الحصار واستنخاص البلاد منهم حتى لم يبق لهم إلا النذر اليسير مما كان بأيديهم . وستعرض لحروبه معهم والأسباب التي كانت تجعل الظاهر على غزوهم عدة مرات في مواقع متفرقة والتي جعلت منازلته لهم تستمر مدة عشر سنوات تقريبا وفي كل موقعة ينتزع بلدا أو أكثر الى أن ألجأهم الى الانضواء في صقع لا يكاد يذكر بجانب ما كان لهم أيام صلاح الدين ومن خلفه من السلاطين الى عهده . نعم كان بيبرس في غزواته ضد الصليبيين ينتصر عليهم ويستولى على مواطنهم

(١) Stevenson : The Crusaders in the East p. 334.

(٢) Sir Thomas Arnold : The Preaching of Islam p. 223.

(٣) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 267.

وينتقص مدتهم من أطرافها وإن كان قد لقي كثيرا من المشقات والمتاعب من جراء نيل مقصده وتتميم رغباته ؛ ومن ثم لم يهزم أمامهم أو يمتنع عليه أحد حصونهم ، على أن بيبرس لم يشرع في تنفيذ سياسته إزاء الصليبيين إلا بعد أن عقد عدة محادثات مع الدول المحيطة بمملكته ؛ فتحالف مع بركة خان سلطان مغول القفجاق ضد خانات فارس وتبودات بينهما البعث بين سنة ١٢٦١ - ١٢٦٣ م ، كما عقد تحالفا دفاعية مع ميخائيل باليولوجس (Michael Palaeologus) امبراطور الدولة البيزنطية . ولم يكتف بذلك بل وسع دائرة تحالفاته فأرسل بعثا الى منفرد (Manfred) ملك صقلية وتسكانيا وتحالف مع سلطان السلاجقة الروم^(١) .

وقد بدأت مناوأة بيبرس للامارات اللاتينية بإغارة بعض أمرائه على بلاد أنطاكية وانتصارهم على الفرنجة سنة ١٢٦٠ م . وكان من أثر ذلك أن قدمت رسالهم اليه تطلب الصلح فأجابهم الى طلبهم^(٢) . غير أن الفرنجة لم ينفذوا ما وعدوا به من إطلاق سراح الأسرى المسلمين فعنتهم لتسوية قلوبهم على إخوانهم في الدين وأمر باستخدام أسرى المسيحيين في بناء حصون دمشق .

ولما هدا روع بيبرس من جهة الملك المغيث رأى أن في استطاعته أن يحرف بكل جنوده على الصليبيين . على أن السبب المباشر في إغارته عليهم يرجع الى تقصير اليهود إذ امتنعوا عن تسليم بعض العاقل ؛ فقام إظهارا لسخطه وغادر مصر الى بلاد الشام سنة ١٢٦٣ م حتى إذا توسطها جاءتته رسل الصليبيين بكتب يتجاهلون فيها وصول السلطان اليهم ؛ فكتب اليهم كتابا قال فيه "إن من يتولى أمرا فعليه باليقظة

(١) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages (١)
pp. 265-266.

(٢) المقرزي : السلوك ج ١ القم الثاني ص ٤٦٣ - ٤٦٤

Sir William Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, (٣)

ومن خفى عليه خروج هذه العساكر وجهل ما عليه الوحوش في الفلاة والحيطان في المياه من كثرتها التي لعل بيوتكم ما فيها موضع إلا ويكنس منه التراب الذي أنارته خيل هذه العساكر . ولعل وقع سنا بكمها قد أصم أسمع من وراء البحر من الفرج ومن في موقان^(١) من التتار . فإذا كانت هذه العساكر تصل جميعها إلى أبواب بيوتكم ولا تدرون فأى شيء تعملون ؟ . ولما رأى الظاهر مراوغتهم وأنهم أصبحوا يظهرون التمسك بأهداب الهدنة بعد أن كانوا يكتبونه بئد منهم عليها أحضر رؤساءهم وقال لهم "ما تقولون" ؟ . قالوا : "نتمسك بالهدنة التي بيننا" . فأجابهم بقوله "لم لا كان هذا قبل حضورنا إلى هذا المكان واتفاق الأموال التي لو جرت لكنت بحارا ونحن لما حضرنا إلى هاهنا ما آذينا لكم زرا ولا غيره . وأتم منعم الجلب والميرة عن العسكر وسيرتم إلينا بدمشق نسخة يمين حلفنا عليها وسيرنا نسخة يمين لم تحلفوا عليها وسيرنا الأسارى إلى نابلس ثم إلى دمشق ، وما سيرتم أتم أحدا وسيرنا رسولا يعلمكم بوصول الأسرى فلم تبعثوا أحدا ولم ترحموا أهل ملتكم الأسرى وقد وصلوا إلى أبواب بيوتكم . كل ذلك حتى لا تبطل أشغالكم من أسرى المسلمين عندكم ... ثم إنا سيرنا رسلا إلى [بلاد السلاجقة] الروم وكتبنا إليكم بتفسيرهم في البحر فأشرتم عليهم بالسفر إلى قبرس ؛ فأخذوا وضيق عليهم وأتلف أحدهم . هذا مع إحساننا إلى رسلكم وجرت عادة الرسل أنها لا تؤذى . وما زالت الحرب قائمة والرسل مترددة . فإن كان هذا بغير رضاكم فإنه نقص في حرمتكم" . ثم ذكرهم بما كان من عفو الملك الصالح نجم الدين أيوب عنهم حين خرجوا عليه مع عمه الصالح اسماعيل بن العادل وأخذهم مقابل ذلك مدينتي صفد والشقيف وأنهم غدروا وناصروا لويس التاسع وصحبوه إلى مصر ... إلى أن قال "وبالجملة أتم أخذتم هذه البلاد من الملك الصالح اسماعيل لإعانة مملكة الشام وغيرها ... وما أنا محتاج إلى نصرتكم ولا إلى نجاتهم فردوا ما أخذتموه من البلاد وفكوا أسرى المسلمين جميعهم

(١) إحدى أقسام أذربيجان . ياقوت : معجم البلدان .

فإني لا أقبل غير ذلك". فقالوا: "نحن ما ننتفض المدينة وإنما نطلب مراحم السلطان في استدامتها ونزيل شكوى النواب ونخرج من جميع الدعاوى ونفك الأسرى ..."

فلم يقبل السلطان منهم ذلك وأمر بإخراج رسل الفرنجة ووجه الأمير علاء الدين طبرس إلى كنيسة الناصرة؛ فسار إليها وهدمها ولم يبق من الفرنجة أى مقاومة^(١).

لم يكتف بيبرس بما أحدثه جيشه بكنيسة الناصرة؛ بل جرد جيشا إلى مدينة عكا فافتحم أبوابها، ثم سار بنفسه إليها وحاصرها من جهة البر ٦٦١ هـ (١٢٦٣ م). وكان الفرنجة قد حفروا خندقا حول تل الفضول بالقرب من عكا واتخذوه قلعة يجارون من فوقه.

رأى بيبرس هذا فلم يمنعه من مهاجمتهم تحصنهم بالتل؛ بل ذهب إليهم بجيشه وهناك رتب عساكره بنفسه وهم الجميع بردم الخندق وسرعان ما انتهوا منه وصعدوا فوق التل وانقضوا على الصليبيين ففتروا منهزمين إلى المدينة والجيش يتعقبهم بعد أن هدم الأبراج وأحرق الأشجار وامتلاء الجو بالدخان. وحين دخل الصليبيون مدينة عكا، أطلقوا أبوابها كيلا يتمكن المسلمون من اقتحامها؛ غير أن الأمراء حملت على الأبواب الواحد بعد الآخر ثم انقضوا على الصليبيين دفعة واحدة شتتوا فيها شملهم إذ ألقى فريق منهم في الخنادق وقتل عدد عظيم وامتلاّت أيدي الجيش المصرى بالأسرى والغنائم^(٢). وهكذا ذاق الصليبيون وبال أمرهم ونالوا عاقبة غدرهم وعدوانهم على ما ليس لهم سلطان عليه من المدن والقرى.

وفي سنة ٦٦٣ هـ (١٢٦٥ م) سار بيبرس إلى بلاد الشام على رأس جيش كبير لمحاربة التتار؛ غير أنه لما أتت إليه الأخبار بارتدادهم عن البيرة ابتداء في مهاجمة المدن اللاتينية؛ فسار إلى قيسارية ونصب عليها المجانيق ثم اقتحمها ففتز أهلها إلى

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٨٣ — ٤٨٧

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٨٥ — ٤٨٩

(٣) Stevenson : The Crusaders in the East p. 338.

قلعتها واضطروا إلى تسليمها بعد أن استمر الهجوم عليها خمسة أيام، ثم هدمت أسوارها رغم تحصينات لويس التاسع لها، ولم يكن بيبرس يشجع الجند أثناء ذلك فحسب بل كان يشاركهم في هدم الأسوار بنفسه .

لم يترك بيبرس الفرنجة عند حد هذه الهزيمة التي نزلت بهم في قيسارية بل لم يكف ينته من هذه المعركة حتى أرسل جيشا إلى عثليث وحيفا أوقع التخريب فيهما، ثم حوّل وجهه نحو قلعة أرسوف البحرية الواقعة جنوبي قيسارية وشرع في مهاجمتها، غير أن سكانها (الفرسان الهوسيتالين) دافعوا عنها دفاع الأبطال مدة أربعين يوما . وبينما كان بيبرس يهاجم المدينة كان الحماس الديني بالغا أشده في نفوس الفقراء وال دراويش حتى النساء الذين تجمعوا لحفر الخنادق تحت الأرض . وفي النهاية اضطر بيبرس للمفاوضة مع الحامية وأمنهم على حياتهم، ثم أكرههم على العمل في تخريب حصونهم بأيديهم . وعند ما شرع في العودة إلى القاهرة زين بهم موكبه وهم يحملون الصليبان مكسرة والأعلام منكسة^(١) .

وقبل أن يغادر الملك الظاهر ساحة القتال أقطع أمراءه قطائع من الأرض التي انتزعها من الصليبيين وسجل هذه العطايا في صحيفة^(٢) أوردتها كل من النويرى^(٣) والمقرزى^(٤) . وقد بدأها بوصف حكمه وعظمته بألفاظ تم عن الفخر والاعتزاز بالنفس، وأنه هو الذي وطد دعائم الدين الإسلامي بهزيمة أعدائه من التتار

Sir William Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, (١)

p. 20.

(٢) ذكر مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النج السديد ص ١٣٨ - ١٣٩ و ١٤٤ ؛ أن الظاهر بعد أن تبرر منح أمراءه بعض الاقطاعات أرسل النسخ التي سجل فيها العطايا لأمرائه إلى مصر ليوقع عليها الوزير والخازن دار ودويان الجيش ، ثم أعيدت إليه ثانيا ووزعت على أصحابها . ولما تم ذلك حضر الأمراء إلى السلطان ليقدموا له فروض الشكر على ما منحه إياهم وقدم بعد ذلك قاضى القضاة شمس الدين ابن خلكان إلى غزوة وكتب لإقرارا بتمليك هذه المنح للآمراء وافق عليه السلطان ثم أعطى كل أمير نسخة منه .

(٣) نهاية الأرب في فنون الأدب ج ٢٨ القسم الثاني ورقة ٢٧٧ - ٢٨٠

(٤) السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثاني ص ٥٣٤ - ٥٣٤

والصليبيين ، كما أشاد فيها بذكر ما قام به أمراؤه من الخدمات الجليلة التي جعلته يؤثرهم على نفسه ويمنحهم البلاد والضياح .

ما كان الظاهر ينازل الصليبيين ويتجشم المتاعب في محاربتهم مضجعا بكل ما لديه من عتة وعدد في سبيل الإيقاع بهم إلا لعدم وفائهم وتعديهم على ما ليس لهم من المدن والقلاع ونتابع إغاراتهم على ممتلكات سلطان مصر .

ففي سنة ٦٦٤ هـ (١٢٦٦ م) أغار بوهمند السادس ملك أنطاكية على مدينة حمص ، فأرسل إليها بيبرس قوة لنجدتها ثم سار من مصر بكل ما لديه من الجنود .^(١) ولما وصل إلى غزوة سير جيشا إلى ناحية حمص بقيادة الأمير جمال الدين أيدغدى العزيزى والأمير سيف الدين قلاوون الألفى ، فأغاروا على الفرنجة ، ثم ورد عليهم كتاب السلطان بالتوجه إلى طرابلس فساروا على غرة من العدو ونزلوا على حصن الأكراد وأغاروا على ساحل البحر من جهة طرابلس واستواوا على بعض القلاع . أما بيبرس فإنه توجه لزيارة بيت المقدس والخليل ، فزار قبر سيدنا إبراهيم عليه السلام وأفاض النعم على حراسه وأمرهم بعدم السماح لأهل الذمة بزيارة هذا المكان المقدس .^(٢) ثم اتجه نحو مقصده فتقدم نحو عين جالوت وأرسل بعض الأمراء في عتة من العسكر لغزو صور وصيداء وجهة القرن ، ثم سار بنفسه إلى عكا وأقام بها حتى قدم إليه هؤلاء العساكر محملين بالغنائم فرحل معهم إلى مدينة صفد .^(٣) وهناك وافته الحملة التي سيرت لتخايص حمص بعد أن قامت بمهمتها .^(٤)

تجمعت هذه القوى أمام صفد . ولم يتخل بيبرس عن جيشه أثناء الهجوم بل كان يشغل بنفسه في محاصرتها ويشجع الجنود . وقد ضرب لنا المثل الأعلى بما كان

(١) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 21.

(٢) النويرى : نهاية الأرب في فنون الأدب ج ٢٨ القسم الثانى ص ٢٨٥ — ٢٨٦

(٣) كانت صفد فى ذلك الوقت إحدى معاقل الفرسان الداوية :

King : The Knights Hospitallers in Holy Land p. 260.

(٤) المقرزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٤٥ — ٥٤٦

أذله من الجهد والعناية بالمرضى والجرحى؛ وفي نفس الوقت منع شرب الخمر
 لمعسكرها، وشدت العقوبة على من تحدّثه نفسه بالنهب أو بالتلاف بالمزروعات^(١) .
 ظلت الحرب قائمة بين الفريقين على قدم وساق وكلاهما يزداد همة ونشاطا
 إن ضعف الصليبيون آخر الأمر عن المقاومة؛ فسقطت قلعة صفد بعد حصار
 ثلاثة أسابيع على الرغم من أنها كانت محصنة تحصينا قويا وأضطر رئيس الداوية
 التسليم على أن يؤمنهم بيبرس على حياتهم وأن يرحلوا إلى عكا، سالمين^(٢) . فأمنهم
 أن تخرج الحامية من القلعة بغير سلاح ولا لامة حرب وألا يتلفوا ذخائر القلعة^(٣) .
 على أن الفرنجة لم يلبثوا أن نقضوا الأمان^(٤) ونكثوا العهد . فقد وجد بيبرس
 عندما خرجوا من القلعة حملوا معهم أسلحتهم وأمتعتهم كما وجد معهم بعض
 سرى من المسلمين أخرجوهم معهم على أنهم نصارى فأخذ ما معهم ثم ضرب أعناقهم
 ، تل بالقرب من صفد . ولم ينج منهم سوى رجلين أحدهما الرسول الذي أسلم
 لل في خدمة بيبرس ، وثانيهما أطلق بيبرس سراحه وسمح له بالذهاب إلى عكا
 عبر الفرنجة بما شاهدته^(٥) .

(١) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 267

(٢) King: The Knights Hospitallers in Holy Land p. 261.

(٣) النويري : نهاية الأرب ج ١٨ القسم الثاني ورقة ٢٩٠ ؛ وقد زاد على ذلك المفضل : كتاب
 ج السيد ص ١٤٩ ، فقال إنه اشترط عليهم أن يفتشهم عند خروجهم ، فان وجد مع أحد منهم شيئا
 منعهم في أخذه انتقض العهد .

(٤) هناك رواية ذكرها مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السيد ص ١٥٠ ، يفهم منها أن
 نود حامية صفد الصليبيين لم تخل بالشروط وأن السلطان لم يكن مرتبطا معهم شخصيا بعهد أمان وإليك
 بها (...) حكي الأمير ركن الدين بيبرس العلائي أن السلطان لم يحلف لأهل صفد وإنما أجلس مكانه
 ميون أغا التتري وأوقف الأمراء في خدمته ، حلف لهم كرمون وعمل عليهم الوزير الذي لهم وكان
 سرانيا ، فزلوا على يمين كرمون . فلما نزلوا جعلوا عليهم الحجة أنهم أخذوا معهم ما لم يقع عليه التمييز
 نريت رقابهم عن آخرهم وكانوا نحوا من ألفي فارس) .

(٥) المقرئزي : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٥٤٧ — ٥٤٨ ؛ هذا ، وقد كان الشخص الذي أمم
 دخل في خدمة السلطان فارسا من الداوية . أما الثاني الذي ذهب إلى عكا ليخبر الفرنجة بما رآه فكان من
 سان الأسبنتار King : The Knights Hospitallers in the Holy Land p. 261.

وهنا تبدولنا صورة يراها المطلع في ظاهرها غدرا ولكن إذا ما بحث عن أسبابها وعللها اتضح له أنها لم تتخرج عن كونها جزءا طبيعيا لمن حلت بهم . فلم يتعد بيبرس بفعله حدود ما أمنهم عليه وشرطوه على أنفسهم . وهذا العمل يعتبر غدرا لو أنه قتلهم بعد التأمين في وقت لم ينقضوا فيه عهدا . أما وهم فقد نقضوا العهد فليس فعله اذن من الغدر أو الخيانة في شيء . ولا معنى لحمل بعض المؤرخين من أمثال *Maier* هنا العمل من بيبرس على الغدر والتكث . وفي ذلك يقول ميور^(١) " إن هذا الجرم الفظيع عزاه فريق إلى أن الأسرى حين خروجهم حملوا أسلحتهم وأمتعتهم ، كما أن فريقا آخر يرى أنه يرجع إلى أن بعض المسلمين وجدوا مسجونين بالقلعة . على أن هذه الأسباب لا تنحصر عن ذلك الفاتح تلك النقطة السوداء التي لصقت بانسانيته بل بإيمانه " .

فهذا المؤرخ أصدر حكما قاسيا على بيبرس تجملت فيه الأهواء والميول وكفانا بالظاهر من صفات عالية وأخلاق فاضلة ووفاء بوعوده ، أنه لم يفعل مثل هذا غير من حلت بهم ممن كانوا يطلبون الأمان فيؤمنون وأمثلة ذلك كثيرة في كل عرقاتهم .

تم الأمر على ما ذكرنا واستولى الظاهر على مدينة صغد بعد أن حرب قلعتها ، غير أنه في السنة التالية أعاد بناءها واشترك في ذلك بنفسه وكتب على أسوارها عبارات تدل على انتصاراته وتغلبه على الصليبيين تقتطف منها ما يأتي : « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون » . أمر بتجديد هذه القلعة المحروسة وتحصينها وتكلمة عمارتها وتحسينها من خلصها من أيدي الفرنج الملاحين وردتها إلى أيدي المسلمين ونقلها من مسكن إخوة الداوية إلى مسكن إخوة المؤمنين فأعادها للإيمان كما بدأها أول مرة وجعلها الكفار خسارة وحسرة . ولم يزل بنفسه يجتهد ويجاهد حتى عوض عن الكائن

بالجوامع والبيع بالمساجد وبدل الكافر بالإيمان والناقوس بالأذان والإنجيل بالقرآن ووقف بنفسه التي هي أعز النفوس حتى حمل تراب خنادقها وحجارتها منه ومن خواصه على الرؤوس ، سلطان الإسلام والمسلمين... سيد التتار، فاتح القلاع والحصون والأمصار، وارث الملك ، سلطان العرب والعجم والترك، إسكندر الزمان ، صاحب القرآن أبو الفتح بيبرس قسيم أمير المؤمنين” .^(١)

فما تقدم نرى أن غزوات بيبرس انقلبت منذ سنة ١٢٦٥ م إلى محاولات في سبيل التوسع والفتوح . فاستولى على قيسارية وارسوف وسوى بحصونها الأرض ، ثم نراه بعد أن يستولى على صفد يوجه نظره إلى هوينين (Chateaufort) والرملة فيستولى عليهما من غير مقاومة .^(٢)

وعند ما توجه الملك الظاهر لمقابلة جيوشه العائدة من بلاد سويس بعد انتصارها على هيتوم ملك أرمينية سنة ١٢٦٦ م علم أن سكان قرية «قار»^(٣) يتعدون على أصحاب الضياع ويغيرون على المسلمين ويبيعون من تقع عليه أيديهم بيع الرقيق إلى الفرنجة بحصن عكاء . فلم ير الظاهر بدا أمام هذه الفظائع من الإغارة عليهم في عقردارهم وضربهم ضربة شديدة ، فأحرق صوامعهم ومزقت أوصال رهبانهم وحولت كنيستهم إلى مسجد وأخذ شبانهم مماليك في أيدي المماليك وسيروا إلى مصر حيث ترقى بعضهم إلى المناصب العالية .^(٤)

بعد أن استقرّ مقام الظاهر بمصر توجه في جماعة من أسرائه إلى بلاد الشام . فنزل غزة ورحل منها إلى صفد وعلم إذ ذاك بتوجه التتار إلى الرحبة فسار إلى

(١) النويري : نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الأول ص ١٣٦ - ١٣٨

(٢) Stanley Lane-Poole: A History of Egypt in the Middle Ages p.267.

(٣) King: The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 261.

(٤) تقع على الطريق من دمشق إلى حصص . ياقوت : معجم البلدان .

(٥) المقرئ : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٥٥٢ - ٥٥٣

(٦) Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt. p. 24.

دمشق ولما دخلها بلغه خبر ارتدادهم . فعاد ثانيا إلى صفد^(١) ، ثم حاول أن يفاجئ عكاه بهجومه ؛ فسير فرقتين من الخيالة متخفيين بأن إليس عسكر إحداهما ملابس الفرسان الاسبتار ، والثانية ملابس فرسان الداوية . غير أن هذه الخيلة لم تلبث أن كشفت أمرها ، وعلى الرغم من ذلك فقد قام المسلمون بمذبحة هائلة مع السكان الذين يقيمون خارج أسوار المدينة^(٢) .

ولما رأى بيبرس أن المدن اللاتينية في ذلك الوقت ترغب في عقد الصلح اتبع خطة واضحة إذ اتفق مع بعضها وترك البعض الآخر يتحمل هجماته ؛ فعقد الصلح مع أميرة بيروت ومدينة صور التي اضطرت إلى دفع مبلغ كبير من المال وأطلقت سراح الأسرى المسلمين ، كما عقدت الهدنة بينه وبين الاسبتار بحصن الأكراد والمرقب^(٥) . وقد أسهب القلقشندى في بيان هذه المهادنة ونكتفى هنا بذكر بعض ما وقع عليه الصلح بين الطرفين لتبين منه قوة الملك الظاهر وجيشه ولتتعرف أيضا حال الصليبيين بوجه عام وما آل إليه أمرهم من الاستكانة والضعف ؛ فقد نصت هذه الهدنة على :

- (١) أن يكون أمده عشر سنين وعشرة أيام وعشرة ساعات تبتدئ من يوم الاثنين الرابع من رمضان سنة ٦٦٥ هـ .
- (٢) ألا تنقض بموت أحد الطرفين .

(١) المقریزی : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٥٥٨

(٢) King: The Knights Hospitallers in the Holy Land p. 262

(٣) ذكر العيني : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٣٤ ، أن رسل هذه الأميرة قدمت إلى الملك الظاهر وهو بصفد في شعبان سنة ٦٦٥ هـ لأن أخاها كان قد غرر بمركب بها جماعة من التجار متوجهين إلى قبرس ؛ فطلب منهم السلطان أن يحضروا إليه مال هؤلاء التجار ويطلقوا سراحهم ، فلبوا طلبه وعقد الصلح معهم .

(٤) هذا المبلغ كان عبارة عن الدية التي أخذها أولاد السابق شاهين غلام الملك الظاهر . وكان قد

قتل بصور فقتل السلطان عليهم دفع ١٥٠٠٠ دينار صورية . النويري ج ٢٨ القسم الثاني ورقة ٢٩٨

(٥) Stevenson, The Crusaders in the East p. 340.

(٦) صبح الأضنى ج ١٤ ص ٣١ - ٣٩

(٣) ألا يأخذ بيت الاسبتار الجزية التي كانت مفروضة على بلاد الاسماعيلية وحماء وشيزر وأفامية وأبي قُبيس .

(٤) أن يتولى أمر سكان هذه البلاد فيما يختص "بالحبس والاطلاق والحبابة" نائب من قبل الظاهر ونائب من قبل الاسبتار ؛ فإن كانوا مسلمين حكم فيهم بشريعة الإسلام ، وإن كانوا مسيحيين عوملوا بمقتضى الشريعة المسيحية . هذه هي أهم شروط هذه المهادنة . وهناك شروط أخرى تليها في الأهمية يطول بنا المقام في ذكرها ؛ غير أننا نشير إلى أن كثيرا من مواد هذه المهادنة ينص على تقسيم الكثير من البلدان مناصفة بين الظاهر والصلبيين .

وفي السنة التالية (٦٦٦ هـ = ١٢٦٨ م) وجه بيبرس ضربته القاضية الثانية ضد بقايا المملكة اللاتينية . فبعد مهاجمته أسوار عكا ظهر بجأة أمام يافا في ٧ مارس سنة ١٢٦٨ م — وكانت المعاهدة التي بينه وبين صاحبها قد انتهت على أثر وفاته سنة ١٢٦٦ م ولم يجددها مع ابنه (Guy d'Ibelin) ^(١) — فاقض عليها من غير سابق انذار وتمكن من الاستيلاء على المدينة وتخريبها . ثم سار السلطان شمالا قاصدا الشقيف أرنون التي كان يمتلكها الفرسان الداوية وكانت محصنة تحصينا قويا ، فلم يستطع الوصول إليها إلا في ٦ أبريل من السنة المذكورة ، واستخدم في هدم أسوارها ستة وعشرين منجنيقا . وبعد تسعة أيام من وصوله تمكن من الاستيلاء عليها ^(٢) .

(١) ذكر النويري : نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الثاني ورقة ٢٩٩ أن بيبرس عند ما قدم إلى صقد لبناء قلعتها وفد عليه مقدم يافا وطلب منه أن يجدد عقد الهدنة بينه وبين ابن صاحب يافا فامتنع السلطان عن ذلك .

(٢) زاد العين (عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٣٧) على ذلك فقال : إن المسلمين لما استولوا على مدينة يافا بلغ أهلها إلى القاعة وطلبوا الأمان على أن يخرجوا بأموالهم وأولادهم ؛ فأجابهم السلطان وقسم القاعة منهم .

(٣) ذكر المفضل (النج السديد ص ١٦٤ — ١٦٥) أن الملك الظاهر توسل بحيلة للاستيلاء على الشقيف . وتلخص في أنه عندما قدم إليها عثر على كتاب من القرنجة المقيمين بعكا يتضمن إفادة التراب =

ولما تم استيلاء بيبرس على الشقيف اتجه إلى شمال سورية، فسار إلى طرابلس وهاجم البلاد المحيطة بها، ولم يستطع الأمير يموند السادس أن يوجه ضده أية مقاومة،^(١) ثم رحل إلى صافيتا وانطرسوس فتلقاء صاحبهما بالترحاب وأطلق سراح ثلاثمائة أسير كانوا عنده، فلم يعترض السلطان لبلاده وتقدم نحو الشمال إلى حمص ومنها سار إلى حماة، وهناك قسم جيشه إلى ثلاث فرق للزحف على بلاد أنطاكية تولى قيادة إحداها ونزل بها على أفامية . وعندما وصل إلى أنطاكية وافته بقية جيوشه، وبدأ يهاجمها في أوائل مايو سنة ١٢٦٨ م (رمضان سنة ٦٦٦ هـ)، واقتتل الفريقان قتالا شديدا أسرا أثناءه حاكم المدينة . وكان بيبرس في ذلك الوقت يرغب في عقد الصلح لوقف تيار القتال حقنا للدماء التي تراق، فحاول أن يوسط ذلك الحاكم الذي أسره في أن يلقى السكان أسلحتهم ويسلموا المدينة، غير أنهم أبوا ذلك وظلوا يدافعون عن مدينتهم ممتنعين عن تسليمها . حينئذ لم يجد بيبرس بدا من مهاجمة أسوار المدينة وأوصد أبوابها في وجه السكان، وأنقض عليهم ذبحا وقتلا وأسرا . وكان عددهم نيفا ومائة ألف نسمة بما فيهم الرهبان والقسس .^(٢)

وحين رأى رجال الحامية - وكان عددهم ثمانية آلاف - أن المدينة وقعت في أيدي المسلمين، ارتدوا إلى القلعة ثم سلموها في اليوم التالي على أن يؤمنوا على حياتهم . وبذلك سقطت مدينة أنطاكية بعد حصار دام خمسة أيام .^(٣)

- بالشقيفين أن المسلمين لا يستطيعون الاستيلاء على الحصن إلا إذا دافعوا عنه دفاعا مجيدا . ولما اطلع بيبرس عليه أرسل إلى المقدم المقيم بالشقيف كتابا يذكر فيه أمارات بينه وبين أهل عكا ويحذره من الوزير المقيم عنده ومن جماعة وردت أسماؤهم في الكتاب ، كما أرسل كتابا آخر لولوزير يحذره من هذا المقدم ويأمره فيه بأنه إن احتاج إلى مال يأخذه من ملك ذكر اسمه في الكتاب . فلما وقف أهل الشقيف على هذه الكتب وقع الخلاف بينهم في الوقت الذي كانوا محاصرين فيه ، فاضطروا إلى تسليم حصن الشقيف .

(١) King: The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 263

(٢) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٦٧

(٣) Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 25.

(٤) King: The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 263.

ولم يكتف بيبرس بهذا الدمار الذي أنزله بالمدينة بل أسرجامية القلعة ووزع^(١) أفرادها على الأمراء^(٢) . ثم أرسل إلى يميند - وكان إذ ذاك بطرابلس - رسالة تهكم يشاطره فيها الحزن على مصير حاضرة ملكه وضمنها عبارات التقريع والسخرية . وقد أوردها كل من النويري^(٣) ، والمفضل^(٤) ، والعيني^(٥) . وسنكتفى بذكر بعض فقراتها لأهميتها :

« بسم الله الرحمن الرحيم » قد علم القومص الجليل المبجل المعزز الهمام الأسد الضمرغام يميند نحر الأمة المسيحية رئيس الطائفة النصرانية ... ما كان من قصدنا طرابلس وغزونا له في عقر الدار، وماشاهده بعد رحيلنا من إخراب العمار والأعمار، وكيف كنست تلك الكنائس على بساط الأرض ... وكيف قتلت الرجال واستخدمت الأول وتملكت الحرائر... وكيف نهبت لك ولرعتك الأموال والمواشي ، وكيف استغنى الفقير وتأهل العازب ... وأنت تنظر نظر المغشى عليه من الموت ... وكيف فارقنا بلادك ولا بقيت بها ماشية إلا وهى لدينا ماشية ولا جارية إلا وهى لدينا جارية ... وها نحن نعلمك بما تم ونفهمك بالبلاء الذى عليك قد عم رحلتنا عنك من طرابلس يوم الأربعاء الرابع والعشرون شعبان (كذا فى الأصل) ونزلنا

(١) يفهم من عبارة النويري : نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الثانى ورقة ٣٠٨ فى هذا الصدد، والمفضل : كتاب النهج السديد ص ١٧١ - ١٧٢ ، أن الحامية هى التى طلبت من السلطان أن يأخذهم أسرى . واليك نص عبارة النويري " ...وأما القلعة فاجتمع بها ثمانية آلاف مقاتل غير الحریم والأولاد فتحاشروا بها ولم يكن بالقلعة ماء يكفيهم فسيروا يوم الأحد ثانى يوم الفتح يطلبون الأمان من القتل وأنهم يؤخذون أسرى فالوقت طلع السلطان فصادف جميع من فى القاعة قد خرج إلى ظاهرها وعليهم الملابس الحسنة ؛ فاستغاثوا للسلطان فعفا عنهم من القتل وأحضرت الحبال فربطوا بها وتسلم كل أمير جماعة من الأسرى " . أما عبارة المفضل فلا تختلف اختلافا كبيرا فى ألفاظها ومعانيها عما ذكره النويري ، لذلك نكتفى بالإشارة إليها .

(٢) المقریزی : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٦٧

(٣) نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الثانى ورقة ٣٠٨ - ٣١١

(٤) كتاب النهج السديد ص ١٦٧ - ١٧١

(٥) عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٣٩ - ٥٤٢

بأنطاكية في مستهل رمضان . وفي حالة النزول خرجت عساكك الى المبارزة فكسروا وتناصروا فما نصرُوا ، وأسر من بينهم كند اسطبل فسأل في مراجعة أقرانك ودخل إلى المدينة وخرج هو وجماعة من رهبانك وأعيان أعوانك فتحدثوا معنا فرأيناهم إلى رأيك من إتلاف النفوس بالعرض الفاسد ... فلما رأيناهم قد فات فيهم الفوت وأنهم قد قدر الله عليهم بالموت رددناهم وقلنا نحن الساعة لكم نحاصر ... فرجعوا متشبهين بفعلك ومعتقدين أنك تدركهم بخيلك ورجلك ... وفتحناها بالسيف في الساعة الرابعة من يوم السبت رابع عشر رمضان ... وبعد هذه المكاتبة لا ينبغي لك أن تكذب خيرا كما أن بعد هذه المخاطبة يجب ألا تسأل غيرها مخبرا .

ولما تم لبيبرس فتح أنطاكية سلم قلعتها للأمير بدر الدين بيليك الخازندار والأمير بدر الدين بيدري الشمسي ، ثم أمر باحضار الغنائم وقسمها بين أفراد جيشه^(١) . وعلى أثارته من ذلك سار إلى القلعة وأشعل النار فيها فامتد لهيبها إلى أنحاء المدينة ؛ وبذلك تركها أثرا بعد عين^(٢) .

هزت كارثة أنطاكية جميع الصليبيين فهرب الفرنج الداوية ببغراس وتركوا الحصن خاليا ، فأرسل الظاهر قوة من جنده احتلت القلعة واستولت عليها ، ثم أعدها بالعدة والرجال ، وأصبحت منذ ذلك الوقت في عداد الحصون الإسلامية^(٣) . كذلك هال أمر هذه الحوادث سكان القلاع الصليبية الأخرى ورغبوا في موادة الظاهر كيلا ينالهم ما نال إخوانهم ؛ فطلبت إمارة طرابلس المفاوضات في الصلح ، وبدأت المفاوضات فعلا ؛ ورافق بيبرس سفراءه في زى خادم ليتعرف خباياها ويدرسها تمهيدا لمحاصرتها فيما بعد ، وكذلك عكاء — وهي البقية الباقية من دولة

(١) زاد على ذلك العيني : عقد الجان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٣٩٥ ، فقال إن ماخص بيبرس من غنائم أنطاكية أرصده لعارة الجامع الذي أنشأه بالحسينية بالقاهرة .

(٢) التويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ ورقة ٣١٢ و ٣١٩ — ٣٢٠ ؛ المقرئى : السلوك

ج ١ القسم الثاني ص ٦٨٥ (٣) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ٤ ص ٥

بيت المقدس — طلبت المفاوضة والصلح^(١) فقدمت رسل صاحبها إلى السلطان بدمشق على أثر عودته من أنطاكية وتفاوضت معه في هذا الأمر^(٢) . فتقرر عقد معاهدة بينهما على أن تكون بلاد عكا مناصفة بين بيبرس وصاحبها وأن تظل حيفا وصيداء على حالهما . غير أن هذه المواد عند ما عرضت بعكاء لإقرارها لم تصادف قبولا^(٣) .

أما بلاد صور فقد أثار عليها بيبرس قبل أن يعود إلى مصر في أواخر يولية سنة ١٢٦٨ م . وعلى الرغم من أنه كان من سياسته أن يوطد دعائم الصلح بينه وبين بعض المدن اللاتينية ، فإن البعض الآخر — كصور — لم يعط أية مهادنة . وقد زحفت الجيوش الإسلامية مرة أخرى في ربيع سنة ١٢٦٩ م على أراضي عكا وصور ، وساهم بيبرس بنفسه في هذه الحركات وتم ائان مع بيروت وما جاورها من البلاد^(٤) .

لم تفرهمة بيبرس الحربية عن مناوأة الصليبيين ، فكان يستولى على معاقلهم الواحد بعد الآخر رغم ما كان يصل إليهم من المدد من أوربا^(٥) . وكان السلطان ينظر دائماً إلى بوهمند السادس كأكب خصم له . والواقع أنه كان أقوى الأمراء الصليبيين ؛ فبعد أن نزع بيبرس منه أنطاكية عمداً إلى إتمام إسقاطه بالاستيلاء

(١) Stanley Lane-Poole: A History of Egypt in the Middle Ages, p. 269.

(٢) العيني : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٤٤ هـ

(٣) يفهم مما ذكره المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثالث ص ٥٧١ في هذا الصدد أن السلطان أرسل إلى صاحب عكا محبى الدين بن عبد الظاهر والأمير كمال الدين بن شيث ليحلفا صاحب عكا على هذه المعاهدة وكان معها هدية فيها عشرون نفسا من أسرى أنطاكية ، فلم يوافق على بعض موادها .

(٤) أورد العيني : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٤٩ و ٥٥٠ ، السبب الذى من أجله أثار بيبرس على مدينة صور ، فقال إنه عند ما خرج من دمشق بعساكره إلى الديار المصرية جاءت امرأة فى أثناء الطريق وأخبرته بأن ابناً لها دخل صور غدربه صاحبها وأخذ ماله ، فركب السلطان وشن الغارة على مدينة صور وغنم منها غنائم كثيرة .

(٥) Stevenson : The Crusaders in the East, p. 342.

(٦) Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 25.

على طرابلس . وكان من الضروري قبل استيلائه على تلك المدينة أن يستولى على الحصون الخارجية ، لذلك شرع في الاستيلاء على حصن الأكراد وبدأ في محاصرته في شعبان سنة ٦٦٩ هـ (فبراير سنة ١٢٧١ م) ، وظل المسلمون يحاصرون القلعة حتى تمكنوا من الاستيلاء عليها في ٣٠ مارس من السنة المذكورة ، واضطرت الحامية إلى ترك أسلحتها وتسليم القلعة ؛ فعاملهم السلطان معاملة حسنة وأمنهم على حياتهم وأطلق سراحهم .

غير أن بعض الفرسان الهوسبتاليين عادوا للحرب وصمموا على التضحية بحياتهم حتى يخرجوا المسلمين من القلعة ؛ فلم ير المسلمون بدا من إحضار آلات الحصار داخل القلعة ليكونوا على استعداد لهدم الملاجئ الأخير لهؤلاء الفرسان ، ورأى السلطان أن يستولى على بقية الحصن من غير أن يصيب تحصيناته خسائر كثيرة . لذلك أرسل إلى الحامية خطابا مزقورا^(١) على اعتبار أنه مرسل من رئيس الفرسان الهوسبتاليين يأمرهم فيه بتسليم الحصن . وكان من أثر ذلك أن فتح الهوسبتاليون باب المفاوضات مع السلطان ونظمت شروط التسليم . وفي اليوم التالي ساروا إلى طرابلس^(٢) .

وبعد أن تسلم بيبرس الحصن كتب إلى رئيس فرسان الاسبتار^(٣) وهو صاحب حصن الأكراد — كتابا هذا نصه : ” إلى (افرير أولك) جعله الله ممن لا يعترض

(١) ليس هناك في المصادر العربية ما يشير إلى أن بيبرس أرسل خطابا مزقورا لحامية حصن الأكراد . ونحن نستبعد ذلك على بيبرس . ولو أن هذه الواقعة كانت حقيقية لأشار إليها Stevenson, Muir لا سيما وأن Muir خاصة كثيرا ما ينحى باللائمة على بيبرس في بعض موافقه . وقد أجمعت المصادر الأخرى على أن أهل قلعة حصن الأكراد لما غلبوا على أمرهم سلموا القلعة وطلبوا الأمان فأمّنهم السلطان وأطلق سراحهم ثم رحلوا إلى طرابلس .

(٢) King : The Knights Hospitallers in the Holy Land p. 270

(٣) كان رئيس فرسان الاسبتار في هذه السنة . Hugh Revel . King: Op. Cit p. 271

(٤) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٩٦ ؛ العيني : عقد الجمان

على القدر ولا يعاند من سخر لجيشه النصر والظفر، ولا نعتقد أنه ينبغي من أمر الله بالقدر ولا يحمي منه محجور البناء ولا مبنى الحجر. نعلمه بما سهل الله من فتح حصن الأكراد الذي حصنته وبنيت وخايتسه وكنت الموفق لو أخليتته واتكلت في حفظه على اخوتك فما نفعوك، وضيعتهم بالإقامة فيه فضيعوه وضيعوك. وما كانت هذه العساكر تنزل على حصن وتبقى أو تخدم سعيدا وتشقى“ .

وأمام هذا الهجوم المتواصل حسبت بقايا الصليبيين أن الصلح والاستكانة خير ما تستطيع أن تكسب . فلم يكذب بيبرس ينتهي من حصن الأكراد حتى سارع مقدم الداوية بأنطرسوس إلى طلب الصلح وبعث مفاتيح حصنه إلى السلطان، فصالحه على أن يرسل إليه نصف ما يتحصل من غلال بلاده. وعين واليا من قبله على هذه البلاد. كذلك قدمت إليه رسل الاسبتار بحصن المرقب تطلب الصلح، فتعاهد معهم على مثل ما تعاهد به مع الداوية بأنطرسوس، وقرر أن تكون الهدنة بينه وبينهم لمائة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام^(١) .

ولما تم لبيبرس الاستيلاء على حصن الأكراد رحل إلى حصن عكار^(٢)، وبدأ هجومه عليه في ١٧ رمضان سنة ٦٦٩ هـ (٢٩ إبريل سنة ١٢٧١ م) وشدّت عساكره الحصار . وحين رأى سكان الحصن ألا طاقة لهم بقتال جيش بيبرس طلبوا الأمان ؛ فلبى السلطان طلبهم وأمنهم على حياتهم^(٣) . وبذلك تمكن من الاستيلاء على هذا الحصن ثم استعدّ ليهاجم طرابلس بنفسه . ولكن أخبار

(١) مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١٨٩ — ١٩٠

(٢) يقع شمالي طرابلس وهو مبني على جبل بنفس الاسم .

Le Strange: Palestine Under Moslems pp. 80, 390.

(٣) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٩٧

قدوم الأمير ادوارد^(١) وبعض الصليبيين الى عكا في ٩ مايو سنة ١٢٧١ م جعلته يرضى بعقد الصلح^(٢).

على أن بيبرس قد شرع فعلا في مهاجمة طرابلس ، فأحاطت عساكرها وشددت الحصار عليها ، فأرسل اليه أميرها بوهمند السادس يقول له : ” ما مرادك أيها السلطان في هذه الأرض ؟ “ . فقال : ” جئت لأرعى زرعكم وأحرب بلادكم ثم أعود الى حصاركم في العام الآتي “ . فأرسل اليه أمير طرابلس يستعطفه ويطلب منه عقد الصلح^(٣) ، فسير اليه السلطان الأمير فارس الدين الأتابك والأمير سيف الدين بلبان الرومي الدوادار بمقترحات لعقد الصلح ، فامتنع بوهمند عن قبولها وعزم على مواصلة القتال وقال للأمرين : ” إن السلطان لما أخذ أنطاكية مني بالسيف كان عذرى مبسوطة عند الفرنج ، ولما قصد حصن عكار فطلب (كذا في الأصل) مني أن أنزل عن نصف بلادى ، فلم أجد خوفا من الفرنج أن يعيروني بتسليمي البلاد من غير حرب وقتال وأنا أعلم أنى لا أقدر به ، لكننى لا يحسن بي أن أسلم اليه البلد من غير قتال حتى لا يكون على عتب من ملوك الفرنج “ . فعاد الأمير سيف الدين الى السلطان وأخبره بذلك ، فرأى أن يعامله بالحسنى ويتفق معه على أن تكون له عرقة وجبيل وأعمالها . أما ساحل أنطرسوس والمرقب وبانياس فتكون مناصفة بين

(١) هذا الأمير هو الذى أصبح فيما بعد ملكا على إنجلترا باسم (Edward I) . وقد أبحر من Southampton في أغسطس سنة ١٢٧٠ م ، وبصحبه ثلاثمائة فارس وثلاثة عشر مراكبا ؛ فلما وصل الى سردينيا سمع بوفاة لويس التاسع ملك فرنسا الذى كان قد أبحر الى تونس على رأس حملة صليبية ، فأبحر الأمير ادوارد الى قرطاجنة ووصل الى معسكر الصليبيين بعد إمضاء الهدنة بين الصليبيين وملك تونس . ولم يعجب هذا الأمير اختتام هذه الحملة الصليبية على هذا النحو الذى انتهت إليه فانصرف الى صقلية حيث قضى فيها الشتاء ثم أبحر فى الربيع الى عكا . King: The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 268.

(٢) Stevenson, Crusaders in the East, p. 343 ; King, The Knights

Hospitallers in the Holy Land, p. 271.

(٣) المبنى : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٦٦ هـ

السلطان والداوية والاسبتارية، فرفض بوهمند أيضا هذه الشروط، فما كان من السلطان إلا أن صمم على ما اشترطه عليه أولا، فلم ير بوهمند السادس بدا من ذلك الصلح وتهادن معه لمدة عشر سنوات .

ولما تمت هذه المهادنة توجه صاحب طرابلس الى أبغا ملك التتار يستصرخه على المسلمين، وذكر له ما فتحه بيبرس من البلاد والحصون فأمر به فضرب بين يديه . وقال له : أنت ما جئت إلا لتخوفني منه وتنقرني عنه وتملاً قلوب عسكري رعباً^(١) .

وهكذا تم للظاهر الكثير من رغباته وآماله من الصليبيين الذين كان يبذل جهده على استخلاص البلاد الشامية كافة منهم وضمها الى حوزته . وكانت هذه المهادنة المعقودة بينه وبين أمير طرابلس خاتمة أعماله الجدية معهم وإن كانت المناوشات بينه وبينهم قد ظلت قائمة حتى أواخر أيامه . ففي أوائل يونية سنة ١٢٧١ م كان مركز قيادة بيبرس بصفد فسار منها إلى حصن القرين^(٢) وهاجمه حتى استولى عليه في ١٢ يونيه . ولما رأى أهله ألا طاقة لهم بملاقاة

(١) مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١٩٢ - ١٩٥

(٢) مدينة في جبال عاملة (وهي من جبال لبنان) المطلة على حصن . ياقوت : معجم البلدان .

(٣) يقع هذا الحصن بالقرب من صفد ويسمى أيضا Montfort أو Starkenburg

King: The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 271

وقد ذكر مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١٩٧ - ١٩٩ : أن بيبرس لما دخل القرين قدم اليه رسولا صاحب قبرس وطرابلس وتحدثا معه في الجلاء عن هذا الحصن . فقال له رسول صاحب طرابلس : " البرنس غلام السلطان وقد شفع عندك في هذا الحصن وسألك أن ترحل عنه " فقال السلطان : " كلامه عندي مقبول ، ولو جاءني رسوله قبل نزولي عليه ما خالفته . وقد نزلت عليه ولا يمكنني الرحيل عنه " . ثم تحدث معه رسول صاحب قبرس فقال : " صاحب قبرس سيرني لأتظر إلى السلطان هل رحل أم لا ؛ فإنه بلغه أن العساكر تقدمت إلى مصر " . فقال السلطان : " رحلت من عسكري الأتقال والضعفاء ، ثم قال : فهل لم يسألك حاجة نقضها له فإنه عندنا ضيف ؟ " فقال الرسول : " لم يأمرني بشئ " . ثم مضى وعاد فقال : " حاجته عندك أن تدفع له بلبك ونابلس " ، فقال له السلطان : " إنا نأخذ منكم حصونكم أولا فأزل وتطلبوا مني حصوني ؟ " .

(٤) Stevenson: The Crusaders in the East, pp. 343-344.

المسلمين طلبوا الأمان فأمّنهم السلطان وقزر نروجهم إلى حيث شاءوا على ألا يستصحبوا معهم مالا ولا سلاحاً^(١). ثم سار السلطان إلى أبواب عكا، ولم يلبث بعد ذلك أن عاد إلى القرين وأمر بهدم قلعتها فهدمت^(٢).

وفي هذه الأثناء كان الأمير إدوارد لا يزال بعكا وقد تمكن من إعداد قوة يتراوح عددها بين ستة آلاف وسبعة آلاف جندي؛ فرأى بيبرس من جهته أن يعمل على منع بارونات جزيرة قبرس من الانضمام إليه، فأرسل أسطولا إلى هذه الجزيرة للإستيلاء عليها؛ غير أن هذا الأسطول مالبت أن حطمته عاصفة عند شواطئها. وفي شهر يونية من سنة ١٢٧١ م تقدم الأمير إدوارد وهو ملك قبرس إلى الناصرة، وكانا يأملان من ذلك أن يرغما بيبرس على رفع الحصار عن حصن القرين، غير أن أملهما هذا لم يتحقق، فاتهنز إدوارد فرصة عودة السلطان إلى مصر في شهر يولية من هذه السنة وأغار على الرملة واللد^(٣).

ولم يمض على هذا الحادث وقت طويل حتى قام الصليبيون في عكا بإغاثة أخرى على البلاد المجاورة لفاقون^(٤) (Kakun) عند ما كان السلطان منشغلا بصدد غارة التتار في نوفمبر من السنة المذكورة؛ فسير إليهم الأمير أقوش الشمسي فردّهم على أعقابهم وأسر منهم عشرين فارساً^(٥).

وعلى الرغم من أن النصر كان حليف بيبرس في جهات عكا وصور فإنه سارع إلى تلبية طلبات الصلح لعدم انقطاع المدد الحديد من أوروبا ولرغبته في التفرغ لصد غارات المغول الذين تحركوا هذه السنة وغزوا شمال الشام. فاتفق مع رسل صاحب

(١) بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ - ورقة ٩٩

(٢) النويرى: نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الثاني ورقة ٣٣٢

(٣) King: The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 272.

(٤) Stevenson: The Crusaders in the East, p. 344. — وقاقون حصن فلسطين

بالقرب من الرملة. ياقوت: معجم البلدان.

(٥) مفضل بن أبي الفضائل: كتاب النهج السديد ص ٢٠٤ - ٢٠٥

صوّر على تقسيم بلادها بينه وبين الفرنجة^(١)، وعقد الصلح مع ملك قبرس وحامل لقب بيت المقدس لمدة عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام^(٢)

يتجلى لنا من هذه الحوادث والغارات المتتابعة أن الظاهر كان في كل غزواته للصليبيين ينتصر عليهم ويهزم جيوشهم ويستولى على حصونهم ومدنهم وأحدّة تلو أخرى . ولم نرهم في أية موقعة نالوا منه شيئاً أو كتب لهم النصر عليه . وأسباب ذلك لا تخفى على الباحث إذا ما جال ببصره مدققاً في حالة هؤلاء الصليبيين وما كانوا عليه من أخلاق وعادات أثناء إقامتهم بهذه الديار التي حلوا بها وقتلوا عليها مدة قرنين من الزمان أريقت خلالها دماؤهم وضاعت أموالهم وبذلوا في سبيلها كل مرتخص وقال . ومن أهم الأسباب التي أدت إلى هزيمتهم وسقوط مدنهم وضياع شوكتهم في البلاد الشامية حتى آل أمرهم في نهاية حكم بيبرس إلى الانكماش والانزواء في حصن أو حصنين :

(أولاً) كان هؤلاء الصليبيون رغم اتحادهم في الدين متنافسين متحاسدين ، قد استحكمت بينهم أسباب الشقاق والنزاع ، وذلك مما كان يؤدي إلى فشلهم في حروبهم .

(ثانياً) لم يكن لهم حاكم مسيطر على جميع مدنهم يعترف له الجميع ويدينون له بالطاعة ، ولم توجد بينهم سلطة عامة تحفظ النظام وتعمل على توحيد كلمتهم وضم صفوفهم مما دعا إلى تشتت أهوائهم وتنازع رغباتهم وانصرافهم عن السبب الذي من أجله جاءوا إلى هذه الأصقاع النائية عن أوطانهم .^(٣)

(١) وضع المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٥٩٥ هذا الاتفاق فقال إنه تقرّر أن يكون للفرنجة من بلاد صور عشرة بلاد ويكون للسلطان خمسة بلاد يختارها والبقية تكون مناصفة بينهم وبينه .
Stanley Lane-Poole : A History of Egypt in the Middle Ages, (٢)
p. 269.

Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt (٣)
(Introduction) pp. XXX - XXXI.

(ثالثا) كانت مصالحتهم متشعبة لاختلاف بلدانهم التي أتوا منها إلى تلك الديار. وقد تجلّى هذا الأمر في الفرسان المختلفين، وكثيرا ما كان يقاتل بعضهم بعضاً^(١). وفي هذا من إضعاف شوكتهم ونصرة عدوّهم ما لا يخفى.

(رابعا) نقض الصليبيين العهود التي كانت بينهم وبين المسلمين وامتناعهم عن تسليم بعض المعاقل.

(خامسا) مخالفة الصليبيين لهولاكو زعيم التتار الذين كانوا يترقبون اعتناقهم للمسيحية فيقوى كلاهما على منازلة المماليك في مصر ومهاجمة بلادهم. وقد كان تحالف الصليبيين مع تتار فارس سببا في تحالف الظاهر مع بركة خان رئيس القبيلة الذهبية التتارية، وكلاهما مسلم يناصر أخاه على أعدائه على ما سنوضحه فيما بعد.

هذه هي أهم الأسباب التي أدت إلى فشل الصليبيين في غزواتهم وهزيمتهم في حروبهم. وقد يكون من الميسور نجاحهم لو تولى قيادتهم أمير يعترفون بسلطانه. ولكن الانقسام وتضارب المصالح مزقا شملهم، فكان الفشل المحتوم نصيبهم.

(ب) غزوة جزيرة قبرس :

كان أهل قبرس كثيرا ما يمدّون الصليبيين ببلاد الشام بالمال والرجال. ولا عجب في ذلك فهم أهل ملة واحدة يجمعهم دين واحد. فليس غريبا إذن أن يقوم هؤلاء القبرسيون بمساعدة إخوانهم في الدين، ولا سيما أنهم كانوا جميعا من الفرسان المتعصبين لدينهم المتحمسين ضد أعدائهم المسلمين. وكانوا لهم رداء كلما داهمهم خطر من الأخطار، بل كانوا واسطة اتصال بينهم وبين مواطنيهم من أهل أوروبا.

لذلك نرى بيبرس بعد إغارته على الصليبيين بحصن القرين يرسل أسطولا لمحاربة قبرس التي ساعدت عكاء مساعدة جديّة^(٢). وكان أهلها لما نزل السلطان على حصن

Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, (١)

Sir William Muir, Op. Cit. p. 28. (٢)

(Introduction) p. XXIX

الأكراد قد سيروا إلى صاحب قبرس يطلبون منه النجدة، فخرج إليهم في عثة
مراكب، فهاج عليهم البحر وحطم ستين مركبا وتابع ما بقي منها السير إلى عكا^(١)؛
فأراد بيبرس أن يغتم هذه الفرصة فأصدر أوامره بتجهيز المراكب وتسفيرها إلى
قبرس، فغادرت المياه المصرية سنة ٦٢٩ هـ (١٢٧١ م)؛ غير أن عاصفة شديدة هبت
عليها بالقرب من الجزيرة فحطمت منها أحد عشر مركبا عند نهر النسيون
(Limassol). ولما علم بذلك أهل قبرس انقضوا عليها وأسروا من كان بها
من المسلمين^(٢).

لم يلبث بعد ذلك السلطان أن قدم إليه رسول صاحب قبرس يخبره بما حدث
لأسطوله، إذ قال له: "إن صاحبي يسلم عليك ويقول لك قد أخذت مراكبك"،
فقال السلطان: "قل له لا تفرح فما أخذها إلا بسيفي، ولو سلموا المراكب لأخذوا
جزيرته بحول الله وقوته. وقد أخذت في سفرتي هذه أربعة عشر حصنا. ولا شك
أن العين لها حق والحمد لله الذي فدى عسكري بالملاحين والعوام وأرجو من الله
تعالى تعويض ذلك"^(٣).

لم يكتب بيبرس بما قاله لهذا الرسول، بل أرسل إلى صاحب قبرس كتابا
جاء فيه: "إلى حضرة الملك (أوك) جعله الله ممن يوفى الحق لأهله ولا
يفتخر بنصر إلا إذا أتى قبله أو بعده بخير منه أو مثله. نعلمه أن الله إذا أسعد
إنسانا دفع عنه الكثير من قضاائه باليسير وأحسن له بالتدبير فيما جرت به المقادير.
وقد كنت صرقتنا أن (الهواء) كسر غدة من شوانينا ونحن الآن نبشره بفتح
القرين، وأين البشارة بتملك القرين من البشارة بما كفى الله ملكتنا من العين.
وما العجب أن يفخر بالاستيلاء على حديد وخشب، الاستيلاء على الحصون الحصينة

(١) مفضل بن أبي الفضائل: كتاب النهج السديد ص ١٩٧

(٢) بيبرس الدردار: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٩٩؛ العيني: عقد الجمان للمجد

الثالث ورقة ٥٦٤

(٣) مفضل بن أبي الفضائل: كتاب النهج السديد ص ٢٠٠

هو العجب ... وما النصر بالهواء ملبح إنما النصر بالسيف هو الملبح وإن عدت من بحرية المراكب أحاد فعندنا من بحرية المراكب ألوف ... وأتم خيولكم المراكب ونحن مراكبنا الخيول ... فائن كتم أخذتم لنا قرية مكسورة فكم أخذنا لكم من قرية معمورة، وإن استوليتم على سكان فكم أخذنا بلادكم من سكان، وكم كسبت وكسبنا فيرى أينما أغتم . ولو أن في الملك سكونا كان الواجب عليه أنه سكت وما تكلم^(١) .

لم تفرهمة الملك الظاهر بعد انهزام أسطوله ، بل شرع في إنشاء أسطول آخر^(٢)؛ غير أنه لم يعاود الكرة في مهاجمة جزيرة قبرس لإنشغاله بحاربة الصليبيين والمغول . وقد تمكن في سنة ٦٧٣ هـ من تخليص الأسرى المسلمين الذين أسروا بقبرس ، فأرسل الرسل إلى صور لا يتياهم ، فتغالى الفرنجة في بيع الرؤساء وباعوا الثوار والرامة لطائفة منهم ؛ فلم يرببرس بدا من إغراء الموكلين بحراستهم بالمال فأطلقوا سراحهم وساروا إلى القاهرة . فلما علم بذلك الفرنجة بعكاه قامت القتنة بينهم^(٣) .

(ج) قضاء بيبرس على نفوذ طائفة الاسماعيلية ببلاد الشام :

كان يقطن ببلاد الشام في الوقت الذي عمل فيه بيبرس على مناوأة الامارات اللاتينية في الشرق طائفة من الاسماعيلية حاول صلاح الدين عبثا القضاء عليها وظلت

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٩٩ - ١٠١
(٢) المقرزي : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٦١٥ (٣) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر، ج ٤ ص ٦ (٤) الاسماعيلية هي فرقة من الشيعة عرفت أيضا بالسمعية لأن أصحابها اعتبروا الإمامة منتهية عند الإمام السابع وهو إسماعيل بن جعفر الصادق المتوفى بالمدينة سنة ١٤٣ هـ في حياة أبيه . وقد أصاب أتباع تلك الفرقة كثير من الضرر والأذى على يد خلفاء الصدر الأول من الدولة العباسية ، فلبسوا الجهات البعيدة عن مركز الخلافة .

وقد أسس حسن بن الصباح المتوفى سنة ٥١٨ هـ شعبة أخرى من الاسماعيلية عرف أتباعها باسم الحشاشيين (Assassins) كان موطنها قلعة الموت (Alamut) في الشمال الغربي من بلاد فارس ، ثم تفرع من هذه الشعبة فرع آخر بالشام مركزه الأول حلب . Ismailiya و Enc. Isl. Arts: Assassins وهذا الفرع الشامي هو الذي حوّل بيبرس وجهته إليه واستولى على حصونه كما سنرى فيما بعد .

بعد وفاته تمتع بنفوذ كبير اضطر إزاءه الصليبيون الى ممالأة هؤلاء الاسماعيلية^(١)، وتعدى الأمر ذلك فأصبح ملوك الفرنجة يخشون بأسهم ويعملون على اتقاء شرهم بالهدايا التي كانوا يرسلونها اليهم والتي رأى بيبرس أن يفرض رسوما عليها ليقلل بذلك من شأنهم عند هؤلاء الملوك^(٢).

على أن هذه الطائفة لم تلبث أن ضعف نفوذها وانحازت الى جانب الصليبيين. ولم يقتصر الأمر على ذلك بل دخلت تحت حماية الفرسان الهوسبتاليين، وظلت منذ ذلك الحين تدفع لهم جزية سنوية حتى عقد بيبرس هدنة مع صاحب حصن الأكراد والمرقب سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٧ م) اشترط عليه فيها أن يمتنع هؤلاء الفرسان عن أخذ الجزية التي كانت تدفعها لهم طائفة الاسماعيلية وأمرأه حماه وشيزر وأفامية^(٣). وصارت رسل الاسماعيلية منذ ذلك الوقت تفد على السلطان مزودة بالأموال التي كانوا يحملونها من قبل للفرنجة^(٤).

ولما رأى نجم الدين الشعراني صاحب قلاع الاسماعيلية أن الأموال التي يقدمها لسلطان مصر كثيرة أرسل اليه يستأذنه في إنقاصها. وكان بيبرس في ذلك الوقت مستاءا منه لأنه لم يفد اليه عندما نزل بالقرب من بلاد الاسماعيلية، فأمر بعزله هو وولده وقلد صارم الدين مبارك بن الرضى صاحب العليقة^(٥) بلاد الدعوة الاسماعيلية على أن تكون مصياف^(٦) وبلادها خاصة بالسلطان؛ ثم أرسل جيشا اليها بقيادة الأمير

(١) Stanley Lane-Poole, p. 270.

(٢) العيني : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٢٩ ؛ المقرئى : السلوك ص ٤٤٣

(٣) King: The Knights Hospitallers in the Holy Land p. 262; Steven-

(٤) son : The Crusaders in the East p. 340. المقرئى : السلوك ص ٥٥٧

(٥) إحدى حصون الإسماعيلية بالشام .

(٦) إحدى حصون الاسماعيلية بالشام وهي واقعة على الساحل قرب طرابلس وعلى مسيرة يوم من

حصن . ياقوت : معجم البلدان p. 507 Le Strange : Palestine under Moslems,

عز الدين العديمي فامتنع أهلها عن تسليمها. أول الأمر ، ولم يبشوا بعد ذلك أن
فتيحوا له أبوابها عندما علموا أنه نائب السلطان ، وتمكن بذلك من الاستيلاء عليها ،
فلم يرتجم الدين وولده بدا من الدخول في طاعة بيبرس ، فطلباً منه السماح لهما بالحضور
بين يديه فأجابهما السلطان الى طلبهما . وعندما قدم اليه نجم الدين ولاء حصون
الاسماعيلية بالاشتراك مع صارم الدين وقرر عليه أن يدفع له كل عام مائة وعشرين
ألف درهم ، كما قرر على صارم الدين أن يدفع له ألف دينار^(١) . ثم أخذ السلطان بعد
ذلك (١٢٧٠ - ١٢٧٣ م) يستولى على حصون الاسماعيلية الواحد بعد الآخر^(٢) ،
وانتهى الأمر بأن تخلوا عن قلاعهم ، فأقطعهم بيبرس في مقابل ذلك بعض الأراضي
المصرية ليستوطنوها . فكان في هذا القضاء على قوتهم التي شغلت الظاهر وجيشه
ردحا من الزمن . ومن العجيب في أخلاق بيبرس أنه بعد إجلالهم عن مواطنهم
الى الديار المصرية استخدمهم في قضاء أغراضه^(٣) .

(د) علاقة بيبرس بالمغول :

١ - مغول فارس :

لم ينس المغول ما حل بهم في موقعة عين جالوت ، فظاؤوا يوالون الزحف والإغارة
على البلاد الشامية وغيرها . فرأى بيبرس أن يتخالف مع بركة خان سلطان مغول

(١) التويرى : نهاية الأدب ج ٢٨ القسم الأول ورقة ٢٥٤ - ٢٥٥ ؛ المقرئى : السلوك

ص ٥٨٦ - ٥٨٧ .

(٢) Stanley Lane-Poole, p. 270. وقد أورد المقرئى : السلوك ص ٦٠٨ ، عند كلامه

على حصون الاسماعيلية ، أن بيبرس على أثر استيلائه عليها أقام بها شعائر الإسلام وشرايعه .

(٣) Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 27.

(٤) كان بركة خان أول من أسلم من أمراء المغول . ولم يكن على وفاق مع هولاء . ويرجع ذلك
اعتد أسباب منها أن بركة خان لم يرض بما فعله هولاء كويلاد المسلمين فعنفه لقتله الخليفة المستعصم ، كذلك
لم يرق في عينه تأسيس دولة هولاء كوفارس لا سيما بعد إدراج بلاد آران وأذربيجان داخل حدودها مع
أنهما كانتا من إرث جوشي أبي بركة حسب وصية جنكوز خان (Enc. Isl. Art. Berke) . وهناك سببان
آخران لهذه العداوة التي كانت بين بركة وهولاء كوفارس ، أولهما عدم مظاهره بركة للخان الأعظم قوبلاي

القفجاق ضد اياخانات فارس ؛ غير أنه لم يعتمد كل الاعتماد على هذا التحالف بل ضرب الطرق والوديان المؤدية الى الشام حتى لا يجد المغول اذا تقدموا ما يحتاجون اليه من الميرة^(١)، كما أن هولاء كوتحالف مع المسيحيين في الشرق وبخاصة مع ملك أرمينية والصليبيين لكي يقوى بذلك على صد هجمات بركة خان وسلطان المماليك بمصر^(٢).

وقد كان لكل من التتار والصليبيين غاية يرمقونها من وراء هذا التحالف. فالتتار أرادوا تقوية جانبهم بانضمام هؤلاء المسيحيين إليهم في الحروب ضد الدولة التي هزمتهم بالشام — وهي مصر — وردتهم على أعقابهم إلى بلاد فارس ووقفت لهم بالمرصاد أمام فتوحاتهم وسيرهم في غزوهم . والصليبيون لم ينسوا الأمر الذي من أجله احتلوا المدن الشامية ، كما لم ينسوا ذلك العداة الديني بينهم وبين المسلمين ، فأرادوا هم أيضا أن يستميلوا إليهم التتار الذين كانوا يطمعون كثيرا في اعتناقهم المسيحية ليكونوا جميعا يدا واحدة على أعدائهم المسلمين شاميين ومصريين .

ولم تكن حالة المغول مما تجعل سلطانا كالظاهر يطمئن على بلاده في الوقت الذي كان يرمى فيه إلى تكوين امبراطورية واسعة الأطراف متحدة الأواصر . ولذلك كانت الحروب بينهم وبين بيبرس متواصلة ، ولم ينقطع عن مطاردتهم من الولايات التي كانوا يغيرون عليها كلما سنحت لهم الفرص بذلك .

ففي سنة ٦٦٣ هـ (١٢٦٥ م) وصل إلى الظاهر أن التتار أغاروا على البيرة وحاصرها ونصبوا عليها المجانيق ، فجهز جيشا لمحاربتهم بقيادة الأمير عز الدين إيفان

= وانتصاره لأخ صغير له اسمه (Arigha-Buga) ؛ فاعترف بركة بهذا الأخ الصغير خانا أعظم على جميع بلاد التتر ، وثانيتها أن هولاء كومنذ أن صار بركة ملكا على مغول القفجاق (١٢٥٦ — ١٢٦٧ م) منع عن ذلك الفرع المغولي نصيبه المعتاد من مغنم الحرب . (وكان المعتاد أن يجمع التتر ما يحصل من البلاد التي يستولون عليها ويقسموه خمسة أقسام : قسمان للخان الكبير ، وقسمان للعسكر ، وقسم لبيت باتوخان ببلاد القفجاق) مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١٠١ — ١٠٣

Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, (١)

p. 266.

Sir Thomas Arnold, The Preaching of Islam p. 226. (٢)

الملقب بسم الموت ، ثم سار على أثره إلى أن وصل إلى غزوة . وهناك علم أن عساكره لما قدمت البيرة وأشرفت عليها ولى التار هار بين وتر كوا وراءهم عددهم وأثقالهم طعممة سائغة لخنده .^(١)

لم يلبث السلطان بعد ذلك أن أمر بعمارة منخرب من البيرة وبجمل آلات القتال إليها من مصر والشام وباعداد كل ما يحتاج إليه أهلها في الحصار لمدة عشر سنين . ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل كلف بعض الأمراء وصاحب حماة بأن يقيموا على البيرة حتى يخلى الخندق من الحجارة التي رماها التار فيه . وبينما هو منشغل بهدم سور قيسارية ورد إليه كتاب من هؤلاء الأمراء ذكروا فيه ما لقوه من شدة وعناء في إخلاء ذلك الخندق ، فكتب إليهم : "إنا بحمد الله ما خصصنا عنكم براحة ولا دعة ولا أتم في ضيق ونحن في سعة ، ما هنا إلا من هو مباشر الحروب الليل والنهار وناقل الأحجار ومرابط الكفار وقد تساوينا في هذه الأمور وما ثم ما تضيق به الصدور"^(٢) .

وهذه الكلمات تعطينا صورة واضحة عن اشتغال بيبرس وجيوشه برد الإغارات التي كانت تتوالى على نواحي متعددة من بلاده ، كما تبين لنا ملاحظته لأمرائه وتشجيعه لمن تدمر منهم وظنوا أنهم جهدوا وحدهم في غزوهم ، وأن غيرهم من بقية الجيش لا يبالغون من العناء مثل ما يلقون ، كما يتضح لنا أيضا ما تنطوى عليه نفسية هذا الملك من الجهد في محاربة المغول والصبر على جهادهم حتى تم أمانيه ويريح بلاده من غاراتهم وإفسادهم في الأرض .

وهكذا ظل المغول في فارس يناضلون المماليك حتى مات هولاكو سنة ٦٦٣ هـ (١٢٦٥ م)^(٣) وخلفه ابنه أباقا الذي سار على سياسة أبيه في مناوأة المماليك ومصادقة

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٩٠ .

(٢) المقریزی : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٥٢٥ .

(٣) اختلف المؤرخون في اليوم الذي توفي فيه هولاكو ، ففي أبي الفدا : المختصر في أخبار البشر ج ٤ ص ٢ أنه مات في تاسع عشر ربيع الآخر ، وفي مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١٤٥ ص ٢٤ ربيع الآخر ؛ وفي المقریزی : السلوك ص ٥٤٤ ، Enc. Isl. Art Hulagu أنه توفي في يوم الأحد التاسع عشر من شهر ربيع الآخر . (٤) ورد هذا الاسم في المصادر العربية أباغا ، أبغا .

الصلبيين ؛ فقد تزوج من ابنة امبراطور القسطنطينية (Michael Palaeologus) ؛ ومن ثم كان يعطف على المسيحيين . غير أن علاقته بالبابوات والملوك المسيحيين في أوروبا كانت سياسية أكثر منها دينية ، فكان يرسل كلمنت الرابع (Clement IV) الذي كتب إليه كتابا سنة ١٢٦٧ م ، كما راسله جريجورى العاشر (Gregory X) عام ١٢٧٤ م ونيقولا الثالث الذى أرسل إلى أباقا سفارة مؤلفة من خمسة من الرهبان الفرنسيسكان عام ١٢٧٨ م . وكان الغرض الأساسى من تلك المفاوضات هو تنظيم حملة مشتركة ضد المماليك في مصر وسورية الذين لم تلن قناتهم بعد ، وكانوا أعداء ألداء للغول . أما الغرض الذى كان يسعى إليه المسيحيون من هذا الحلف فهو الاستيلاء على الأراضى المقدسة التى جاهدوا من أجلها سنين عدة ^(١) .

على أن بيبرس قد تمكن من دفع ذلك الخطر المشترك الذى كان يهدد الدين والبلاد فهزمت جيوشه جند هولاء كالمغولية ، وسنرى أنها واصلت انتصارها على جند ابنه أباقا الذين كانوا ينتهزون فرصة اشتغال الظاهر بحاربة الصليبيين ويغيرون على بلاده وقد حدث ذلك سنة ٦٦٤ هـ (١٢٦٦ م) أثناء قدومه من مصر إلى غزة ورحيله منها إلى صنفد إذ أغاروا على الرحبة ، غير أنهم ^(٢) بالبشا ان ارتدوا عنها كما أسلفنا .

وعلى الرغم من أن العداة كان مستحكما بين المغول والمماليك في ذلك الوقت ، فقد فكر أبغا في سنة ٦٦٧ هـ في عقد صلح مع الملك الظاهر وتوسط له في ذلك صاحب سيس ، إذ أرسل لبيبرس عندما قدم إلى أرسوف في هذه السنة كتابا يبنئه فيه بأن رسول أبغا يود مقابله ، فبعث السلطان أميرا من حلب ليحضره إليه ورحل من أرسوف إلى دمشق ؛ وهناك وفد عليه الرسول وأعطاه تاب أبغا وقد جاء فيه :
 "إن الملك أبغا لما خرج من الشرق تملك جميع العالم وما خالفه أحد ومن خالفه

(١) Browue, A Literary History of Persia Vol. III pp. 18-19

(٢) بلدة واقعة على نهر الفرات .

هلك وقتل . فأنت لو صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ما تخلصت منا،
فالمصلحة أن تجعل بيننا صلحا^(١) .

غير أن هذه الرغبة في عقد الصلح لم تلق قبولا لدى بيبرس إذ قال لرسول أبغا:
”أعلم أنى وراءه بالمطالبة، ولا أزال أتترع من يده جميع البلاد التي استحوذ عليها من
بلاد الخليفة وسائر أقطار الأرض“^(٢) . ولم يلبث التتار بعد ذلك أن اتفقوا مع
الصلبيين في السنة التالية على الاغارة على بلاد الشام — وكان السلطان إذ ذاك مقيا
بالأسكندرية — فلما علم بذلك قدم إلى قلعة الجبل، فوردت عليه الأخبار بأن التتار
أغاروا على الساجور^(٣)، فسير الأمير علاء الدين البندقدار إلى بلاد الشام على رأس جيش
كبير لمحاربتهم . وسار السلطان ومعه فريق من جنوده . ولما وصل إلى دمشق
بلغه أن التتار ارتدوا وولوا منهزمين^(٤) .

غير أنهم عاودوا الكرة في سنة ٦٧٠ هـ فأغاروا على عين تاب وعمق الحارم —
وكان الظاهر إذ ذاك مقيا بدمشق — فلما رأى جدهم في إغارتهم، أرسل إلى مصر
يستدعي الأمير بدر الدين بيسرى الشمسي وثلاثة آلاف فارس لطردهم إلى
بلادهم . وعند ما وصل البيسرى إلى دمشق سار السلطان بالعساكر إلى حلب،
وأرسل إلى كل من مرعش وحران والرهاء فريقا من جيشه على رأسه أحد الأمراء^(٥) .
وسار السلطان إلى مصر لمبا علم بإغارة الصليبيين على قاقون، وظل أمراؤه يحاربون
التتار حتى استولى الأمير علاء الدين طيبرس الوزيري على حران، ثم عبر الفرات وعاد
إلى مصر، فاتهمز التتار فرصة غيابه وقدموا إليها وهدموا أسوارها^(٦) .

(١) المقریزی : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٥٧٤

(٢) العيني : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٤٩

(٣) نهر بججات منبج بالقرب من حلب وتقع عليه عين تاب وتل باشر . ياقوت : معجم البلدان

• Le Strange : Palestine Under Moslems. pp. 42, 406, 415, 527

(٤) المقریزی : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٥٨٤

(٥) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ١٠٤ — ١٠٥

(٦) مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢٠٤ — ٢٠٦

لم يلبث الظاهر بعد ذلك أن عاد إلى بلاد الشام ونزل بمروج قيسارية حيث تهادن مع الصليبيين بعكاء، ثم رحل إلى دمشق فحضرت إليه رسل التتار تطالب الصلح فأكرم وفادتهم وأرسل معهم هدية لأبغا^(١).

وعلى الرغم من هذه السياسة الودية التي اتبعتها بيبرس إزاء سلطان المغول في فارس، فإنه بلغه في العام التالي (٥٦٧١هـ) - وهو ببلاد الشام - أن التتار قصدوا الرحبة وتقدموا منها إلى البيرة، فتوجه إليهم على رأس جيش كبير وأخذ معه عشرة مراكب من بحيرة بالقرب من حمص وحملها على الجمال. ولما وصل إلى الفرات وجد التتار على شط النهر فأمر بإقامة جسر، ثم شرع هو وعساكره في عبور الفرات وألقى المراكب في النهر، فأبحر عليها بعض جنوده وتراموا مع العدو بالنشاب وتقاتل الفريقان في النهر، وظل الحال على ذلك حتى وصل السلطان إلى معسكر التتار؛ وهناك أخذت جنوده في مناوشتهم وقتلوا منهم عددا كبيرا^(٢)، ثم عاد السلطان وعساكره في النهر. ولما وصل إلى الشاطئ الشرق من ناحية الشام بلغه أن التتار الذين كانوا بالبيرة هربوا وتركوا جميع ما كان معهم من العدد والمجانيق، فسار إليها ومنح إليها ألف دينار ثم رحل منها إلى دمشق^(٣).

لم يرد التتار بهذه الهزائم التي كانت تنزل بهم، إذ نراهم في سنة ٦٧٢هـ يشرعون في الإغارة على بعض البلاد في الوقت الذي قدم فيه السلطان إلى بلاد الشام. ولما علم بيبرس عند وصوله إلى عسقلان أن أبغا قصد بغداد أرسل إلى القاهرة يستدعي جيوشه فلاحقت به عند يافا، ثم سار بعد ذلك إلى دمشق؛ غير أنه لما تقدم إليها بلغه أن التتار عادوا إلى بلادهم فأمر بإعادة عساكره إلى مصر^(٤).

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٦٠٢

(٢) مفضل بن أبى الفضائل : آب النهج السديد ص ٢١٢ - ٢١٥

(٣) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الثانى ورقة ٣٣٤

(٤) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢١٧ - ٢١٨

لم يلبث المغول بعد ذلك أن اتجهوا اتجاها آخر في مناوأة بيبرس، فقصدوا البيرة سنة ٦٧٤ هـ ومعهم خمسة عشر ألفا من السلاجقة الروم بقيادة معين الدين سليمان البرواناه^(١) . غير أنهم ارتدوا عنها عند ما بلغتهم تقدم السلطان إليهم . ويرجع السبب في ذلك إلى خروج البرواناه عليهم وانحيازه للملك الظاهر واتفاقه معه على القدوم إلى بلاده . وكان من أثر ذلك أن تغير أبغا ملك التتار على البرواناه وأرسل يستدعيه ، فاعتذر بانشغاله بإعداد جهاز ابنة السلطان ركن الدين قلاج أرسلان . غير أنه لم يلبث بعد ذلك أن سار إليه وأرسل جيش الروم إلى أبلستين^(٢) . ولما علم بتقدم الملك الظاهر إلى بلاده أرسل إلى أبغا يخبره بذلك فأمدّه بجيش من المغول ، ثم حدث أن اختلف أمراء الروم على البرواناه واتفق بعضهم على الانحياز للملك الظاهر ، فسيرهم السلطان غياث الدين كيخسرو إليه فتقابلوا معه بعين تاب وطلبوا منه أن يرسل معهم عسكريا ليحضروا إليه بقية الأمراء فلبى السلطان بيبرس طلبهم . وفي هذه الأثناء كان البرواناه قد عاد إلى قيسارية^(٣) فقال بينهم وبين السلطان غياث الدين وغيره من الأمراء فرجعوا إلى الملك الظاهر . وعند ما وصلوا إليه أكرمهم وأرسلهم إلى القاهرة . وظل البرواناه مقيا بقيسارية ، أما السلطان فلم يلبث بعد ذلك أن عاد إلى مصر^(٤) .

(١) البرواناه لفظ فارسي معناه الحاجب . أبو الفدا : ج ٤ ص ١٠ ؛ وكان في يد معين الدين هذا مقاليد الحكم في الدولة السلجوقية بآسيا الصغرى منذ سنة ٦٤٢ هـ ، وعلى يده كان مقتل السلطان ركن الدين قلاج أرسلان سنة ٦٦٤ هـ . Enc. Isl. Arts : Kilidj Arslān IV, Mu'īn al-dīn Sulaiman Parwāna.

(٢) مدينة بلاد الروم اسمها الحالي البستان وهي قومية من افسوس (Ephesus) مدينة أهل الكهف . ياقوت : معجم البلدان ؛ Le Strange: Palestine Under Moslems p. 277.

(٣) قيسارية أو قيصرية : اسم أطلقه الرومان على كثير من بلاد امبراطوريتهم بالشرق وبشمال إفريقيا وأسبانيا أيضا . ومن هذه قيصرية فلسطين الواقعة على الشاطئ على مسافة أربعة وعشرين ميلا جنوبي حيفا ، ومنها قيصرية الروم وهي المقصودة هنا وتقع على نهر قاراصو إحدى فروع نهر قزل إرمك . ياقوت : معجم البلدان ؛ (Enc. Isl. Art. Kaisariya)

(٤) العيني : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الرابع ورقة ٥٩٨ — ٦٠١

على أن أهم الوقائع التي دارت بينه وبين المغول كانت عند الأبلستين ذلك أنه قد شرع في السفر في رمضان سنة ٦٧٥ هـ للاستيلاء على بلاد الروم . وتنفيذا لهذه الرغبة سار إلى بلاد الشام ومعه الأمراء والعساكر، فوصل إلى دمشق ورجل منها إلى حلب ، ثم وردت إليه الأخبار باتفاق التتار والروم على لقائه ومحاربتة ، فرتب بيبرس جيشه وطلع بعساكره على جبال تشرف على صحراء الأبلستين ، فانصبت عليهم الخيول الإسلامية من الجبل انصباب السيول وحلوا عليهم حملة رجل واحد وقتلوا منهم عددا كبيرا ، وانجحت المعركة عن هزيمة التتار والروم هزيمة منكرة ، فولى البرواناه هو وأصحابه الأدبار .^(٢)

ولما انتهت الموقعة أرسل الملك الظاهر إلى قيسارية الأمير سنقر الأشقر ومعه كتاب بتأمين أهلها ، ثم لم يلبث بعد ذلك أن توجه بيبرس إليها بنفسه على رأس جيش كبير فخرج الأهالي يتقدمهم القضاة والأشراف ، وقابلوه في موكب حافل تصدح فيه الموسيقى ودخلوا به مدينتهم فنزل بدار السلطان ، ثم جلس على عرش قيسارية حيث تولى السلاجقة الروم الحكم عامين من الزمان . وهناك أقبل عليه الأهالي فقدموا له فروض الطاعة ، ثم أمر بأن يتعاملوا بالعملة الظاهرية وقسم ثروة البرواناه على جيوشه .^(٥)

ولما فرغ بيبرس من ذلك تهيأ لصلاة الجمعة ، وخطب له الخطباء بجوامع قيسارية السبعة ، ثم رأى أن بقاءه بها ربما كان خطرا عليه وعلى البلاد الشامية لتوقع معاودة التتار بجيوشهم انتقاما لمن قتل من جيوشهم وتخليصا لمن أسر من

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٦٢٧ — ٦٢٨

(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ١١٨

(٣) ابن شاکر الکتبی : عيون التواريخ ج ٢١ القسم الأول ورقة ٧٧

Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, (٤)
p. 28.

Stanley Lane - Poole, A History of Egypt in the Middle Ages (٥)

p. 271

رجالهم ، فرحل إلى الأبلستين ومصر على مكان المعركة ليرى جثث القتلى من التتار ، وهناك أمر بجمع من قتل من عساكره ودفنهم . وكان يرمى من وراء ذلك إلى اظهار كثرة من قتل من التتار^(١) .

وقد كان ما توقعه بيبرس . فإنه بعد أن غادر قيسارية سار أبغا إلى الأبلستين . ولما زار ساحة القتال ووجد أن أغلب القتلى من التتار تأثر تأثراً عميقاً أسال دموعه ،^(٢) وتغير على البرواناه عند ما علم أنه كان السبب في حمل الملك الظاهر على القدوم إلى بلاد الروم ،^(٣) ثم رحل إلى قيسارية ليثار بل جيشه المهزوم وابعيد نفوذ المغول وحكمهم فيها . وعند ما دخلها صب على أهلها وابلا من العذاب وانتقم من مساهمها شر انتقام لمقابلتهم سلطان مصر بالتجالة والترحاب وقتل منهم خلقاً كثيراً^(٤) .

أما عن موقف البرواناه في ذلك الوقت فإن أبغا استصحبه معه إلى معسكره على أثر انتهائه من قيسارية ، وهناك استشار أمراءه في أمره فأشار عليه فريق منهم بقتله ، ورأى الفريق الآخر أن يعمل أبغا على إعادته إلى بلاده لينظمها وليحمل إليه نجاجها . وقد لقيت هذه الفكرة قبولا لدى أبغا فأطلق سراحه ، غير أن نساء أمراء المغول الذين قتلوا في المعركة عند ما علمن بذلك اجتمعن وأقن ثورة في وجه أبغا ، فكلف أميراً من بلاد سيس بأن يأخذ معه مائتي فارس ويسير بالبرواناه إلى مكان معين ثم يقتله ، فاستدعى هذا الأمير البرواناه وقال له إن أبغا يود أن تركب أنت وأصحابك معه ، فركب هو وأصحابه ثم أحاط به الفرسان ، فسألهم أن يمهلوه ريثما يتوضأ ويصلي ، فأمهلوه حتى فرغ من صلاته ثم انقضوا عليه وقتلوه^(٥) .

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٦٣١ — ٦٣٢

(٢) Brown, A Literary History of Persia, Vol. III, p. 19 ، مفضل بن

أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢٧٠ (٣) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة في تاريخ

الهجرة ج ٩ ورقة ١٢٢ . (٤) Sir William Muir, The Mameluke or Slave

Dynasty of Egypt, pp. 28-29 . (٥) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة في تاريخ

الهجرة ج ٩ ورقة ١٢٤ ؛ مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢٧٠ — ٢٧٥

وهنا نتساءل عن تقاعد الظاهر وعدم عودته الى مقاتلة التتار وقد تحمل هو وجيشه من المتاعب ولاقوا من الصعوبات ما يجعله حقيقا بالاستماتة في الدفاع عن هذا البلد وتخليصه نهائيا من يد التتار ، وعلم ما حاق بهم من جيوشه والسبب الذي من أجله هاجموا المدينة بعد أن هزموا عندها . لعل الجواب هو أن الظاهر بعد انفضاض الموقعة ومسيره الى حارم أمر بتسيير جيشه الى مصر ، وانتقل هو أيضا من حارم ذاهبا الى دمشق . وفي هذه الآونة انقضت أيتها على المدينة ، ولم نتح الفرصة للظاهر أن يتراجع اليها ليقيا شر هذا العدو حتى داهمها وقتل أهلها ، وعدا ذلك فإن الجيش المصرى قد بلغ به الضعف غاية أبعده عن الرجوع دفاعا عن قيسارية ، إذ قل العدد وهلكت المواشى ونفقت الأقوات وعدم العلف لكثرة مالاتى الجيش في هذه المعركة من وعورة الطريق وصعوبة المسالك وزمهير البرد . وهناك أمر آخر حال دون رجوع بيبرس الى قيسارية بعد مغادرتها ، ذلك أنه بعد أن فارقتها الى دمشق لم يلبث أن عاجلته منيته فتوفى قبل أن يتمكن من إعادة الكرة على الأعداء ويردّهم على أعقابهم

٢ - مغول القفجاق :

لم تكن العلاقة بين بركة خان والظاهر كما كانت بينه وبين هولوكو وخلفه . ولا عجب إذا رأينا القبيلة الذهبية^(١) تتخالف أبناء جلدتها من التتار وتدخل في حلف

(١) لما قسم جنكيز خان امبراطور يته وأملاكه بين أولاده الأربعة ، كان نصيب جوجى وهو أكبر أبناءه البلاد الواقعة بين نهر آرئش والسواحل الجنوبية لبحر قزوين . وكان اسم تلك البلاد عامة القفجاق ويطلق عليها اسم القبيلة الذهبية (Golden Horde) نسبة الى خيام معسكراتها ذات اللون الذهبى . وكان غالب أهلها تركا وتركان . ولما مات جوجى سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧ م) انقسمت بلاده أنصبة بين أولاده الأربعة عشر . وكان أكبر أولئك الأبناء أوردا (Orda) وهو الذى خلف أباه على سائر المملكة أول الأمر وقانهم باطو (Bātū) الذى آثرته قبائل القسم الغربى من المملكة على أخوته وأعلته ملكا عليها واعترف بذلك جنكيز خان نفسه قبل مماته . لهذا انكش سلطان أوردا الى القسم الشرقى فقط وعرف باسم القفجاق الشرقى أو القبيلة البيضاء (White Horde) . وكان مركز ملكة باطو الجهات الواقعة على الشاطئ الأيسر لنهر الفولجا . وقد اتخذها عاصمة سماها (Sarāi) وهو الذى غزا أوربا فتوغل =

مع المماليك بمصر مع ما هم عليه من العداء لآخواتهم تثار فارس . فقد اعتنق رئيسها بركة الإسلام^(١) . وكان لإسلامه وما كان بينه وبين المماليك بمصر من الصلات الوثيقة أثر كبير في انتشار الإسلام بين أهالي تلك القبيلة . فقد حدا حدوه الكثير من زعماء المغول في هذه البلاد رغم مقاومة الكثيرين لذلك الدين وحيواتهم دون انتشاره بينهم ، حتى إنهم فكروا في خلع بركة خان حين أعلن إسلامه وعرضوا تاج المغول على هولاء^(٢) كالأعداء^(٣) .

ولما علم بيبرس بإسلام بركة كتب إليه يغريه بقتال هولاء^(٣) . وقد أفضنا القول فيما كان بين بركة وبينه من العداء ، كما ذكرنا كيف تحالف هولاء^(٣) مع

= في روسيا وبولندا والمجر ودماشيا (٦٣٥ — ٥٦٤٠) [١٢٣٧ — ١٢٤٠ م] ، وطارت شهرته حتى اعتبره سائر قبائل التتر بجميع بلاد القفجاق أحق أبناء جوجي خان رغم وجود أوردا على قيد الحياة . وصار باطو بعد ذلك يلقب بخان القبيلة الذهبية وهو لقب شامل لجميع بلاد القفجاق شرقها وغربها ، فأصبح يعدل في السلطان والعظمة الخان الأعظم ما نجوخان الذي خلف كيوك سنة ٦٤٧ هـ (١٢٤٠ م) . ولقد مات باطو خان سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٦ م) وتولى بعده مباشرة ولده طرطق ، لكنه توفي في نفس تلك السنة ، فتولى بعده بركة خان ثالث أبناء جوجي خان . Enc. Isl. Arts : Gingsis Khan, Bātū Khan, Bereke.

(١) يقال في سبب إسلامه إنه تلاقى يوما مع غير للتجارة آتية من بخارى فاختلف بتاجرين منهم وسألها عن الإسلام فشرحاه شرحا مقنعا انتهى به إلى اعتناق هذا الدين والاختصاص له . وقد كشف أول الأمر أصغر إخوته عن تغييره لدينه واعتناقه الإسلام وحبب إليه اعتناقه ، ثم أعلن بعد ذلك اعتناقه لهذا الدين الجديد . ويذكر الجوزجاني الذي جمع تاريخه في حياة بركة خان ، أن بركة خان قد اعتنق الإسلام منذ طفولته . ولما شب وبلغ سن التعليم حفظ القرآن على أحد علماء مدينة خوقند (Khodjand) . ويذكر لنا نفس المؤلف أن جميع جيشه كان مسلحا ، كما يذكر بعض الثقات أنه قد جرت العادة أن يحمل كل فارس في جيشه سجادا للصلاة حتى إذا ما حان وقت الصلاة اشتغلوا بصلاتهم ، كما لم يكن في جيشه من يتعاطى أي مسكر . وكانت جماعته تضم مشاهير العلماء من المفسرين ورجال الحديث والفقهاء وعلماء الكلام . وكان في حوزته عدد كبير من كتب الدين ، كما كانت معظم مجالسه ومحاوراته مع العلماء . وكانت المحاورات الدنيابة تشغل أكثر مجالسه ، كما كان سنيا مغاليا شديدا التمسك بدينه . Sir Thomas Arnold, The Preaching of Islam, pp. 228-229.

على أن بركة خان لم يكن متعصبا تعصبا أعمى يشهد بذلك أن عاصمته صراى كانت منذ سنة ٦٦٠ هـ

Enc. Isl. Art : Bereke . كرسيا لأسقفية مسيحية . (١٢٦١ م)

(٢) Sir Thomas Arnold, The Preaching of Islam, pp. 239-240 .

(٣) المقریزی : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٤٦٥

الصلبيين ضد سلطان مصر، فلم يكن بد إذن من أن يكون بركة والظاهر — ودينهما الاسلام — في كفة واحدة ضد عدوهما المشترك الذي يريد الإغارة على بلادهما والقضاء على دينهما .

وقد دخل بركة خان في حلف مع الظاهر بيبرس الذي ابتداء تلك العلاقات الودية من جانبه بأن احتفى بشرذمة من جند القبيلة الذهبية، يبلغ عددها المائتين، وكانوا قد فزوا إلى سورية لما ظهر لهم من العداء المستحکم بين ملكهم وبين هولاءكو، ثم توجهوا من سورية إلى مصر حيث استقبلوا بكل مظاهر الحفاوة والتكريم في بلاط بيبرس الذي أقنعهم بصحة الدين الإسلامي واعتناقه^(١) وأنزلهم في دور بنيت لهم في اللوق وهي المعروفة الآن بباب اللوق — كما سيأتي — وبعث إليهم الخلع والأموال، وأمر كبراءهم وأدج بعضهم في سلك المالك ومنحهم بعض الإقطاعات . وكان من أثر هذه المعاملة الحسنة التي عامل بها بيبرس هؤلاء المغول أن تكاثروا وافدون من رجال القبيلة الذهبية على مصر حيث اتخذوا الإسلام ديناً لهم^(٢) .

ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل قدم إلى مصر سنة ٦٦١ هـ رسل الملك بركة ومعهم كتاب منه جاء فيه ”... فإعلم السلطان أنني حاربت (هولاءكو) الذي من لحمي ودمي لإهلاء كلمة الله العليا نعصبا لدين الإسلام لأنه باغى (كذا في الأصل) والباغى كافر بالله ورسوله . وقد سيرت قصادي ورسلي صحبة رسل السلطان... ووجهت ابن شهاب الدين غازي معهم لأنه كان حاضرا في الواقعة ليحكي للسلطان ما رآه بعينه من عجب القتال، ثم ليوضح لعلم السلطان أنه موفق للخيرات والسعدات، لأنه أقام إماما من آل عباس في خلافة المسلمين وهو الحاكم بأمر الله، فشكرت همته وحمدت الله تعالى على ذلك لاسيما لما بلغني توجيهه بالعساكر الإسلامية إلى بغداد واستخلاص تلك النواحي من أيدي الكفار...“^(٣)

(١) Sir Thomas Arnold, The Preaching of Islam, p. 228.

(٢) المقرئى : خطط ج ٢ ص ١١٧ — ١١٨

(٣) العيني : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٤٩٤ — ٤٩٥

أرسل إليه السلطان الرّد في سبعين ورقة بغدادية^(٢) . وأنفذ إليه هدية مع الأمير فارس الدين أقوش المسعودي والشريف عماد الدين الهاشمي ، وأمر الخطباء بأن يدعوا للملك بركة بعد الدعاء له على المنابر بمكة والمدينة والقدس والقاهرة .

ولما رأى بيبرس أن امبراطور القسطنطينية عطل رسله عن الذهاب إلى بركة خان^(٤) ، أحضر البطارقة والأساقفة الذين كانوا عنده وسألهم عن مصير من ينقض العهد فأجابوا بأنه يحرم من دينه ؛ فأخذ السلطان إقرارا منهم بذلك وأرسل إلى الامبراطور راهبا يونانيا ومعه قسيس وأسقف ليعلنوه بقرار الحرمان . ولم يكتف بذلك بل كتب إليه كتابا أظلم له فيه القول .

وعندما وصل هؤلاء القسس إلى الامبراطور أطلق رسل الملك الظاهر ، فساروا إلى بركة خان . ولما قاربوا معسكره قابلهم الوزير شرف الدين القزويني فأنزلهم في منزلة

(١) ذكر ابن واصل : مفرج الكرب في أخبار بنى أيوب ج ٢ ص ٤٢٢ ب " أن بيبرس جمع في هذا الكتاب من الترغيب والاستمالة والاعراء على (هولوكو) وإظهار الميل إليه وأنه وصف فيه جنود الديار المصرية وما هي عليه وأهلها من حب الجهاد في سبيل الله تعالى ... " .

(٢) كان الورق البغدادى أجود أنواع الورق وأكبره سعة . ويستعمل في كتابة المصاحف ومكاتبه كبار الملوك . وفي ذلك يقول الفلقشندي (صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٧٦) " ... وأعلى أجناس الورق فيما رأيناه البغدادى ؛ وهو ورق ثخين مع ليونة ورقة حاشية وتناسب أجزائه ، وقطعه وافر جدا ، ولا يكتب فيه في الغالب إلا المصاحف الشريفة ، وربما استعمله كتاب الإنشاء في مكاتبات القانات ونحوها " .

(٣) ذكر بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٧٣ ؛ أن هذه الهدية كانت تحتوى على ختمة شريفة مكتوبة بخط عثمان بن عفان وسجادات للصلاة متنوعة الألوان وسيوف وخوذ مذهبة ومنجنيقات ومشاعل وسروج خوارزمية وقناديل مذهبة وخيول عربية . وهناك أصناف أخرى أوردها مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السيد ص ١١٢ — ١١٣ ، ولم يشر إليها بيبرس الدوادار وهي الفيل والزرافة اللذان أرسلهما بيبرس بركة ، وكذلك بعض الملابس والأواني الصينية .

(٤) كانت رسل الملك الظاهر قد سارت إلى القسطنطينية في طريقها إلى بركة . ولما أقبل عليهم الامبراطور ميخائيل بالبولوجس أكرمهم ووعدهم بالمساعدة على التوجه إلى البلاد الشمالية ، غير أنه لم يف بوعده ، وظل يماطلهم بحجة أن أحد رسل هولوكو قد وصل إليه في ذلك الوقت وأنه يخشى أن يعلم بأمرهم ؛ فطلبوا منه أن يعيدهم إلى مصر إذا لم يتمكن من مساعدتهم في التوجه إلى بركة ، وذلك بعد أن قضوا عنده سنة وثلاثة أشهر ماتت في أثنائها الحيوانات التي أرسلها بيبرس مع رسله ليسلموها للملك بركة .

(٥) المقریزی : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٤٩٨ و ٥١٤

حسنة، ثم استدعاهم الملك بركة لمقابلته . وعندما مثلوا بين يديه أخذ منهم الكتاب الذي أرسله إليه بيبرس وأمر وزيره بقراءته . ولما فرغ من ذلك احتفل بقدمهم وأضافهم عند زوجته (بجك خاتون) وظل يستدعيهم من وقت لآخر ويتحدث إليهم في بعض الشئون ، وطلب منهم أن يذكروا له شيئاً عن النيل وعن الأمطار في مصر ، كما سألمهم عن الفيل والزرافة اللذين كانا ضمن الهدية التي أرسلها بيبرس إليه ، ثم عادوا إلى مصر بعد ما أقاموا عنده ستة وعشرين يوماً ،^(١) وذكروا عند عودتهم أن كل أمير وأميرة في بلاط بركة خان له إمامه ومؤذنه الخاص وأن الأطفال يحفظون القرآن في المدارس .^(٢)

لم تقتصر العلاقة بين الملك الظاهر وبركة على هذه المراسلات التي تبودلت بينهما . والتي كان من أثرها قدوم كثير من مغول القبيلة الذهبية إلى مصر واعتناقهم الإسلام وإقامتهم بها ، بل اقترنت بزواج الملك الظاهر بابنة بركة خان .^(٣) وبذلك ارتبطت دولة مغول القفجاق بدولة المماليك بمصر برباط المصاهرة وتوثقت العلاقة بينهما وظلت الحال على ذلك بعد وفاة بركة سنة ٦٦٥ هـ .

وفي عهد خلفه منكوتمر^(٤) انتمت العلاقات الودية قائمة بين الدولتين وتبودلت الرسائل بينهما للاتفاق على مناوأة بيت هولوكو والقضاء عليه ، فأرسل بيبرس في سنة ٦٦٦ هـ إلى منكوتمر كتاباً يغريه فيه بقتال أبغا ،^(٥) وأجابه على ذلك منكوتمر بأن أرسل إليه رسالة فوض له فيها الاستيلاء على جميع ما أخذه هولوكو من أراضي المسلمين ، كما طلب منه أن يساعده على استئصال شأفة مغول فارس . وقد حمل هذه

(١) مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١١٩ — ١٢٠

(٢) Sir Thomas Arnold, The Preaching of Islam, p. 229.

(٣) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, p. 266.

(٤) لم يترك بركة خان بعد وفاته ولداً فأل ملكه إلى منكوتمر (Mongke-Timur) وهو ابن أخيه

باطو خان (Enc. Isl. Art. Berke)

(٥) العيني : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ص ٥٢٧

الرسالة إلى بيبرس عدة رسل من بيت بركة - وكان الفرنجة قد أسروهم وأخذوا ما معهم ، ثم أطلق سراحهم القائمون بإدارة عكاء . ولما علم بذلك الملك الظاهر أصدر أوامره بمنع التجار الأجانب بالأسكندرية من السفر حتى يعوضوا ما أخذه أصحابهم من هؤلاء الرسل^(١) .

وهكذا ظلت العلاقة ودية بين بيبرس ومغول القبيلة الذهبية في الوقت الذي كان فيه العداء قائما بينه وبين مغول فارس ، حتى أوقع بهم - كما رأينا - وهزمهم هزيمة منكرة سنة ١٢٧٧ م ، واستحكم العداء بينهم منذ ذلك الوقت . ولم تكن هناك جريمة أشد في نظر مغول فارس من أن يروا رجلا منهم في علاقة حسنة مع المماليك ، حتى كانت الوسيلة الفذة للإيقاع بأى مسلم من رعايا المغول هي اتهامه بالاتصال بالمماليك في مصر .^(٢)

(هـ) علاقة بيبرس بأرمينية :

ابتدأت العلاقات تظهر لأول مرة بين بيبرس وأرمينية في الوقت الذي تقدم فيه هيثوم^(٣) (Hethum) على رأس جيش كبير إلى عين تاب سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٤ م) ؛ فسير بيبرس إلى حلب جيشا مكونا من عسكر حماه وحمص . ولما تقابل الجيشان^(٤)

(١) مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢٠٧ - ٢٠٨

(٢) Browne, A Literary History of Persia, Vol. III. p. 20.

(٣) كان هيثوم ملك أرمينية المسيحي الأثر الأول في العمل على إقناع أمراة المغول مانجو خان (٦٤٦ - ٦٥٥ هـ = ١٢٤٨ - ١٢٥٧ م) ، وحمله على إرسال تلك الحملة التي فتحت بغداد تحت قيادة هولاءكو (٦٥٤ - ٦٦٣ هـ = ١٢٥٦ - ١٢٦٥ م) الذي أظهر العطف الشديد للمسيحيين وبخاصة النسطوريين منهم بتأثير زوجته المسيحية ؛ ومن ثم اعتنق الكثيرون من المغول الذين فتحوا بلاد أرمينية ونجورجيا الدين المسيحي وتعبدوا على يد المسيحيين من سكان تلك الجهات . Sir Thomas Arnold : The Preaching of Islam, p. 221

وقد انضم هيثوم هذا إلى هولاءكو رغبة منه في حماية مملكته من السلاجقة الروم بالشمال ودولة المماليك

بالجنوب ، وصارت تلك المملكة ولاية تابعة لدولة المغول في فارس (Enc. Isl. Art. Armenia)

(٤) بيبرس السوادار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٧٩ ؛ المقرئى : السلوك ج ١

القسم الثانى ص ٥١٠

وهزم الأرمن استنجد هيثوم بالتتار، فقدم إليه سبعمائة فارس كانوا ببلاد سلاجقة آسيا الصغرى . وقد تمكن بمساعدتهم من متابعة السير ومحاصرة بلدة حارم . غير أن ساقط الثلج وزمهير الشتاء اضطرهم إلى التراجع ثانية^(١) .

ولما تم للملك الظاهر الاستيلاء على قلعة صنفد من الصليبيين رحل إلى دمشق سنة ٦٦٤ هـ (١٢٦٦ م) وأمر عساكره بالسير إلى سيس والإغارة عليها؛ فخرجوا من دمشق بقيادة الملك المنصور صاحب حماه واخترقوا مضائق قيليقييا . وبذلك تمكنوا من الدخول إلى بلاد سيس حيث التقوا مع الملك هيثوم ، فاقتتل الجيشان ودارت الدائرة على الأرمن ، فهزم ملكهم وأسر أحد أولاده « ليفون » ، ثم دخل المسلمون سيس وغنموا كل ما فيها^(٢) .

لم يلبث بعد ذلك هيثوم أن أرسل إلى بيبرس أخاه فاساك (Vassak) شافعا في ولده ، فوعده السلطان بتلبية طلبه ، على أن يعمل هيثوم على إطلاق سراح سنقر الأشقر وأن يرد القلاع التي أخذها من مملكة حلب ، وهي بهسنا ودر بساك ومرزبان وشبح الحديد . أظهر هيثوم استعداداه لتلبية الطلب الأول بعد أن طلب من السلطان أن يمهله بعض الوقت ، وتردد في تسليم القلاع ؛ فكتب إليه السلطان يقول : " إذا كنت تقسو على ولدك وولى عهدك فأنا أقسو على صديق ما يبني وبينه نسب ويكون الرجوع منك لا مني ... " . فلما ورد هذا الكتاب إلى هيثوم سارع في طلب الصالح على شروط منها : أن يعمل على إطلاق سراح سنقر

(١) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 23.

(٢) وهي عاصمة أرمينية الصغرى (قيليقية) وموقعها بين أنطاكية وطرسوس . ياقوت : معجم البلدان

(٣) مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١٥٢

(٤) كان هولاكوف قد أسر سنقر هذا أثناء إغارته على حلب واستيلائه عليها من الملك المنصور؛

المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٥٦٨ (٥) العيني : عقد الجمان . المجلد الثالث ورقة ٤٥٤ ؛ أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ٤ ص ٥

الأشقر وأن يسلم لبيبرس قلعة بهسنا ودر بساك وكل ما أخذه من البلاد الإسلامية ،
وفي مقابل ذلك يطلق السلطان سراح ليفون . ثم كتبت الهدنة بأنطاكية وأرسل
بيبرس أحد أمرائه إلى مصر ليحضر ليفون ، فقدم إليه بدمشق وحلقه على نسخة
الصلح التي حلف عليها والده ^(١) .

على أن أمد هذه الهدنة لم يطل ، فان بيبرس على أثر انتصاره على المغول عند نهر
الفرات سنة ٦٧١ هـ (١٢٧٣ م) وتشتيته شملهم قام بعدة حملات سنة ٦٧٣ هـ على
حدود آسيا الصغرى كلت كلها بالنجاح . وفي إحدى غزواته المروعة التي قام بها على
الأرمن لنقضهم العهد كانت مدينتا سيس ^(٢) والمصيصة ^(٣) مسرحا للسلب والنيران
وعاثت جنود الظاهر فسادا في كل البلاد من طرسوس إلى أطنة ؛ وكانت غنائمهم
عظيمة حتى لقد ملأت فضاء أنطاكية ^(٤) .

فما تقدم نرى أن الأرمن لو ظلوا بعيدين عن نفوذ التتار ولم يخضعوا لرغباتهم
لكان خيرا لهم وأدعى إلى بقائهم آمنين في ديارهم بعيدين عن إثارة غضب المصريين
عليهم وتنجيلهم بهم هذا التنكيل الذي انتهى بسقوطهم وإضعاف شوكتهم
وتشتيت شملهم ^(٥) .

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٦٩

(٢) ذكر مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢٢٦ ، أن سبب خروج السلطان هذه
المررة إلى سيس هو أن معين الدين البرواناه كان قد كتب إلى بيبرس يحرضه على الدخول إلى بلاد الروم لما
ضاق ذرعا بأجاي (Atchai) بن هولكو الذى فكر فى قتله ؛ غير أن البرواناه لم يلبث أن غير رأيه
وكتب الى السلطان يقول له " أقصد هذه السنة (٦٧٣ هـ) سيس ، وفى السنة القادمة أملكك البلاد " .
فلقى هذا القول قبولا لدى الظاهر وذهب الى سيس سنة ٦٧٣ هـ .

(٣) مدينة على شاطئ نهر جيحان وهى تقارب طرسوس وبينها وبين أطنة تسعة أميال . ياقوت :

معجم البلدان ؛ Le Strange : Palestine under Moslems p. 505.

(٤) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt.

p. 27. المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٦١٧ — ٦١٨

(٥) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt.

(و) علاقة بيبرس بملوك أوروبا :

كانت علاقة بيبرس بالملوك المعاصرين له مختلفة، ففي الوقت الذي كان فيه العداء مستحكماً بينه وبين الصليبيين والمغول في فارس نراه يخطب وداً امبراطور الدولة البيزنطية ويوفق في ذلك فيعقد معه محالفة دفاعية . وقد وجد هذا الامبراطور من سلطان مصر خير معين وعضد له على عدوهما معا في البلاد الشامية .

ولما استحسنت بين الدولتين عمرا المسالمة طلب الامبراطور من بيبرس بطريقا من الطائفة الملكانية لمن يعتنقون هذا المذهب في دولته ، فأرسل إليه السلطان الأمير فارس الدين أقوش المسعودي ومعه الرشيد الكحال وبعض الأساقفة . فلما وصلوا إليه استقبلهم بكل مظاهر الحفاوة والتكريم وأطلع الأمير أقوش على المسجد الذي جدد بناءه^(٢) ، ثم عاد هذا الأمير ومعه البطريق محمدا بالهدايا . وعند ما علم السلطان بأن الامبراطور جدد بناء ذلك المسجد شرع في تأييده ، فأرسل إليه الحصر والقناديل المذهبية والمباخر والسجادات والطيب^(٣) .

(١) كان امبراطور القسطنطينية « ميخائيل باليولوجس » مخالفا في المذهب لكنيسة روما ، كما كان عدوا للصليبيين الذين يعتنقون المذهب الكاثوليكي وهؤلاء بحكم مذهبهم كانوا أعداء لكنيسة القسطنطينية وعوامل العداء متأصلة في نفوس الفريقين . ومن الطبيعي أن تقوى عوامل البغضاء والكراهية في نفس الامبراطور ميخائيل لسكل من ينتمى إلى كنيسة روما سيما هؤلاء الذين تسموا باسم الصليبيين لما أتوه من العيب وسوء الإدارة أثناء حكمهم للدولة الرومانية الشرقية مدة نصف قرن ، فقد أسسوا دولة بها سنة ١٢٠٤ م ظلت قائمة هناك إلى أن جاء هذا الامبراطور ففرض عليها سنة ١٢٦٢ م ، وبذلك تمكن من إعادة الدولة البيزنطية إلى القسطنطينية . Camb. Med. & Stanley Lane-Poole p. 260 Hist. IV pp. 507 et Seq.

(٢) بنى هذا المسجد مسلبة بن عبد الملك في خلافة أخيه الوليد سنة ٩٦ هـ . وقد هدمه اللاتين أثناء غارتهم على القسطنطينية (١٢٠٤ — ١٢٦٢ م) ؛ العيني : عقد الجمان . المجلد الثالث ورقة ٤٨١ ؛ Stanley Lane-Poole p. 266.

(٣) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٢٦٢ ؛ المقرئى : السلوك

وقد أحسن الملك الظاهر صنعا بالتحالف مع هذا الامبراطور ليستعين به هو أيضا على الصليبيين ، وليفسح المجال للتجارة المصرية في بلاده حتى يصير التجار وغيرهم آمنين على أنفسهم وأموالهم ، هذا إلى وقوفه في وجه اللاتين الذين كانوا يوالون إمداداتهم إلى إخوانهم الصليبيين بالشام .

على أن بيبرس لم يلبث بعد ذلك أن أساء الظن بحليقه سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٤ م) عند ما عاق رساله عن مواصلة السير إلى بركة خان كما تقدم فاعتقد أنه انضم إلى جانب هولاءكو . وعلى الرغم من ذلك فإننا نجد الامبراطور في السنة التالية يرسل إليه الهدايا^(١) مما يدلنا على أنه كان يحرص على مخالفة بيبرس . على أن هناك حادثة تشعرنا بأن العلاقة بين السلطان والامبراطور أصبح يشوبها بعض الفتور وذلك على أثر زواج أباقا بن هولاءكو من أبنسة امبراطور القسطنطينية^(٢) . فكان من أثر هذه المصاهرة أن تقرب كل من أباقا والامبراطور من الآخر وفي هذا ما فيه من الخطر العظيم على دولة بيبرس .

لم يكتف الملك الظاهر بمخالفته امبراطور القسطنطينية ، بل تبادل مع منفرد ملك صقلية وتسكانيأ^(٣) الرسل والهدايا ، فأرسل في سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١ م) وفداً مزوداً^(٤) بالتحف وعدداً من الزراف وجماعة من التتار الذين أسروا في موقعة عين جالوت بخيولهم التتارية وعدتهم^(٥) . ولما قدم هذا الوفد إلى الامبراطور تلقاهم بالترحاب وأعجب بالهدية وخاصة بالزراف والتحف . ولم يلبث بعد ذلك أن أرسل إلى السلطان هدية مع أحد رسله^(٦) وبذلك توثقت عمرا الصداقة بين البلدين وازدادت

(١) المقرئى : السلوك ص ٥١٤ ، ٥٣٧

(٢) Browne : A Literary History of Persia p. 18.

(٣) Stanley Lane-Poole. p. 266.

(٤) يفهم مما ذكر في Ens. Isl. Art. Ibn Wāsil أن هذا الوفد كان برئاسة جمال الدين

ابن واصل . (٥) Camb. Med. History VI p. 177. (٦) أعاد الامبراطور

مع هذا الرسول مملوكين بحرين عندما أساء الأديب على أثر قدمهما إليه مع هدية السلطان . ولما وصلا إلى مصر أمر بيبرس بتأديبهما فاعتقلا بقاعة الجزيرة . ابن واصل : مفرج الكروب ص ٤٠٠ ب .

رسوخا في عهد شارل صاحب أنجو^(١) (Charles of Anjou) على أثر الكتب والهدايا التي تبودلت بينهما سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٤ م) ، فضلا عن ذلك فإنه أصبح لبيبرس بعض النفوذ في صقلية . ويتضح لنا ذلك من هذا الكتاب الذي أرسله إليه أحد كبار رجال دولة الملك شارل ، إذ قال له فيه ” إن نخدمه (شارل) أمره أن يكون أمر الملك الظاهر نافذا في بلاده وأن أكون نائب الملك الظاهر كما أنا نائبه^(٢) ” . وربما كان يقصد من وراء هذا الكتاب إلى تحقيق رغبة الملك شارل في عقد معاهدة تجارية بين دولة المالك ومملكة صقلية .

ولم تقف مساعي بيبرس عند هذا الحد بل عقد معاهدات تجارية مع جيمس ملك أراجونة (Aragon) وألfnس أميرإشبيلية الذي تبودلت^(٣) بينه وبين الملك الظاهر الرسل والهدايا . وكان ألfnس هذا قد أرسل إلى السلطان رسالة يخطب فيها وده فأجابه بيبرس على ذلك بأن أرسل إليه رسلا منزودين بالهدايا ، وكانوا كلما مروا على بلدة من بلاده قابلهم أهلها بالحنفاة والإكرام واستمروا على ذلك الحال حتى قدموا إليه ، فأكرم وفادتهم وقبل الهدية منهم ثم أعد لهم مركبا أبحروا فيه إلى الأستدرية فوصلوا إليها في صفر سنة ٦٧٥ هـ .^(٤)

(ز) اتساع نفوذ بيبرس في بلاد النوبة :

كان أهل هذه البلاد خاضعين لسلطان مصر يؤدون إليه الجزية ، غير أنهم كثيرا ما كانوا يمتنعون عن دفعها ويشقون عصا الطاعة كلما سنحت لهم الفرص ، وقد

(١) كان شارل هذا قد قام بقيادة الحملة الصليبية الثامنة على أثر وفاة قائدها لويس التاسع ملك فرنسا . غير أن القائد الجسديد حوّل غرض الحملة إلى ما تطلبته مصالح مملكته صقلية ؛ فألزم ملك تونس المستنصر محمد بن يحيى بن عبد الوهاب بدفع مبلغ من المال كغرامة حربية وفرض عليه جزية سنوية تدفع إلى خزنة مملكته . ابن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١٢١ ، Barker, The Crusades.

pp. 87-89. (٢) المقرري : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٥١٣

Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages (٣)

p. 266. (٤) النويري : نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الأول ورقة ٢٢٧

حدث ذلك في أواخر عهد الملك الظاهر حيث كان على البلاد رجل اسمه شكندة يؤدى الجزية ويقدم فروض الطاعة لمصر، فثار عليه ابن أخيه « داود » ووقع بينهما الشقاق والتزاع إلى أن تغلب عليه وانتزع الملك من يده^(١) .

ولما تولى داود عرش بلاد النوبة امتنع عن دفع الجزية السنوية لسلطان مصر وتجاوز حدود مملكته مغيرا على بعض قرى الديار المصرية وآستولى على كثير من الأسرى المسلمين بأسوان وعيذاب^(٢) .

وعند ما لم يقو شكندة على استرداد ملكه من ابن أخيه سار إلى مصر مستنجدا بالملك الظاهر . فاتهم بيبرس هذه الفرصة ليثار من أهالى بلاد النوبة الذين كانت غزواتهم لا تنقطع عن صعيد مصر؛ فجهز مع شكندة قوة من الجند بقيادة شمس الدين أفسنقر الفارقانى وعز الدين الأفرم وأمرهما بتسليم البلاد إليه على أن يكون ريعها للملك الظاهر . فغادروا مصر إلى بلاد النوبة سنة ٦٧٤ هـ (١٢٧٥ م) ، ولما وصلوا إلى دنقلة خرج إليهم ملكها داود على رأس جيش كبير ودارت رحى الحرب بين الفريقين فى جنوبها فهزم جيش النوبة هزيمة منكرة وأسر كثير منهم وبيع السبي بثلاثة دراهم .

أما داود فإنه على أثر هزيمة جيشه عبر النيل إلى البر الغربى . فلما علم بذلك الأفرم والفارقانى رجا بمن معهما وتابعوا السير جميعا للقضاء عليه ؛ غير أنه عندما أحس بهم ترك أمه وأخته وابنة أخيه وقصد إلى أحد ملوك بلاد النوبة ، فاتهمزوا فرصة غيابه وأسروا أقرباءه ثم عادوا إلى دنقلة وملكوا عليهم شكندة^(٤) .

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٧٦

(٢) Stanley Lane - Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 271.

(٣) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt.

(٤) p. 28. (٤) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢٣٤ — ٢٣٥ ؛ ابن شاكر

الكتبى : عيون التواريخ ج ٢١ القسم الأول ورقة ٥١ و ٥٢

ولما تم لهم ذلك فرضوا عليه أن يقدم للسلطان في كل عام عددا من الفيلة والزرافى والفهود والخيول والأبقار وأن يكون نصف محصول الأرض للسلطان والنصف الآخر لعمارة البلاد وحفظها؛ ثم عرضوا على أهالى بلاد النوبة الإسلام أو الجزية أو القتل، فاختروا الجزية وأن يقوم كل منهم بدفع دينار عينا. ولم يقتصر الأمر على ذلك بل كتبوا نسخة من هذه الشروط وحلفوا شكندة عليها كما حلفوا أيضا رعاياه على طاعة نائب السلطان^(٢). فأين هذا مما صنعه عبد الله بن سعد ابن أبى سرح معهم؟ فإنه عند ما لم يستطع التغلب عليهم والإستيلاء على بلادهم سنة ٣١ هـ عقد معهم صلحا أشبهه بمعاهدة تجارية تتعهد فيها مصر بإمدادهم بالحبوب والعدس وتتعهد النوبة بتقديم الرقيق.

(١) أورد مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢٣٦ — ٢٣٨ ، نص هذا اليمين وقد جاء فيه ” والله والله والله وحق الثالوث المقدس والإنجيل الطاهر والسيدة الطاهرة العذراء أم النور والمعمودية والأنبياء والرسل الخواريين والقديسين والشهداء والأبرار وألا أجدد المسيح كما جدد يودس وأقول فيه ما تقول اليهود ... أنى أخلصت نبتى وطويتى من وقتى هذا وساعتى هذه لمولانا السلطان الأعظم الملك الظاهر ركن الدنيا والدين بيبرس خلد الله ملكه واننى أبذل جهدى وطاقى فى تحصيل مرضاته واننى ما دمت نائبه لا أقطع ما قرر على فى كل سنة تمضى وهو ما يصل من مشاطرة بلادى على ما كان يحصل لمن تقدم من الملوك بالنوبة وأن يكون النصف من المنتحصل لمولانا السلطان ... والنصف الآخر مرصدا لعمارة البلاد وحفظها من عدو يطرقها وأن يكون على فى كل سنة من الأفيلة ثلاثة ومن الزرافات ثلاثة ومن إناث الفهود خمسة ومن الصهب الجياد مائة ومن الأبقار الجيدة أربعائة رأس واننى أقرر على كل نفر من الرعية الذى تحت يدى فى البلاد من العقلاء البالغين دينارا عينا وأنه مهما كان لداود ملك النوبة ولأخيه شكندة ولأمه وأقاربه ومن عهد من عسكره بسيوف العسكر المنصور أحمله إلى الأبواب العالية واننى لا أترك شيئا منه قل ولا جل ولا أخفيه ولا أمكن أحدا من إخفائه ومتى خرجت عن شيء مما قرر على أعلاه كنت بريئا من المسيح ومن السيدة الطاهرة وأخسر دين النصرانية وأصلى لغير الشرق وأكفر بالمصليب واعتقد ما يعتقدونه كذلك اليهود، ثم اننى لا أترك أحدا من العربان ببلاد النوبة صغيرا ولا كبيرا ومن وجدته احتطت عليه وأرسلته إلى الأبواب العالية واننى مهما سمعته من الأخبار الضارة والنافعة طالعت به مولانا السلطان فى وقته واننى لا أنفرد بشيء من الأشياء واننى عبد مولانا السلطان عند نصره وغرس صنائعه وسيفه المنصور وأنا ولى من وآلاه وعدو من عاداه والله على ما أقول وكيل وشهيد “ .

ولما فرغ الأميران الأفرم والفارقاني من تمليك شكندة على بلاد النوبة عادا ومن معهما إلى القاهرة ، نخلع عليهما الملك الظاهر وحبس أم داود وأخته وابنة أخيه وأمر بالاياع من السبي يهودى أو نصرانى وألا يفرق بين المرأة وأولادها^(١) . ولم يلبث بعد ذلك داود أن قبض عليه الملك الذى نزل عنده وسيره إلى الملك الظاهر فى أوائل سنة ٦٧٥ هـ ، فاعتقل بقلعة الجبل^(٢) .

وهكذا اتسع نفوذ بيبرس فى بلاد النوبة ، ويقول ميور فى ذلك^(٣) : إن هذه هى أول مرة خضعت فيها هذه البلاد خضوعا حقيقيا للنفوذ الإسلامى رغم الهجمات التى كانت تتوالى عليها من حين لآخر .

(ح) ازدياد سلطة بيبرس فى الأماكن المقدسة بالحجاز :

اهتم بيبرس بشئون مكة والمدينة وكان ما بين شرفائهما من المشاحنات والخلاف أكبر معين له على بسط نفوذه وسيادته على تلك الأصقاع . فلجى أولا طلب الشريف بدر الدين مالك وقسم إمارة المدينة بينه وبين الأمير جمار ، كما انتهز فرصة الخلاف الذى وقع بين أميرى مكة سنة ٦٦٧ هـ واتفق معهما على أن يعطيهما ألف درهم فى كل عام على ألا يأخذوا مكوسا من أهالى مكة وألا يمنع أحد من زيارة بيت الله وألا يتعرض لتاجر وأن يخطب باسم السلطان فى الحرم والمشاعر وتضرب^(٤) السكة باسمه .

ولما رأى الملك الظاهر أن الأمر استقر له ببلاد الحجاز شرع فى الرحيل إليها فى شهر شوال سنة ٦٦٧ هـ لقضاء مناسك الحج واستصحب معه قاضى القضاة صدر الدين سليمان الحنفى وصاحب ديوان الانشاء نجر الدين بن لقمان ونحو ثلثمائة مملوك

(١) ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ ج ٢١ القسم الأول ورقة ٥٢

(٢) مفضل بن أبى الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢٣٦

(٣) The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 28.

(٤) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٦٠ و ٥٧٩

وبعض الأجناد . وعند ما وصل إلى المدينة في أواخر ذى القعدة من هذه السنة زار قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم سار منها إلى مكة فأدى بها فرائض الحج . ولما فرغ من ذلك علق كسوة^(١) بيت الله الحرام بيده وأعطى خواصه مبلغا كبيرا من المال ليوزعوه على أهالي الحرمين ، كما خلع على أكابر رجال الحجاز وأمير ينبع وأمير مكة وزاد في المال المقرر لهذين الأميرين ليسهلا للناس الحج إلى بيت الله الحرام وعين نائبا له بمكة تلبية لطلب^(٢) أميرها . وبذلك ازداد نفوذ بيبرس في تلك الأماكن المقدسة .

(ط) تبادل المراسلات بين نجاشي الحبشة وبيبرس :

ارتبطت مصر بعلاقات الود مع الحبشة في عهد بيبرس ، فأرسل ملكها كتابا إلى الملك الظاهر يتودد فيه إليه ويطلب منه أن يرسل إليه مطرانا . وقد خاطبه فيه بقوله :^(٤) "أقل الممالك نحر أملاكك يقبل الأرض وينهى بين يدي السلطان الملك الظاهر ، خلد الله ملكه . إن رسولا وصل إلى جهة والى قوص بسبب الراهب الذي جاءنا فنحن ما جاءنا مطران مولانا السلطان ونحن عبيده ، فيرسم مولانا السلطان للبطرك يعمل لنا مطران يكون رجلا جيدا عالما لا يجب ذهبها ولا فضة ويسيره إلى مدينة عوان . فأقل الممالك يسير إلى ثواب الملك المظفر صاحب اليمن ما يلزمه وهو يسيره إلى أبواب السلطان . وما أخرت الرسل إلى الأبواب إلا أنني كنت في بيكار فإن الملك داود قد توفي وقد ملك ولده . وعندى في عسكرى مائة ألف فارس من المسلمين وإنما (كذا في الأصل) النصرارى فكثير لا يعدوا كلهم غلمانك وتحت أوامرك ،

(١) كان بيبرس يرسل إلى الحجاز في كل عام كسوتين : إحداهما للكعبة ، والأخرى لقبر النبي صلى الله عليه وسلم . (٢) المقرئى : السلوك ص ٥٨٠ — ٥٨٢ ؛ العيني : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الثالث ورقة ٥٥١ (٣) ذكر القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٧٣ ، أن المطران في عصره هو القاضي الذي يفصل في الخصومات بين أهل طائفته .

(٤) مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ص ٢١٩ — ٢٢١

والمطران الكبير يدعوك ... وكل من يصل إلى المسلمين من بلادنا نحفظهم
ونسفرهم كما يحبون . والرسول الذي حضر إلينا من جهة والى قوص مرض
وبلادنا ونحة ” .

فكتب إليه بيبرس يقول : ^(١) ” ورد كتاب الملك الجليل الهام العادل في مملكته
حطى ملك أحمرة أكبر ملوك الحبشان ، الحاكم على ما لم من البلدان نجاشى عصره
وفريد مملكته في دهره ، سيف الملة المسيحية ، عضد دين النصرانية ، صديق
الملوك والسلاطين ، سلطان الأحمرة ، حرس الله نفسه وبني على الخير أسه ، فوقفنا
عليه وفهمنا ما فيه . فأما طلب المطران ، فلم يحضر من جهة الملك أحد حتى كنا
نعرف الغرض المطلوب ، وإنما كتاب السلطان الملك المظفر ورد مضمونه أنه وصل
من جهته كتاب وقاصد وأنه أقام عنده حتى يعود إليه الجواب . وأما ما ذكره من
كثرة عساكره وأن من حملتها مائة ألف من المسلمين ؛ فالث تعالى يكثر في عساكر
المسلمين . وأما وخم بلاده فالآجال مقدره من الله تعالى وما يموت أحد إلا بأجله ،
ومن فرغ أجله مات ” .

فما تقدم نرى كيف أصبح بيبرس مهيب الجانب وموضع احترام الملوك الغربيين
والشرقيين المعاصرين له ؛ فكانوا جميعاً يخشون بأسه ويعملون كل ما في وسعهم للتودد
إليه والتقرب منه ويرجع الفضل في ذلك إلى ما اشتهر به بيبرس من حسن السياسة
والنبوغ في فن الحرب .

(١) مفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد ص ٢٢١ — ٢٢٢

الباب الرابع

حضارة مصر في عصر الظاهر بيبرس

- (١) النظام السياسى والادارى .
 - (٢) القضاء .
 - (٣) الجيش والبحرية .
 - (٤) الحضارة المادية .
 - (٥) منشآت بيبرس .
 - (٦) الحياة العلمية والأدبية .
 - (٧) الحالة الاجتماعية .
-

الباب الرابع

حضارة مصر في عصر الظاهر بيبرس

١ - النظام السياسى والإدارى

لم تشغل بيبرس الحروب الخارجية عن الاهتمام بشؤون مصر الداخلية، فقد وضع أساس النظام السياسى لدولة المالك ونظم إدارتها وكان صاحب الأمر المطلق فيها إذ لم يكن لديه مجلس نيابى يستشير به بمقتضى دستور أو نظام خاص .

وعلى الرغم من أنه أعاد الخلافة إلى العباسيين فإن الخليفة لم يكن له فى عهده من الأمر شىء اللهم إلا ما كان متعلقا بالدين وحراسته^(١) . وهكذا لم تصبح للخلافة فى عصره أى صبغة سياسية، كما لم يبق للخليفة أى نفوذ بعد أن كان الناس لا يرون لهم حاكما غيره يجمع فى يده بين السلطتين الروحية والزمنية .

أما عن نظام الحكم فى عصر بيبرس فقد كان ملكيا وكانت السلطة قبل انتقالها إليه لا يناها إلا أقوى الأمراء نفوذا وأكثرهم أنصارا وأشدهم دهاء . فرأى بيبرس بعد أن وطد سلطته فى مصر أن يعمل على حصر وراثته العرش فى أسرته^(٢) ، بمعنى أن يكون الحكم فيها ملكيا وراثيا فى أبنائه . وقد مهد لذلك بأن جعل الأمراء يقسمون يمين الطاعة لابنه الملك السعيد سنة ٦٦٠ هـ . ثم لم يلبث بعد ذلك أن ولاء عهد السلطنة عندما وافته الأخبار بقدوم التتار إلى بلاد الشام سنة ٦٦٢ هـ ، لينوب عنه فى مصر أثناء اشتغاله بحاربهم ، وأقام لذلك احتفالا عظيما زينت فيه القاهرة وتنافس الأمراء وكبار رجال الدولة فى إقامة معالم الزينة تكريما له فاستبشر بذلك

(١) Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p. 30.

(٢) Muir Op. Cit p. 32.

العامة والخاصة وتقرر أن يكون أتابكه عز الدين أيدير الحلي . ثم قرئ تفويض عهد السلطنة للملك السعيد على القضاة والفقهاء وقد جاء فيه :^(٢)

”الحمد لله منى الغروس ومبهج النفوس ... ونشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة عبد كثر الله عدده وعدده ... ونصلى على سيدنا محمد الذى أطلع الله به نجم الهدى وألبس المشركين به أردية الردى ... كانت شجرتنا المباركة قد امتد منها فرع تفرسنا فيه الزيادة والنمو وتوسمنا منه حسن الجنا المرجو ورأينا أنه الهلال الذى أخذ فى ترقى منازل السعود إلى الأبدار وأنه سرنا الذى صادف مكان الاختيار له حسن الاختيار . أردنا أن ننصبه فى منصب أحلنا الله فسيح غرفه ونشرفه بما خولنا الله من شرفه وأن تكون يدينا ويده تقتطفان من ثمره ... جعل الله مطلع سعده بالاشراف محفوفا وأرى الأمة من ميامنه ما يدفع للدهر صرفا ويحسن بالتدبير تصريفا بولاية العهد الشريف على قرب البلاد وبعدها وغورها ونجدها وعساكرها وجندها وقلاعها وثغورها وبرورها وبحورها وولاياتها وأقطارها ومدنها وأمصارها وسهلبها وجبلها ... وما ينسب للدولة القاهرة من يمن وحجاز ومصر وغرب وسواحل وشام وغير شام ... ومن يسكنها من حقيروجليل ... وجعلنا يده فى ذلك كله الميسوطة وطاعته المشروطة ونواميسه المضبوطة ، ولا تدبير ملك كلى إلا بنا أو بولدنا يعمل ، ولا سيف ولا رزق إلا بأمرنا هذا يسئل وهذا يسأل ، ولا دست سلطنة إلا بأحدنا يتوضح منه الإشراف ، ولا غصن قلم فى روض أمر ونهى إلا ولدينا ولديه تمتد له الأوراق ، ولا منبر خطيب إلا باسمينا يمس ولا وجه درهم ولا دينار إلا بنا يشرق ويكاد تبرجا لا بهرجا يتطلع من خلال الكيس . فليتقلد الولد ما قلدهناه من أمور

(١) يفهم ما ذكره النويرى ج ٢٨ القسم الأثول ورقة ١٦٠ ، أن بيبرس لم يكتف بهذا التفويض بل دعا الأمراء فى صفر سنة ٦٦٧ هـ ليقسموا يمين الطاعة للملك السعيد ؛ ولما تم له ذلك جدد تفويض عهد السلطنة إليه .

(٢) المقرزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٦٨ و ٥١٥ — ٥١٦

العباد ، وليشركنا فيما نباشره من مصالح الثغور والقلاع والبلاد ... والله لا يعدمنا منه إشفاقا وبرا ويجعله أبدا للأمة سندا وذخرا^(١) .

على أن نظام وراثته العرش لم يكن مألوفاً عند الماليك ؛ فقد كانوا يعتقدون أنه لا فضل لأحد على الآخر إلا بالمهارة الحربية وكثرة الأتباع والخذق في تدبير المؤامرات . وفي أغلب الأحوال كان يرث التاج ابن السلطان وهو طفل لم يبلغ الحلم فلا يلبث أن يخاعه أتابك^(٢) كما فعل الملك المظفر قطز مع الملك المنصور نور الدين علي بن المعز أيك^(٣) . وقد فطن بيبرس لذلك عند ما أحس بالموت فكتب وصية لابنه الملك السعيد يحذره فيها من الأمراء المحيطين به . ومنها : " إنك صبي وهؤلاء الأمراء الأكابر يرونك بعين الصبي . فمن بلغك عنه ما يشوش عليك ملكك وتحقت ذلك عنه فاضرب عنقه في وقته ولا تعتقله ولا تستشر أحدا في هذا وأفعل ما أمرتك به وإلا ضاعت مصابحتك^(٤) .

وقد تحقق ما كان يخشاه بيبرس فإنه على أثر تولية ابنه الملك السعيد أخذ الأمراء يعملون على تقويض سلطته حتى اضطر أخيراً إلى النزول عن العرش بعد أن ظل في الحكم أكثر من سنتين^(٥) .

ولما نزل الملك السعيد عن العرش اتفق الأمراء على تولية الأمير قلاوون سلطنة مصر فامتنع وقال " أنا ما خلعت الملك السعيد طمعا في السلطنة والأولى ألا يخرج الأمر عن ذرية الملك الظاهر^(٦) " .

(١) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ج ٩ ورقة ٨١ و ٨٥

(٢) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 219. — أتابك : معناها مرعى الأمير . وأول من لقب بهذا اللقب نظام الدولة وزير ملكشاه بن الب

أرسلان السلجوقي حين قوض إليه ملكشاه تدبير الملكة سنة ٤٦٥ هـ . القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨ ؛ وقد تحوّل هذا اللقب إلى لقب عسكري في عصر الماليك فأصبح يطلق على القائد العام للجيوش .

(٣) المقرئزي : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٤١٧ (٤) ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار

بني أيوب ج ٢ ص ٤٤٠ . (٥) Sir William Muir. Op. Cit. p. 33. (٦)

(٦) المقرئزي : السلوك ص ٦٥٦

على أن الأمير قلاوون لم يقصد بامتناعه عن تولية سلطنة مصر احترام مبدأ وراثية العرش، ولكنه كان يرمى من وراء ذلك إلى إتاحة الفرصة له حتى يستطيع إخماد نار الفتنة التي أشعلها الظاهرية أنصار الظاهر بيبرس الذين كانوا يكونون أغلبية الجيش، وإبعاد الأمراء الموالين لأسرة بيبرس عن مناصب الدولة. وقد لقي قوله قبولا لدى الأمراء فولوا سيف الدين سلامش بن بيبرس سلطنة مصر — وله من العمر سبع سنين — ولقب بالملك العادل، وعينوا الأمير قلاوون أتابكاً له، فقبض قلاوون على زمام الأمور في البلاد واتهم فرصة صغر سن سيف الدين سلامش وأخذ يعمل على خلعه ليحل محله في عرش مصر فقبض على الأمراء الظاهرية واستقال إلى جانبه المماليك الصالحية موالى الملك الصالح أيوب فمنحهم الاقطاعات وولاهم بعض الولايات.

ولما اطمأن بال قلاوون من ناحية مناوئيه جمع أمراءه وتحدث معهم في صغر سن الملك العادل وقال لهم: «قد علمتم أن المملكة لا تقوم إلا برجل كامل» فانفقوا على خلع سلامش وبعثوا به إلى الكرك وعينوا الأمير قلاوون سلطاناً على مصر^(١). وهكذا انتقلت السلطة من بيت بيبرس إلى بيت قلاوون. وهذا يثبت لنا أن مبدأ وراثية العرش لم يكن مقبولاً لدى أمراء المماليك. فقد حتمت عليهم تشاؤهم أن تكون مؤهلات السلطنة عندهم المهارة الحربية وكثرة الأتباع. وقد استعان بيبرس في إدارة شئون دولته بالأمراء المقربين إليه فولاهم أرقى المناصب، كما أنه أحيى وظيفة نائب السلطان التي ابتدعوها في عهد الدولة الأيوبية وذلك لكثرة تغيبه عن مصر ولرغبته في أن ينوب عنه بها أثناء اشتغاله بالحروب الخارجية أحد كبار رجال دولته. فكان هذا النائب يقوم مقام السلطان أثناء غيابه ويشترك معه في توزيع الاقطاعات وترشيح الأكفاء لمناصب الدولة ولا تساع سلطته سمي «كافل الممالك والسلطان الثاني»^(٢).

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٣٥٧ — ٣٥٨

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٤

كذلك اتخذ بيبرس وزيرا له ؛ وكان يستشير في أمور الدولة ، كما كان واسطة بينه وبين الرعية ، وكان عليه تنفيذ رغبات السلطان وأوامره وإسداء النصيح والإرشاد له إذا ما استأنس برأيه في أمر من أمور الدولة . غير أنه لم يكن يتمتع بكامل سلطته لقيام النائب مقام السلطان أثناء غيابه ^(١) ولتدخله في تعيين كبار موظفي الدولة . وقد تولى الوزارة في عهده الصاحب بهاء الدين بن حنا . وكانت له منزلة سامية يدلنا على ذلك تلك الرسالة التي خاطبه بها محيي الدين بن عبد الظاهر عند ما كان مع بيبرس في قيسارية سنة ٦٧٥ هـ ؛ فقد وجه إليه عبارات تدل على ما كان لهذا الوزير من مقام لم يرتفع إليه غيره ومنزلة لم يسم إليها سواه . وقد تكفل صاحب صبح الأعشى بذكر هذه الرسالة ^(٢) .

وكان يرافق السلطان في أسفاره وحروبه وزير آخر يعرف باسم وزير الصحبة وذلك ليتسنى للوزير الأصلي أن يقيم بالقاهرة مقر عمله .

وقد ظلت الوزارة قائمة في ذلك العصر حتى ولى الناصر محمد بن قلاوون سلطنة مصر فلم يتخذ له وزيرا واعتمد على « ناظر الدولة » في إدارة شؤون البلاد . وكانت رتبته تلي رتبة الوزارة ويعاونه في عمله كثير من الموظفين يعرفون بالمستوفين وهؤلاء رئيس يسمى « مستوفى الصحبة » وكانت مهمته إعداد المراسيم الخاصة بتنظيم شؤون الدولة وتعيين صغار الموظفين ^(٣) .

ولم يقتصر الأمر على ذلك فقد ألغى الناصر وظيفة نائب السلطان واضطلع بما كان يقوم به النائب والوزير ، كما استحدث وظيفة « ناظر الخاصة » وكانت مهمة القائم بأعبائها في أول الأمر مقصورة على إدارة أموال السلطان ؛ غير أنه لم يلبث أن ازداد نفوذه لكثرة تقرّبه من السلطان فأصبح يتدخل في أموره الخاصة ^(٤) .

(١) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٢٢٣ (٢) القلقشندى : ج ١٤ ص ١٣٩ — ١٦٥

(٣) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٢٢٤

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٤

مما تقدم نرى كيف أن سلاطين المماليك في ذلك العصر لم يعنوا بأن يتخذوا لهم وزراء يعاونونهم في إدارة شؤون الدولة كما كانت الحال في عهد الدولتين الفاطمية والأيوبية؛ فأضعفوا أولا من نفوذهم ثم استبدلوا بهم بعض كبار الموظفين؛ فأصبح كل من « ناظر الدولة » و « ناظر الخاصة » يقوم بمهام الوزارة . ولعلمهم عمدوا إلى ذلك خشية أن يزداد نفوذ الوزراء فيعملون على تقويض سلطتهم وخلقهم من عروشهم كما كانت الحال في أواخر عهد الدولتين العباسية والفاطمية .

وقد ملأ بيبرس بلاطه بكثير من الموظفين نخص بالذكر منهم « الحاجب » وكانت مهمته إدخال الناس على السلطان حسبما تقضى الضرورة بالسماح لهم بالمشور بين يديه مراعيًا في ذلك مقامهم وأهمية أعمالهم . ولم تقف مهمته عند هذا الحد بل كان يفصل فيما يحدث بين الأمراء والجنود ، وذلك بعد استشارة السلطان أو نائبه؛ ثم أخذت سلطته تتسع تدريجيا حتى أصبح يقضى بين المغول الذين استوطنوا مصر طبقا لأحكام الياسة التي وضعها جنكرخان^(١) .

وهناك موظفون آخرون يلون الحاجب في المكنانة وهم « الاستادار » و « الدوادار » و « الأميرجاندار » . وكان يعهد إلى الأول إدارة البيوت السلطانية ،

(١) كان هؤلاء المغول على الرغم من استيطانهم مصر واعتناقهم الدين الاسلامي لا يزالون متأثرين بأحكام الياسة ؛ وقد أظهروا رغبتهم في العودة الى اتباعها . وفي ذلك يقول المقرئى : خطط ج ٢ ص ٢٢١ " واحتاجوا (المغول) في ذات أنفسهم الى الرجوع لعادة جنكرخان والافتداء بحكم الياسة ؛ فلذلك نصبوا الحاجب ليقضى بينهم فيما اختلفوا فيه من عوايدهم (كذا في الأصل) والأخذ على يد قويمهم وإنصاف الضعيف منه على مقتضى ما فى الياسة " .

(٢) كان جنكرخان قد وضع بعض تشريعات للمغول وأثبتها فى كتاب سماه « ياسة » . ومن أهم ما جاء فيه أنه نص على قتل من يزنى ومن يتعمد الكذب ومن يتجسس ومن يدخل بين اثنين يتخاصمان ويعين أحدهما على الآخر، ومن يبول فى الماء أو على الرماد أو من يعطى بضاعة ويخسر فيها ، ومن يطعم أسير قوم أريكسوه بغير إذنهم ، ومن يجد عبدا هاربا أو أسيرا ولا يردده ؛ ومن يقع قومه أثناء القتال ، ومن يردده من الأمراء على أى فرد من الأفراد خلاف الملك . فضلا عن ذلك فإنه قرر ألا يكون على أحد من ولد على بن أبى طالب مؤونة ولا كلفة ؛ وألزم أفراد رعيتيه باحترام جميع الملل والمذاهب . المقرئى :

ويبلغ الثانى الرسائل للسلطان ويقدم إليه المنشورات للتوقيع عليها . أما الثالث فمهمته الوقوف على باب السلطان واستئذانه فى استقبال كبار رجال الدولة وأعيانها^(١) .

وقد أحدث بيبرس إلى جانب ذلك وظائف أخرى منها "رأس نوبة الأمراء" و "أمير المجلس" و "أمير السلاح" . وكان يتولى الأول الرئاسة على أمراء الدولة ، ويعهد إليه بمحاكمة المماليك السلطانية . أما "أمير المجلس" فكانت مهمته حراسة السلطان ، وازداد قربه منه حتى أصبح يحرسه فى داخل قصره بل وفى حجرة نومه . واختص "أمير السلاح" بالإشراف على مخازن الأسلحة ومعدات الحرب^(٢) .

وكان للسلطان ولاية ينوبون عنه فى إدارة شئون الدولة المصرية ، ومهمتهم تنفيذ الأوامر الصادرة منه وجمع الخراج والرسوم الجمركية . وكانت الأسكندرية أعظم الولايات شأنًا فى ذلك العصر لأهميتها التجارية ، وكذلك نجر عيذاب أحد ثغور مصر على البحر الأحمر وكانت تتمز به تجارة الشرق . وكان الوجه القبلى مقسما إلى عدة ولايات ؛ ومن أهم ولاياته : قوص والأشموين والبهنسا والجيزة . أما الوجه البحرى فأهم ولاياته : بلبيس ومنوف والمحلة الكبرى ودمهور وقلوب ودمياط^(٣) .

ومن الوظائف الهامة التى ظهرت فى هذا العصر وظيفة «الولاية» ؛ وهى تقابل ما يعرف فى العصر الإسلامى الأول بالشرطة^(٤) . ومهمة صاحبها حفظ النظام والقبض على الخناة والمفسدين وما إلى ذلك من الأعمال الإدارية التى تكفل سلامة الجمهور .

(١) المقرزى : خطط ج ٢ ص ٢٢٢ ؛ السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٤

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٨ ؛ السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٨٥

(٣) كان يطلق على الأسكندرية فى عهد الظاهر بيبرس ولاية الأسكندرية ، ثم أطلق عليها نيابة الأسكندرية فى أيام الظاهر برفوق . وكان فى عهده ثلاث نيابات : نيابة الأسكندرية ، ونيابة الوجه القبلى ، ونيابة الوجه البحرى . القلقشندى : شرحه ج ٤ ص ٢٤ — ٢٥

(٤) القلقشندى : شرحه ج ٤ ص ٢٦ — ٢٨

(٥) المقرزى : خطط ج ٢ ص ٢٢٣

وكان يقوم بأعباء هذه الوظيفة في عصر بيبرس ثلاثة أمراء، يتولى أحدهم المحافظة على الأمن بالقاهرة وفض المشا كل التي تحدث بين سكانها، ويعهد إلى الثاني بأداء مثل هذا العمل بالفسطاط. أما الثالث فكان يلى شئون القرافة^(١). ولعله كان يحفظ النظام أثناء مرور الجنازات ويراعى الآداب العامة في زيارات القبور وخاصة أيام المواسم والأعياد، كما كان يقوم بحراسة القبور خشية أن يعبت بها اللصوص. وإلا فليس من المعقول أن يتساوى وإلى القرافة مع وإلى كل من الفسطاط والقاهرة ان لم يكن في القرافة عمل يساوى عملهما.

وكان "صاحب العسس" بالقاهرة يتولى الاشراف على مطافئ الحريق بها، فيجلس بعد صلاة العشاء أحيانا بمحطة المطافئ التي اتخذها الممالك بسوق الجمالون الكبير بالقرب من حارة الجندرية بالغورية. وكان يوضع أمامه مشعل يشعل بالنار طول الليل، ومعه السقاءون والنجارون وغيرهم من العمال خشية حدوث الحريق بالليل فيبادرون إلى إطفائه^(٢).

ديوان الإنشاء - وجه بيبرس عنايته إلى ديوان الإنشاء لكثرة المحالفات والمعاهدات التي عقدها مع الملوك والأمراء المعاصرين له وما ترتب على ذلك من تبادل الرسائل بينه وبينهم.

وكان هذا الديوان يتكوّن من طبقتين من الكتاب، تعرف الطبقة الأولى منهم بكتاب الدست^(٣)، ومهمتهم قراءة القصص على السلطان بعد أن يفرغ من قراءتها رئيس الديوان، وذلك حسب ترتيب جلوسهم بدار العدل. وكانوا في عهد الملك الظاهر ثلاثة أرفعهم قدرا محيي الدين بن عبد الظاهر. أما الطبقة الثانية فتعرف بكتاب الدرج^(٤)، وهؤلاء كانوا يقومون بكتابة ما يدونه صاحب الإنشاء وتاب

(١) التلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٢٣ (٢) المقرئى : خطط ج ٢ ص ١٠٣

(٣) سموا بذلك جلوسهم للكتابة بين يدى السلطان . (٤) عرف هؤلاء الكتاب بهذا الاسم

لكتابهم الرسائل والمنشورات على ورق مستطيل مركب من عدة أوصال .

الديست على القصص وغير ذلك من المكاتبات والمراسيم^(١) . وكان عددهم يزداد كلما ازداد عدد كتاب الديست .

وقد تولى رئاسة ديوان الإنشاء في أيام الملك الظاهر نجر الدين بن لقمان ، وهو من الكتاب الذين اشتهروا بسعة الاطلاع في الأدب وامتازوا بالمقدرة في فن الإنشاء . وكانت مهمته تسلم المكاتبات الواردة وعرضها على السلطان لبحثها واعتمادها ثم كتابة أجوبتها^(٢) .

وكان رئيس هذا الديوان يلقب الى ذلك الوقت بصاحب ديوان الإنشاء ؛ غير أن هذا اللقب لم يلبث أن تغير عندما ولي الديوان القاضي فتح الدين بن القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر في أيام المنصور قلاوون ؛ فلقب بكتاب السر ، وصار منذ ذلك الوقت يلقب بهذا اللقب كل من ولي ديوان الإنشاء^(٣) .

ومما هو جدير بالذكر أن هذا الديوان في ذلك العصر كان يقوم مقام وزارة الخارجية في الوقت الحاضر ، إذ كانت ترد اليه المكاتبات من جميع أنحاء الولايات والممالك التي كان بينها وبين مصر بعض العلاقات ، كما كانت تحرر به الكتب التي يرسلها السلطان الى حلفائه . وقد ازداد نشاطه في أيام الملك الظاهر لكثرة المراسلات التي تبودلت بينه وبين الملوك الشرقيين والغربيين المعاصرين له .

البريد — تنبه بيبرس الى منفعة البريد فوضع له نظاما ارتبطت بمقتضاه جميع أنحاء مملكته بشبكة خطوط من البريد البري والجوى . وكان مركز هذه الشبكة قلعة الجبل^(٤) ؛ ومنها تتفرع سائر الخطوط وتصدر المراسيم السلطانية الى أنحاء

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ١ ص ١٣٧ — ١٣٨ (٢) السبوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٣١ (٣) المقرئ : خطط ج ٢ ص ٢٢٦ (٤) القلقشندي : صبح الأعشى ج ١ ص ١٠٤ (٥) كان يتفرع من قلعة الجبل أربعة طرق برية يمتد إحداها الى قوص وآخر الى عيذاب وثالث الى الاسكندرية ورابع الى دمياط ومنها الى غزة . القلقشندي : صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٧٣

امبراطوريته ، وإليها ترد الرسائل من الحكام والتقارير من ولاية الأقطار بانتظام حتى أصبح البريد في عهده يرد على مصر مرتين في الأسبوع ؛ ولم يتأت ذلك إلا بعد أن أنفق بيبرس أموالاً ضخمة في سبيل ترتيبه ^(١) .

وقد زوّد بيبرس مراكز البريد بكل ما يحتاج إليه المسافر من زاد وعلف ، كما راعى فيها توفر المياه أو وجود قرية بجوارها يستأنس بها عمال البريد ^(٢) ، وأعدّ بكل منها خيولاً لا يسمح بركوها إلا بمرسوم سلطاني ^(٣) .

وكان يشرف على إدارة البريد صاحب ديوان الإنشاء ؛ فقد عهد إليه حفظ ألواح البريد بالديوان ^(٤) ، فإذا خرج بريدي إلى جهة من الجهات أعطى لوحاً من تلك الألواح ليعلقه بعنقه في ذهابه وإيابه ^(٥) .

وكان البريديون ينتخبون عادة من خدام السلاطان ذوي الكفاية والذكاء لا بلاغ الرسائل الشفوية عند الاقتضاء ؛ وكانت لهم مكانة محترمة .

ولم يقتصر بيبرس على البريد العادي في إرسال رسائله بل استخدم الحمام الزاجل ؛ وكان له أبراج بالقلعة ومراكز معينة في جهات مختلفة كمراكز البريد البري ، لكنها تزيد عنها في المسافة . فإذا نزل بها الحمام ينقل البراج ما على جناحه إلى طائر آخر ليوصله إلى المنزل التي تليها ^(٦) .

وكان الإيجاز من أهم مميزات الرسائل التي ينقلها الحمام الزاجل ؛ فكان يستغنى فيها عن البسملة والمقدمات الطويلة والألقاب الكثيرة مما كانت تحفل به الرسائل

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٤٤٦ — ٤٤٧ (٢) القلقشندى :
صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٧٢ (٣) ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ج ١ ص ١٠٨
(٤) كانت هذه الألواح من الفضة وقد نقش على أحد وجهي كل لوح منها عبارة "لا إله إلا الله محمد رسول الله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله واوكره المشركون . ضرب بالقاهرة المحروسة" . وعلى الوجه الآخر : "عز مولانا السلطان ... سلطان الاسلام والمسلمين" .

(٥) القلقشندى : صبح الأعشى : ج ١٤ ص ٣٧١

(٦) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٩١

في ذلك العصر ، ويكتفى فقط بذكر التاريخ والساعة وإيراد المطلوب في صيغة مقتضبة كالتى تستعمل في البرقيات في وقتنا هذا .

وكانت الرسالة تشد تحت جناح الحمامة أو إلى ذيلها . وقد جرت العادة لزيادة الاطمئنان والثقة أن تكتب الرسالة من صورتين ترسلان مع حمامتين تطلق إحداهما بعد ساعتين من إطلاق الأخرى ، حتى إذا ضلت إحداهما أو قتلت أو افترسها الجوارح ، أمكن الاعتماد على وصول الأخرى . وقد جرت العادة أيضا ألا يطلق الحمام في الجؤ الممطر ولا قبل تغذيته الغذاء الكافي^(١) .

وكان حمام البريد السلطاني يميز بعلامات خاصة كبصم منقاره ببصمات خاصة أو قص ريشه بطرق معروفة؛ فإذا وصل إلى قاعة الجبل ببطاقة تولى السلطان قطعها بنفسه . وهذا يدل على مبلغ اهتمام بيبرس وحرصه على الوقوف على كل ما يتجدد في أنحاء امبراطوريته فيأخذ حذره ويستعد للطوارئ .

٢ - القضاء

حرص بيبرس على إقامة العدل بين رعاياه ومعاملتهم بالمساواة؛ فتولى بنفسه النظر في المظالم وأقام لذلك دار العدل التي كان يتولى رئاستها ويجلس بها للفصل في قضايا رعيته في يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع ، وحوله قضاته الأربعة الذين كانوا يمثلون أئمة الاجتهاد، وكبار موظفيه المالين والإداريين وصاحب ديوان الإنشاء^(٢) .

وكان قاضى القضاة في مصر عند ما تولى بيبرس العرش بدر الدين السنجارى ، فعزله الملك الظاهر في سنة ٦٥٩ هـ ، وفوض قضاء القضاة بديار مصر لتاج الدين

(١) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٢٣١ - ٢٣٢ ؛ تاريخ البريد في مصر (مصلحة البريد) ص ٤٣ - ٤٤

(٢) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٢٣١ ؛ Stanley Lane-Poole, A History of

Egypt in the Middle Ages p. 246.

(٣) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٢٠٨ - ٢٠٩

عبد الوهاب بن بنت الأعز^(١) ، وكتب له بذلك تقليدا جاء فيه ” ... رسم بالأمر العالى المولوى السلطانى الملكى الظاهرى الركنى زاد الله فى علائه ... أن نفوض إليه الحكم العزيز بجميع الديار المصرية المحروسة لما علم فيه من فضل ما زالت ثماره تجنى ومساع حميدة ما برح به إلى الخلائق محسنا ... فليباشر هذا المنصب الذى أضحى ظل شرفه وارفا ... وليول من القضاة من يحبى من الحق سننا ويميت (ويمت فى الأصل) من الباطل بدعا ... ولينفقد أمر العدول الذين أصبحوا على الحقيقة عدولا من المنهج القسويم راغبين عن المحامد بما يأتونه من كل وصف ذميم . ولا يترك منهم إلا شاهدا كان على (المعاييب) غائبا أو متورعا ... وأموال الأيتام والأوقاف فلا يباشرها إلا من كان لمباشرتها أهلا ومن يتحقق أن يكون عليها قفلا ... ورعينا بك حق الرعية ، فلا تخل أمورهم من مراعاتها . وأمض عزيمتك فى إقامة منار الشريعة بعد القعود ... وقد قررنا لك من الجامكية والجرارية ما كان مقررا لمن تقدمك ، وهو فى كل شهر أربعون دينارا وخمسة وعشرون أردبا غلة نصفين ... “^(٢)

على أن تاج الدين لم يظل منفردا بالقضاء فى مصر بل أشرك معه السلطان فى هذه السنة برهان الدين السنجارى . وصار الأول مختصا بقضاء القاهرة والوجه البحرى ؛ أما الثانى فاختص بالنظر فى قضاء مصر والوجه القبلى . ولم يمض على ذلك وقت

(١) ولد تاج الدين سنة ٦٠٤ هـ ببلدة دميرة بمديرية الغربية . ومات أبوه وهو صغير فى ذى القعدة سنة ٦١٢ هـ ؛ فربى فى حجر جده لأمه الصاحب الأعز نجر الدين مقدم . ولما بلغ أشده درس القرآن والحديث وتعلم الحساب بالاسكندرية ففهر فيه لفرط ذكائه ؛ فولاه الملك الكامل شاهدا لبيت المال وظل فى وظيفته هذه حتى تولى عرش مصر الملك الصالح أيوب فولاه نظرا للدواوين ، ثم تولى قضاء مصر سنة ٦٥٤ هـ بعد عزل بدر الدين السنجارى . ولم يلبث أن عزل تاج الدين وأعيد بدر الدين إلى القضاء وولى ابن بنت الأعز الوزارة فى ربيع الأول سنة ٦٥٥ هـ ، ثم عزله الملك المظفر قطز فى نفس هذه السنة ، وظل بعيدا عن مناصب الدولة حتى أعاده الملك الظاهر بيبرس إلى القضاء فى عاشر جمادى الأولى سنة ٦٥٩ هـ ، وظل يتولى القضاء فى مصر إلى أن عاجلته منيته فى الثامن والعشرين من شهر رجب سنة ٦٦٥ هـ . ابن حجر العسقلانى : رفع الاصر عن قضاة مصر ورقة ١٧٦ — ١٧٨

(٢) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الأول ص ٨ — ١٢

طويل حتى عزل الملك الظاهر برهان الدين سنة ٦٦٠ هـ، وقد تاج الدين القضاء بديار مصر كلها^(١).

وفي سنة ٦٦٣ هـ (١٢٦٥ م) أدخل بيبرس تعديلا جوهريا على النظام القضائي بمصر، فبعد أن كان يتولى القضاء قاض واحد، عين أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة^(٢). ويرجع السبب في ذلك إلى تعنت تاج الدين وتشدده في أحكامه، فقد حدث أن استشاره السلطان في قضية رفعت إليه بدار العدل من بيت الملك الناصر تضمن أنهم ابتاعوا دارا من القاضي بدر الدين السنجاري، وأن ورثته ادّعوا بعد وفاته أنه موقوف. فأجاب القاضي بأنه إذا ثبتت الوقفية يستعاد الثمن من تركة البائع، فقال السلطان: فإن عجزوا عن الثمن؟ قال: يظل الوقف على أصله؛ فامتعض بيبرس منه. وفي هذه الأثناء قدم رسول صاحب المدينة المنورة وقال: يا مولانا السلطان! سألت هذا القاضي أن يسلم إلى المال الذي تحت يده من الوقف لأنفقته في فقراء المدينة فلم يفعل؛ فسأل السلطان القاضي عن ذلك، فقال القاضي: صدق هذا الرجل؛ أنا لا أعرفه ولا أسلم المال إلا لمن أعرفه... فإن سلمه السلطان أحضرته بين يديه. فقال السلطان: تخرجه من عنقك وتجعله في عنقي لا تسلم المال إلا لمن نختاره ونرضاه. ثم تقدم بعض الأمراء وقال: شهدت عند القاضي فلم تسمع شهادتي في ثبوت الملك وصحته؛ فسأل السلطان القاضي عن ذلك؟ فقال: ما شهد أحد عندي حتى أثبته، فقال الأمير إذا لم تسمع قولي فمن تريد؟ قال السلطان: لم لم تسمع قوله؟ فقال: لا حاجة في ذكر ذلك. فقام الأمير جمال الدين أيدغدى وقال: نحن نترك مذهب الشافعي لك ويولى السلطان من كل مذهب قاض؛ فوافق بيبرس على ذلك وأقر القاضي

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٦٥ و ٧٢؛ السيوطى : حسن المحاضرة

ج ٢ ص ٩٩

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٥؛ Stanley Lane-Poole, p. 274.

تاج الدين بن بنت الأعز في قضاء الشافعية، وولى الشيخ شرف الدين أبا حفص عمر بن عبدالله بن صالح السبكي قضاء المالكية، والقاضي بدر الدين بن سليمان قضاء الحنفية، والقاضي شمس الدين محمد بن الشيخ عماد الدين ابراهيم القدسي قضاء الحنابلة، وكتب لكل منهم تقليدا وأجاز لهم أن يولوا نوابا عنهم بأحياء الديار المصرية،^(١) وأضاف إلى اختصاصات القاضي تاج الدين النظر في ديوان الأحياس وأموال الأيتام والورثة. وعلى الرغم من أن سلطة هذا القاضي ضعفت بعض الشيء على أثر هذا النظام الجديد الذى وضعه الملك الظاهر، فإن بقية القضاة ظلوا يترددون عليه ويعظمونه ولا يتكلم أحد منهم في مجلس السلطان غيره.^(٢)

وكان بمصر إلى جانب هؤلاء القضاة قاض آخر للعسكر يحضر بدار العدل مع القضاة الأربعة ويسافر مع السلطان أنى سافر. وكانت مرتبته في الجلوس بدار العدل بالقرب من السلطان دون مرتبة قضاة المذاهب.^(٣)

٣ - الجيش والبحرية

تغيرت حال الجيش المصرى أيام المماليك وخاصة في عهد بيبرس عما كانت عليه في أيام الدولة الأيوبية. فقد اتخذ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب جيشا من الأكراد ظل عمدة الدولة الأيوبية حتى جاء الملك الصالح نجم الدين أيوب^(٤) فاقتنى عددا كبيرا من المماليك كان معظمهم من الأتراك.^(٥) ويرجع السبب في ذلك إلى المنافسة التي قامت على الملك بينه وبين أخيه العادل الذى كان يرى أنه أولى منه بالملك، فقبض عليه العادل وحبسه بقلعة الكرك، فتفرق عنه جيشه الكردي، ولم يبق

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الأول ورقة ١١٥ - ١١٧ ؛ المقريرى : السلوك ج ١

القسم الثانى ص ٥٣٨ - ٥٤٠ (٢) ابن حجر العسقلانى : رفع الاصر عن قضاة مصر ورقة ١٨١

(٣) الفلقشتدى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٣٦ (٤) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ٧٠

(٥) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p.

معه غير مماليكه وكانوا نحو الثمانين وطائفة من خواصه تبلغ العشرين ، وأقاموا بالكرك حتى أطلق سراحه . فلما تولى الملك بعد أخيه العادل رعى لهم ثباتهم معه حين تفرق عنه الأكراد ، فاستكثر من شرايهم^(١) ، وبني لهم قلعة بجزيرة الروضة جهزها بكثير من الأسلحة والآلات الحربية وغير ذلك من الأزواد والأقوات ، كما أنشأ بها جامعا وستين برجا . وعندما تم بناؤها انتقل إليها بحريه وأهله ، واتخذها دارا للك وأسكن فيها مماليكه البحرية .

وقد ظلت قلعة الروضة عامرة بالممالك حتى زالت دولة بني أيوب وتولى المعز أيك سلطنة مصر ، فأمر بهدمها ونقل جميع من بها إلى قلعة الجبل ، وظل الحال على ذلك حتى ولى الظاهر بيبرس عرش مصر ، فاهتم بعمارة قلعة الروضة وإعادتها إلى ما كانت عليه في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ولما تم بناؤها أسكن الأمراء في أبراجها^(٢) .

ولما ولى المنصور قلاوون سلطنة مصر (٦٨٧ - ٦٨٩ هـ) [١٢٨٠ - ١٢٩٠ م] ، نقل الممالك إلى قلعة الجبل . وما زال يعنى بشئونهم حتى إنه كان يتذوق طعامهم بنفسه في كل يوم . ولم يكن يسمح لهم بمغادرة القاعة ليلا ولا نهارا إلى أن ولى الأشرف خليل بن قلاوون السلطنة (٦٨٩ - ٦٩٣ هـ) [١٢٩٠ - ١٢٩٣ م] ، فسمح لهم بالخروج منها نهارا ومنعهم من المبيت خارجها . ثم بنى الناصر محمد بن قلاوون فيما بعد الطباق بساحة الإيوان بقلعة الجبل وجعلها مقرا للممالك السلطانية ، وسمح لسائر الممالك بالخروج مرة في الأسبوع إلى الحمام ، فكانوا يتناوبون ذلك مع الخدام ثم يعودون إلى القلعة آخر النهار^(٣) .

(١) المقرزى : خطط ج ٢ ص ٢٣٦

(٢) المقرزى : خطط ج ٢ ص ١٨٣ - ١٨١ ؛ السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢

ص ٢٠٠ - ٢٠٣

(٣) المقرزى : خطط ج ٢ ص ٢١٣

وقد وجه بيبرس عنايته إلى إعداد جيش قوى يكون عاتته وقت الحروب؛ فأخذ يستكثر من شراء المماليك الذين يصلحون لهذه المهمة الخطيرة التي كانت تتطلبها البلاد في ذلك العصور وهي محاربة أعدائه من الصليبيين والمغول، كما عني بتربيتهم تربية دينية وعسكرية بأن عين لكل طائفة منهم فقيها يعلمهم القرآن ومبادئ الدين والقراءة والكتابة حتى يصلوا إلى سن البلوغ، ثم يمتزوا بعد ذلك على الأعمال الحربية، فإذا ما أتموا تعليمهم ألحقوا بجيش السلطان^(١).

وكان هذا الجيش يتكون من المماليك السلطانية وجنود الحلقة. ولكل من هاتين الطائفتين مرتبة لا تتجاوزها إلى غيرها: فالمماليك السلطانية هم أعظم الأجناد شأنا وأرفعهم قدرا وأقربهم إلى السلطان ومنهم تؤمّر الأمراء رتبة بعد رتبة. أما جنود الحلقة فكان لكل أربعين جنديا منهم رئيس لا يحكم له إلا إذا خرجوا للقتال؛ فعليه ترتيبهم في مواقفهم وليس له أن يخرج أحدهم من الخدمة إلا بإذن السلطان أو نائبه^(٢).

وكان جنود هاتين الطبقتين يلبسون على رؤوسهم الكواتات الصفراء بغير عمامة، كما كانوا يلبسون على أبدانهم أقمية بيضاء ضيقة الأكم من القطن البعلبكي — وفي بعض الأحيان تكون حمراء أو زرقاء — ويشدون على أوساطهم بنودا من القطن^(٣).

أما عن الأسلحة التي كانوا يستعملونها في حروبهم فمنها السيف والرمح والقوس والشباب. وهناك أدوات حربية استعان بها الملك الظاهر في حروبه ضد الصليبيين والتتار؛ نخص بالذكر منها المجانيق والدبابات ذوات العجل والزحافات والقطاطيع التي كان يهدم بها أسوار القلاع التي يستولى عليها^(٤).

(١) المقریزی : خطط ج ٢ ص ٢١٣ — ٢١٤

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٤ ص ١٤ — ١٥

(٣) وهي أغطية للرأس تلبس وحدها أو بعمامة.

(٤) المقریزی : خطط ج ٢ ص ٩٨

(٥) المقریزی : السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثاني ص ٥١٢ و ٥٢٥ — ٥٢٧

ولم تكن هناك مرتبات ثابتة لهؤلاء الأمراء والأجناد، بل أستعيض عن ذلك بأقطاعات كان يمنحها السلطان لهم . وكان المقطع منهم يحل في الإقطاع محل السلطان ليتمتع بغلاته وإيراداته ، ثم يؤول جميعه إلى السلطان بمجرد انتهاء مدة الإقطاع المتفق عليها أو بسبب وفاة المقطع .

على أن بيبرس كثيرا ما كان يكافئ أمراءه وجنوده الأوفياء بأن ينزل لورثتهم عن حقه في إقطاعاتهم . ولا أدل على ذلك مما فعله بعد وفاة الأمير شهاب الدين القيمرى نائب السلطنة بالفتوحات الساحلية ببلاد الشام وعندما أسر الفرنجة الأمير شجاع الدين والى سرمين^(١) فإنه أعطى ابن الأول إقطاعه وأبقى إقطاع الثانى بين إخوته وغلما^(٢)نه .

ولم تكن هذه الإقطاعات هى الشئ الوحيد الذى كان يمنحه السلطان لأمرائه وأجناده ، بل كان لهم نصيب معين فى الغنائم ، كما كان لهم رواتب أخرى من اللحم والتوابل والعليق والزيت لا علاقة لها بالإقطاع ، فهى هبة من السلطان ، وكانت تصرف فى بعض الأحيان لمن لا إقطاع له من أولاد الأمراء^(٣) .

البحرية — لم تقف مجهودات بيبرس الحربية عند حد اهتمامه بتكوين هذا الجيش ، بل رأى على أثر استقرار ملكه بمصر أنه فى حاجة ماسة الى انشاء أسطول قوى يستعين به فى صد أعدائه الذين يغيرون على بلاده من جهة البحر ، فعمل على إعداد قوة بحرية . وقد لاقى فى ذلك متاعب كثيرة يرجع معظمها الى كراهية أفراد رعيته للحروب البحرية . وكانوا قبل ذلك يرغمون على الاشتغال فى الأسطول اذا دعت الضرورة الى تجهيزه . ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل أصبحت خدمة الأسطول فى عهد الدولة الأيوبية وفى أوائل عهد المماليك عارا يسبب به الرجل ، فاذا

(١) بلدة من أعمال حلب . ياقوت : معجم البلدان .

(٢) المقرزى : السلوك ج ١ ص ٥٠٩ .

(٣) المقرزى : خطط ج ٢ ص ٢١٦ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٥٠ — ٥١ .

قيل لرجل يا أسطولى غضب غضبا شديدا . وقد ظل الحال على ذلك حتى تولى بيبرس عرش مصر فاهتم بإعادة شأن الأسطول الى ما كان عليه في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ومنع الناس من أن يتصرفوا في أخشاب السفن ، كما أمر بإعداد الشوانى في نغرى الاسكندرية ودمياط ، وصار ينزل بنفسه الى دار الصناعة بمصر ويشرف على تجهيزها . وقد تسنى له بذلك أن يعد أسطولا مكونا من أربعين قطعة حربية سيره الى جزيرة قبرس سنة ٦٦٩ هـ ؛ غير أنه لم يلبث أن تحطم بالقرب منها^(٢) . ولما علم بذلك بيبرس شرع في إنشاء أسطول آخر وظل يتردد على دار الصناعة بمصر حتى تم إعداده^(٣) .

وهكذا نجح بيبرس في العمل على إعادة شأن الأسطول الى ما كان عليه في عهد الدولة الأيوبية . وجاء سلاطين المماليك من بعده واقتدوا به في عنايته ببناء المراكب الحربية ؛ فاهتم الأشرف خليل بن قلاوون على أثاره سلاطين مصر (٦٨٩ - ٦٩٣ هـ) [١٢٩٠ - ١٢٩٣ م] بإنشاء أسطول قوى . ولما كملت عدته الستين مركبا أمر بتجهيزها بالآلات الحربية والرجال ، وسار الى « دار الصناعة » بجزيرة الروضة لاستعراض الأسطول ، وأقام لذلك احتفالا كبيرا أقبل اليه الناس من كل حدب وصوب ، وازدحمت الطرق والميادين بالأهالى الذين خرجوا من بيوتهم لمشاهدة هذا الاحتفال . ولما أقبل السلطان خرجت الشوانى والحراريق^(٤)

(١) لعل هذه الكراهية وهذا التعبير بكلمة أسطولى إنما أتى الى المصريين والمماليك من جهة أن الجيوش الصليبية التي حملت على مصر والبلاد الاسلامية كانت تأتي في أساطيل غالبا . فاذا قالوا للرجل يا أسطولى فكأنهم قالوا له أنت مثل هذا الرجل الذى أتى في الأساطيل . (٢) المقرزى : خطط

ج ٢ ص ١٩٤ (٣) المقرزى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٩٥

(٤) الشوانى : جمع شونى أو شينى . وهى أهم القطع التي كان يتألف منها الأسطول وأعظمها شانا وهى مراكب حربية كبيرة كانوا يقيمون فيها أبراجا وقلاع للدفاع والهجوم . وكانت هذه الأبراج مكونة من عدة طبقات تقف في الطبقة العليا منها العساكر المسلحة بالقوس والسهم ، وفي الطبقة السفلى الملاحون بالمجاديف . (٥) الحراريق : جمع حراقة ، وهى مركب حربية كبيرة كانوا يحملون فيها البارود والنפט ؛ ولهذا كانت تسمى حراقة نפט أو حراقة بارود .

والطرائد^(١) واحدة بعد أخرى . وعلى كل من الشوانى برج وقلعة ؛ وتبارى الجند "وما منهم إلا من أظهر عملا معجبا وصناعة غريبة يفوق بها على صاحبه" ، ثم رجع السلطان في عسكره الى القلعة ، وأقام الناس بقية يومهم وليلتهم في لحو ومرح .^(٢) ومن هنا نتبين مقدار ما وصلت اليه مصر في ذلك العصر من التقدم في ميدان الصناعة الحربية والبحرية ، ومبلغ اهتمام سلاطين المماليك بأمر الأساطيل الحربية ، حتى ظهرت مصر بالمظهر اللائق بها بين الدول البحرية وخشى بأسها الأمم المجاورة لها ، ولا سيما بقايا الصليبيين ببلاد الشام الذين بعثوا رسلهم بالهدايا يطلبون صلاحها .

٤ - الحضارة المادية

عمل بيبرس على تنمية موارد الثروة في مصر ، فعنى بترقية الزراعة والصناعة والتجارة فعم الرخاء وامتلات خزائنه بالمال . وقد تيسر له بذلك أن يعتد جيشا قويا يصتد به غارات الصليبيين والمغول التي تطلبت منه أموالا كثيرة ، كما استطاع بفضل هذه الثروة أن يقوم بكثير من الاصلاحات في أنحاء الديار المصرية ، وخاصة بقلعة الجبل والقاهرة التي ظهرت في عهده بمظهر القوّة وفاقت غيرها من مدن العالم الاسلامي في العظمة وال عمران ؛ فكانت دورها محكمة البناء وأسواقها ملاءى بالطرف النفيسة والأهالى يرتعون في بحبوحة من العيش .

(١) الزراعة — وكان للزراعة المحل الأول من رعاية بيبرس ومن خلفه من سلاطين المماليك ، فأقاموا مقاييس النيل وأنشأوا الجسور في كافة أرجاء البلاد . وكانت هذه الجسور على نوعين : الجسور السلطانية وهي الجسور التي يعود نفعها على البلاد عامة ؛ ويتولى صيانتها أمراء الولايات فيصرفون عليها مما يجبونه من مال الخراج ، وما بقي منه يرسلونه إلى خزانة بيت المال . أما النوع الثاني فهو الجسور

(١) الطرائد هي سفن خاصة بحمل الخيول ؛ وكانت تسع نحو أربعين فرسا ، وربما وصلت الى ثمانين فرسا .

(٢) المقرئى : خطط ج ٢ ص ١٩٤ — ١٩٥

البلدية ؛ وهي الجسور التي تعود منفعتها على ناحية من النواحي ، ويتولى صيانتها المقطعون والفلاحون وينفق عليها من مال الناحية التابع لها الجسر .^(١)

وقد وجه بيبرس عنايته إلى كرى الترغ وتطهير الخلجان ؛ كما اهتم بإنشاء القناطر ، فبنى قنطرة على بحر أبي المنجا بناحية ^(٢) بيسوس بمديرية القليوبية ، كما بنى قنطرة على ترعة شبرامنت بالجيزة ؛^(٣) فتمت بذلك ثروة البلاد وازدادت محصولاتها .^(٤)

وكان يزرع بأرض مصر القمح ، وتكثر زراعته ببلاد الصعيد ، وتتراوح غلة الفدان الواحد من أردبين إلى عشرين ، كما كان يزرع بها أيضا الشعير والبقول والحمص وكذلك الكتان — وكان من أهم مزروعات مصر في عصر المماليك — ويزرع القرط (وهو غذاء الدواب) إذا ما أخذ النيل في النقصان ؛ وكان يتراوح محصول الفدان الواحد بين أردبين وأربع وبيات . كذلك اشتهرت مصر في ذلك العصر بزراعة قصب السكر والقطن ، كما كثرت زراعة الخضروات كالباذنجان والمقاتي (الخيار والقثاء) والفجل واللفت والخس والكرب والفواكه : كالعنب والتين والرمان والخوخ والمشمش والقراصية والبرقوق والتفاح والكمثرى والنبق والتوت والموز والزهور : كالورد والبنفسج والرنجس والياسمين واللينوفر والريحان الفارسي على اختلاف أنواعه .^(٥)

وكان بالقاهرة وضواحيها كثير من البساتين نخص بالذكر منها بساتين اللوق التي عنى بيبرس بغرسها سنة ٦٦٢ هـ ، وبستان ابن ثعلب بالقرب من ميدان السلطان الصالح أيوب ، وبستان البورجى بالقرب من المقس . وكان يزرع بهذه البساتين جميع أنواع الفاكهة والأزهار .^(٦)

- (١) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٤٨ — ٤٤٩ (٢) يرجع تاريخ إنشاء هذه التربة إلى أيام الأفضل بن بدر الجمالي سنة ٥٠٦ هـ . وقد أشرف على حفرها أبو المنجا اليهودي فعرفت باسمه . المقرئى : خطط ج ١ ص ٤٨٧ — ٤٨٨ (٣) قرية صغيرة تقع على الشاطئ الشرقى لفرع دمياط واسمها الحالى باسوس . على مبارك باشا : الخطط التوفيقية ج ١٠ ص ٢٥
- (٤) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٤٤٥ — ٤٤٦ و ٦٣٨ — ٦٣٩
- (٥) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣١١ — ٣١٣ و ٤٥٣ — ٤٥٤
- (٦) المقرئى : خطط ج ٢ ص ١١٧ — ١١٨

(ب) الصناعة — كذلك كان للصناعة النصيب الأوفر من عناية بيبرس وخاصة ما كان متصلا منها بالحرب وأدواتها ؛ فإن الدولة المصرية في ذلك الحين كانت في حاجة إلى جيش قوى يحمي حدود امبراطوريتها الواسعة . وكان لابد من تامين هذا الجيش بالملابس والآلات الحربية .

وقد فطن بيبرس لذلك فوجه اهتمامه إلى ترقية مراكز صناعة المنسوجات ؛ فخص بالذكر منها مدينتي تنيس ودمياط التي برز سكانهما في عمل الثياب الملونة والفرش النادرة المثال ، كما اشتهرتا بجياكة الثياب المصنوعة من الكتان^(١) .

وكان يصنع بتنيس قصب ملون تتخذ منه العمام . أما دمياط فقد برز أهلها في صناعة القصب الأبيض ، وهو عبارة عن قماش من تيل رقيق . وكان يصنع بها أيضا نوع من القماش يسمى البوقلمون ذو ألوان براقة تلامأ إذا انكسرت عليها أشعة الشمس ، ويتغير لونه باختلاف ساعات النهار^(٢) . كذلك اشتهرت القيس والبهنسا بصنع المنسوجات الصوفية^(٣) . ومن هذه المراكز الصناعية كان السلطان يمد أفراد جيشه بالملابس ويخلع على أمراء دولته وأفراد حاشيته بما يناسب رتبهم .

أما الآلات الحربية وجميع لوازم التعبئة فكان لها أسواق بالقاهرة . وكثيرا ما كانت تزدهم هذه الأسواق بالأمراء والجنود . ويرتفع سعر الحديد وأجر الحدادين وصناع آلات السلاح في الوقت الذي يثخن فيه بيبرس الغارة على أعدائه ببلاد الشام ، وذلك لكثرة إقبال الناس على شراء آلات الحرب^(٤) .

وقد حافظت مصر على بعض الصناعات التي اشتهرت بها من عهد بعيد . ومن هذه الصناعات صناعة الفرش والبسط التي مهـر في صناعتها أهل دمياط

(١) القلقشندي : ج ٣ ص ٣٨٧ — ٣٨٨ (٢) الهواري : رسالة في وصف

محتويات دار الآثار العربية ص ٩٠ (٣) المقرئزي : خطط ج ١ ص ٢٠٤

(٤) المقرئزي : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٥١٢ و ٦٢٦

وكذلك صناعة السكر من القصب الذي كان يزرع ببعض جهات الوجه القبلي مثل
ملوى وسمهود وقفط. وكانت هذه الصناعة في عصر بيبرس على ما يظهر لنا ناشئة؛
وقد بلغت أوجها في عهد الناصر محمد بن قلاوون. يتحدثنا المقرئ ^(١) أنه كان
بسمهود سبعة عشر حجرا لعصير القصب، كما كان بملوى عدة أحجار. وكان يسكن
بهذه المدينة في عهد الناصر أسرة من أصحاب الأراضى تدعى أسرة أولاد فضل
بلغت مساحة الأرض التي زرعوها قصب سكر ألفا وخمسمائة فدان في العام.
وقد أودع أصحاب هذه الأراضى في مخازنهم اثنين وثلاثين ألف قنطار من
محصول سنة ٧٣٨ هـ.

وكان الزجاج أيضا يصنع بمصر في عصر بيبرس ومن خلفه من سلاطين المماليك.
ولا أدل على ذلك من هذه المشكاوات الزجاجية المحفوظة بدار الآثار العربية
بالقاهرة، ومن بينها مشكاة من زجاج غير ملون على عنقها زخارف. وعلى البدن
كتابة حمراء نصها: "مما عمل برسم التربة المباركة السلطانية الملكية الأشرفية
الصلاحية تغمد الله صاحبها بالرحمة والرضوان". ويؤخذ من هذه الألقاب أنها
عملت برسم تربة السلطان خليل بن قلاوون الذي قتل سنة ٦٩٣ هـ. وكذلك
بالدار مشكاة أخرى على رقبتها آية قرآنية، وعلى بدنها اسم السلطان الناصر محمد
ابن قلاوون، ومن بين زخارفها كثير من الطيور المتقنة الرسم ^(٢).

وهناك صناعة أخرى غنى بها المصريون منذ عهد بعيد وظلت مستمرة
في مصر في عصر المماليك وهي صناعة المعادن؛ فقد اتخذوا من الذهب الثريات
والنوافذ لبيوت سلاطينهم. وليس أدل على ذلك من قاعة «البيسرية» التي بناها.

(١) المقرئ: خطط ج ١ ص ٢٠٣ — ٢٠٤

(٢) المشكاوات: جمع مشكاة وهي المصباح. وقد ورد في القرآن "الله نور السماوات والأرض
مثل نوره كمشكاة فيها مصباح". [سورة النور]

(٣) الهوارى: رسالة في وصف محتويات دار الآثار العربية ص ١٠٣ — ١٠٦

السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون في قصره سنة ٧٦١ هـ . فقد ذكر المقرئى^(١) أنه كان بها تسع وأربعون ثريا . وكان جملة ما دخل فيها من الفضة البيضاء الخالصة المضروبة ٢٢٠,٠٠٠ درهم كلها مطلية بالذهب . وكان ارتفاع بناء هذه القاعة ٨٨ ذراعا . وعليها برج مطعم بالعاج والأبنوس ، وبها شبابيك من الذهب الخالص . وكان بتلك القاعة قبة مصنوعة من الذهب تزن ٣٨,٠٠٠ مثقال . وقد أنفق على صنع هذه القاعة مليون درهم من الفضة وهذا يعادل ٥٠٠٠٠ دينار من الذهب .

وقد مهر الصناع المصريون فوق ذلك في صناعة الآنية . يتبين ذلك من هذه الهدية التي أرسلها بيبرس الى بركة خان سلطان مغول القفجاق والتي كانت تشتمل على كثير من الأواني الصينية^(٢) .

كذلك اهتم الممالك بصناعة الأدوية . وان في مارستان قلاوون الذي يعرف الآن بمستشفى قلاوون لمثلا حيا لارتقاء هذه الصناعة في هذا العصر . فقد بنى قلاوون سنة ٦٨٣ هـ بناء نفخا يحتوى على مارستان وقبة ومدرسة ، وأعد به غرفا متسعة فرشها بالأسرة للرضى من الفقراء والأغنياء على السواء ، وجعل بها قسما خاصا بالنساء ، كما خصص الايوانات الأربعة للرضى بالحجى ، وأفرد قاعة للصايين بالرمد وقاعة للجرحى وقاعة للصايين بالدوستناريا ، كما أنشأ به معملا كيميائيا أعدّه بكافة أنواع الآلات والأجهزة الطبية^(٣) .

ومن الصناعات التي أولاها بيبرس عنايته صناعة السفن . فقد أنشأ دورا لصناعتها بجزيرة الروضة وبتغرى الاسكندرية ودمياط^(٤) . وكان يذهب بنفسه

(١) المقرئى : خطط ج ٢ ص ٢١١ — ٢١٢

(٢) مفضل بن أبي الفضائل : كتاب النهج السديد ص ١١٢

(٣) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p.41

(٤) المقرئى : خطط ج ٢ ص ١٩٤ و ١٩٧

الى دار الصناعة بالجزيرة ويتفقد أمورها ، كما كان يباشر إعداد المراكب الحربية قبل مسيرها لغزو البلاد الأجنبية .

(ج) التجارة — ولم تقتصر مصر على ما كانت تنتجه أرضها الحصبة من المحصولات وما كان يقوم به أهلها من الصناعات ، بل استفادت من موقعها الجغرافي ، فتبادلت التجارة مع غيرها من الدول في عهد بيبرس الذي عنى توليته عرش مصر بنشر التجارة المصرية ، وعقد لذلك المعاهدات التجارية مع شارل صاحب أنجو (Anjou) وألفونس (Alfonso) أمير اشبيلية وجيمس ملك أرجونة^(١) . غير أن هذا الأخير لم يلبث أن قطع علاقته التجارية مع مصر بأن أصدر أوامره سنة ١٢٧٤ م بمنع تصدير المعادن وأدوات بناء السفن إليها . ويرجع السبب في ذلك إلى القرار الذي أصدره البابا جريجورى العاشر (١٢٧١ — ١٢٧٦ م) لأهالى مونتبيليه (Montpellier) بمنع التجارة مع المسلمين^(٢) .

ولما ولى قلاوون سلطنة مصر حافظ على العلاقات الودية ، التي أحكم أوامرها بيبرس مع سلطان مغول القفجاق وأمباطور القسطنطينية ، كما أبرم معاهدة دفاعية بينه وبين ألفونس صاحب قشتالة وجيمس ملك صقلية . كذلك وفدت عليه الوفود من اليمن تحمل الهدايا من الخصيان والفيلة وأنواع البغاء^(٣) . وكان لذلك أثره في استقرار تبادل التجارة بين مصر وهذه الدول .

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل عقد قلاوون معاهدة تجارية مع جنوة ، كما أرسل إليه حاكم جزيرة سيلان سفارة سنة ١٢٨٣ م ، ومعها كتاب تعذر على رجال

(١) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p.266

(٢) W. Heyd, Histoire du Commerce du Levant au moyen age

pp. 422. 423.

(٣) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt

pp. 37-38.

حاشيته قراءته . وقد دعاه هذا الحاكم إلى تبادل التجارة مع جزيرته الغنية ، وذكر له في كتابه ما يمتلكه من السفن وما تنتجه جزيرته من المحصولات وما يصنع بها من المنسوجات وما يستخرج منها من اللؤلؤ والأحجار الثمينة ، كما بين له أن المصريين سيجدون في جزيرة سيلان حاجتهم مما كان يستورد من بلاد الهند ، وأخيرا طلب من السلطان أن يعين مندوبا له بعدن^(٢) . ولعل السبب في ذلك يرجع إلى رغبة هذا الحاكم في تسهيل المبادلات التجارية بين البلدين .

وقد لقيت هذه الرغبة قبولا لدى قلاوون ، لأنه كان يبني من وراء ذلك تشجيع التجارة مع الشرق . وكان كبيرس رجلا إداريا بعيد النظر ، فبذل جهدا كبيرا لجذب التجار إلى مصر ، كما أنشأ جوازات للتجار تكفل لهم الطمأنينة على أنفسهم وأموالهم في أسفارهم بين مصر والشام والهند وغيرها من البلدان^(٣) .

وهكذا زادت تجارة مصر الخارجية في ذلك العصر بفضل المحالفات والمعاهدات التجارية التي عقدها كل من بيبرس وقلاوون مع الدول الأوروبية والشرقية ، وأيضا بسبب اتصال أوروبا بالشرق على أثر قيام الحروب الصليبية . فقد كان الأيوبيون ومن بعدهم من المماليك أصحاب النفوذ المطلق في سورية ، ف وقعت في قبضتهم جميع الموانئ وطرق القوافل بين أوروبا وبلاد الهند وغيرها من بلاد الشرق الأقصى .

وكانت التجارة ترد إلى مصر من أوروبا عن طريق الاسكندرية ودمياط ، ومن الهند والشرق الأقصى عن طريق الخليج الفارسي نخلج عدن فالبحر الأحمر حتى عيذاب ، ومنها تحمل على ظهور الإبل إلى قوص ، ثم تنتقل في النيل إلى فندق الكارم بالفسطاط^(٤) .

(١) Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 281

(٢) W. Heyd, Histoire du Commerce du Levant au moyen age p. 426

(٣) Stanley Lane-Poole, Op. Cit. p. 281.

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٦٨

وكان من أثر هذه السياسة التي اتبعها ببيرس لتسهيل سبل التجارة المصرية أن نشطت أيضا حركة التجارة الداخلية بمصر . فأصبحت أسواق القاهرة تموج بكار التجار، كما كانت الحوانيت تضيق بالمباعة في بعض الأحيان .

ومن أهم الأسواق التجارية التي كانت بالقاهرة في ذلك العصر سوق الفرائين ويباع به الفراء على اختلاف أنواعه ، وسوق الجمالون الصغير وبه كثير من حوانيت البزازين الذين يبيعون الأقمشة القطنية والكتانية ، وسويقة أمير الجيوش^(١) وكانت من أهم أسواق القاهرة وتشتمل على عدة حوانيت للرفائين والرسامين ، وسوق الشرايين^(٢) وكان يباع به الخلع التي كان يمنحها السلطان للأمرء والوزراء والقضاة وغيرهم من كبار رجال الدولة ، وسوق الحلاويين وكان من أجهج الأسواق وتباع به الحلوى المصنوعة من السكر، وكانوا في ذلك العصر يتفنونون في صنعها على عدة أشكال (وهي تشبه ما يصنع الآن في معامل الحلوى في المواسم والأعياد والموالد) . وإلى جانب هذه الأسواق كان بالقاهرة أسواق أخرى تليها في الأهمية ويباع بها الطرف والأمتعة والمأكولات .

(د) موارد الدولة المالية — ولقد سار ببيرس على سياسة تحقيق التوازن بين موارد دولته ومصارفها ، فعين القاضي كمال الدين طاهر وكيلًا لبيت المال وكلفه بالعمل على صيانتها والتصرف فيه لصالح الدولة المصرية .

(١) كان سوق الفرائين يقع بالقرب من الجامع الأزهر . أما سوق الجمالون الصغير فكان بالقرب من باب النصر وتقع سويقة أمير الجيوش بين حارة برجوان وحارة بهاء الدين بن حنا .
(٢) سمي بذلك نسبة إلى الشرايين التي كانت تباع به وهي أغطية للرأس مثلثة الشكل تلبس من غير عمامة .

(٣) المقریزی : خطط ج ٢ ص ٩٨ — ١٠١ و ١٠٣

(٤) المقریزی : خطط ج ٢ ص ٣٧٨

وكانت المصادر الرئيسية لموارد الدولة في عهد الملك الظاهر تتحصر فيما يأتى :
 (١) الخراج - وكان يجبي على حسب غلة الأراضي . فكان أكثر خراج الوجه القبلى عينا ويتراوح ما يؤخذ من كل فدان يزرع قمحا أو شعيرا أو حمصا أو فولا ما بين أردبين إلى ثلاثة ، وفي بعض الأحيان يؤخذ مع كل أردب درهم أو درهمان . أما الوجه البحرى فأغلب خراج أرضه نقدا . وكانت الضريبة تزيد وتنقص حسب إنتاج الأرض .

(٢) الزكاة - وكانت تؤخذ على الأغنام التي كثيرا ما كان يملكها قبائل عربية وتركمانية ، كما تؤخذ من أصحاب الأموال والتجار عن كل مائة درهم خمسة دراهم .

(٣) الجزية - وكان يدفعها أهل الذمة الذين يقيمون في القاهرة ، وتراوح بين عشرة دراهم وخمسة وعشرون درهما عن كل شخص . وأما من كان يقطن منهم في خارجها فيأخذ المقطع الجزية المفروضة عليهم .

(٤) ما يفرض على التجار الأجانب القادمين إلى مصر وكان يؤخذ منهم العشر على بضائعهم .

(٥) ما يحصل من الرسوم الجمركية على التجارة الخارجية التي تمر في ثغور عيذاب والاسكندرية ودمياط . وبجانب ذلك كان هناك ضرائب أخرى تفرض على التجارة التي ترسو بها السفن على سواحل مصر في طريقها إلى بلاد الشام .

(٦) المعادن التي تستخرج من المناجم المصرية - وأهمها معدن الزمرد ويوجد بكثرة بالقرب من قوص - وكذلك معدن الشب بالواحات والنطرون . وكان يتولى استخراج هذه المعادن مباشرون وأمناء من قبل السلطان ، وظلهم جمع ما يستخرج منها وحمله إلى الخزائن السلطانية .

(٧) التركات التي لا وارث لها . وكان يتولى الاشراف عليها في حاضرة الديار المصرية ناظر من قبل السلطان ومهمته جمع إيرادها وإرساله إلى بيت المال . وأما ما هو خارج عن حاضرة الديار المصرية فلها مباشرين يقومون بإرسال ما يتحصل منها إلى ديوان السلطان .

٥ - منشآت بيبرس

اتخذ بيبرس قلعة الجبل^(١) مقرا لحكمه وسار على سياسة من سبقة من سلاطين مصر في تجميل مدينة القاهرة وضواحيها . فأسس بها مدرسة زودها بالكتب التي تبحث في سائر العلوم . وقد شرع في بنائها سنة ٦٦٠ هـ بخط بين القصرين بالقاهرة على أنقاض قاعة الخيم^(٢) . ووقف عليها أوقافا ، وأمر بالأستخدام في عمارتها عامل بغير أجرة وألا ينقص مرتب من يقوم بتشيدتها .

ولما فرغ من بنائها سنة ٦٦٢ هـ دعا العلماء والفقهاء والقراء للاجتماع بها ؛ بفلس أتباع المذهب الشافعي بالايوان القبلي والحنفية بالايوان البحري وأهل الحديث بالايوان الشرقي والقراء بالايوان الغربي . وعين لكل فريق من هؤلاء مدرسا . وعند ما اكتمل جمعهم تناظروا في شتى المسائل ثم مدت لهم الأسمطة . وقام بعض الشعراء فأشادوا شعرا أشادوا فيه بذكر هذه المدرسة ومؤسسها الملك الظاهر . ولما أرفض مجلسهم منحهم السلطان الخلع .

ولم يكتف بيبرس بإنشاء هذه المدرسة ، بل بنى بجوارها مكتبا لتعليم أيتام المسلمين كتاب الله تعالى ، وقرر لمن فيه الخبز في كل يوم والكسوة في فصلي الشتاء

(١) تقع بين ظاهر القاهرة وجبل المقطم والفسطاط . وقد عهد بإنشائها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى بهاء الدين قراقوش لتكون مركزا للحكومة وقلعة للجند . وتمت عمارتها في عهد الملك الكامل بن العادل أبي بكر بن أيوب سنة ٦٠٤ هـ ، فانتقل من قصر الفاطميين إليها . وظلت منذ ذلك الحين مقرا لسلاطين الأيوبيين والمماليك . القلقشندي : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٧٢

(٢) وهي إحدى قاعات القصر الفاطمي الكبير الذي بناه جوهر للعز الدين الله الفاطمي .

(١) والصيف ؛ ثم شرع في سنة ٦٦٥ هـ في بناء الجامع الظاهري ، فأرسل الأتابك فارس الدين أقطاي والصاحب نجر الدين بن حنا ومعهما بعض المهندسين للبحث عن مكان يليق لأن يقام عليه مسجد بجهة الحسينية ؛ فوقع اختيارهم على مناخ^(٢) الجمال السلطانية ، فلم يلق هذا الاختيار قبولا لدى الملك الظاهر وقال : " لا والله لا جعلت الجامع مكان الجمال ، وأولى ما جعلته ميداني الذي ألعب فيه بالكرة وهو نزهي " . ثم ركب إلى ميدان قراقوش وقترأيه على أن يبني الجامع على جزء منه وأن يوقف بقيته عليه ، ثم شرع في استحضار الرخام والأخشاب وأدوات البناء من سائر الولايات .

ولما فرغ من إعداد معونات البناء توجه إلى المدرسة الظاهرية وجلس بين الفقهاء والقراء وقال : " هذا مكان جعلته لله عز وجل وخرجت عنه وقفاً لله ، فإذا مت لا تدفنوني (كذا في الأصل) هنا ، ولا تغيروا معالم هذا المكان ، فقد خرجت عنه الله تعالى " .

ولم تقف عناية بيبرس ببناء هذا الجامع عند هذا الحد ؛ بل إنه عندما استولى على يافا وهدم قلعتها ، شحن مركبا من رخامها وأخشابها إلى القاهرة ، وأمر بأن يبني من هذا الخشب مقصورة الجامع الظاهري . ولما انتهت عمارته سار إليه سنة ٦٦٧ هـ ، وعين له خطيبا حنفي المذهب ، وخاع الخلع على من تولى الإشراف على بنائه . وكان من بينهم الصاحب بهاء الدين بن حنا والأمير علم الدين سنجر والى القاهرة^(٣) .

كذلك اهتم بيبرس بإعادة الجامع الأزهر إلى ما كان عليه في عهد الفاطميين . وكانت صلاة الجمعة قد أبطأت منه منذ تولى قضاء مصر صدر الدين عبيد الملك

(١) المقریزی : خطط ج ٢ ص ٣٧٨ — ٣٧٩ ؛ أبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ٣

القسم الثاني ص ١٩٠ .

(٢) هو المكان المخصص لأنواع الجمال السلطانية كالاصطبلات لأصناف الخيل

(٣) المقریزی : خطط ج ٢ ص ٢٩٩ — ٣٠٠ .

ابن درباس في عهد السلطان صلاح الدين^(١). وقد ظل الأزهر معطلا من الخطبة إلى أن سكن بجواره الأمير عز الدين أيدير الحلبي، فزاعه ما آل إليه هذا الجامع وتحثت مع الملك الظاهر في مسألة إصلاحه، فأمدته ببعض الأموال للانفاق عليه. وتبرع الحلبي أيضا بأموال كثيرة لهذا الغرض، واستطاع بذلك أن يعمر الواهي من أركانه وسقوفه وجدرانه وأستجد به مقصورة ومنبرا.

وعند ما فرغ من ترميمه تناقش الناس في هل تصح إقامة صلاة الجمعة به أم لا؛ فأجاز ذلك جماعة من الفقهاء، وعارض قاضي القضاة تاج الدين بن بنت الأعز في إقامة الصلاة به. فشكا الحلبي ذلك إلى السلطان، فتحدث الأخير مع قاضي القضاة في هذه المسألة فصمم على المنع. فما كان من الحلبي إلا أن عمل بفتوى من أجاز إقامة الصلاة به، وطلب من السلطان أن يحضر، فامتنع عن الحضور. ألم يحضر قاضي القضاة^(٢).

وعلى الرغم من ذلك أقيمت به صلاة الجمعة في ١٨ ربيع الأول سنة ٦٦٥ هـ، وأدخلت عليه تعديلات أخرى، فأنشأ به الأمير بدر الدين بيليك الخازندار مقصورة كبيرة عين بها مدرسا وجماعة من الفقهاء الشافعية ومحدثا يتلو الحديث النبوي وسبعة قراء لقراءة القرآن الكريم ووقف عليه أوقافا^(٣).

ولم يكن هذا كل ما قام به بيبرس من ضروب الإصلاح؛ فقد بنى برجا بقلعة الجبل، وشيد قناطر السباع^(٤) على الخليج المصري، وأصلح ما تهدم من كل من منارتي رشيد والأسكندرية، وحدث سور الأخيرة، وردم فم بحر دمياط حتى لا يتمكن الفرنجة

(١) ذكر المقرئزي: مخطوط ج ٢ ص ٢٧٥ - ٢٧٦؛ أن الخطبة كانت تقام في جامع الأزهر والحاكم قبل أن يقد صلاح الدين قضاء مصر لعبد الملك بن درباس وأن هذا القاضي لما تولى القضاء عمل بمقتضى مذهب الامام الشافعي وهو منع إقامة خطبتين للجمعة في بلد واحد، فأبطل الخطبة من الجامع الأزهر وأقرها بالجامع الحاكمي لاتساعه. (٢) المقرئزي: السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٥٥٦ - ٥٥٧

(٣) النويري: نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الأول ورقة ١٣٤

(٤) عرفت بذلك لأن بيبرس نصب عليها سباعا من الحجارة. المقرئزي: مخطوط ج ٢ ص ١٤٦

من العبور إذا ما أرادوا الإغارة عليها من طريق البحر، واختط قرية بمديرية الشرقية قرب العباسة سماها الظاهرية .

ولم تكن عناية بيبرس بالفنون مقصورة على القاهرة وحدها ، بل تعدتها إلى المدينة المنورة وأمّهات مدن الشام . فقام بعدة إصلاحات بالحرم النبوي ومارستان المدينة وقبة الصخرة ببيت المقدس ، وجدّد مسجد سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام ، وشيد القصر الأبلق بدمشق على قواعد ثابتة ودعم أركانه فظل حاضرا حتى هدمه تيمورلنك سنة ٨٠٣ هـ (١٤٠١ م) .

أما عن فن العمارة في عصر بيبرس فإنه لم يتخذ طابعا خاصا كما لم يستقر على قواعد ثابتة . فقد أسس الملك الظاهر مدرسته على نمط المدارس التي بنيت في عهد الدولة الأيوبية ، وكانت عبارة عن بناء مبني على سمت القبلة وفي وسطه صحن كبير مربع ، وفي كل جانب من جوانبه الأربعة إيوان مقبب وبها محراب . ومن ثم كانت المدرسة لا تخرج عن كونها مسجدا .

ولما شرع بيبرس في إنشاء الجامع الظاهري استعمل في بنائه لأول مرة مداميك الحجر الأبيض والأحمر على التوالي ، كما زينه بزخارف متخذة من الجص . وقد ظلت هذه الزخارف ملحوظة في طرز واجهات أبنية قلاوون الذي ابتداء يدخل في أيامه على فن المعمار شيء من المحسنات الأجنبية ؛ غير أن ابنه الناصر عند ما تولى سلطنة مصر شرع في تطهير صناعة الأبنية العربية مما دخل عليها . وقد سار على منواله أهل بيته وغيرهم من رجالات دولته . وكان لذلك أثره في ارتقاء فن العمارة في مصر .

(١) المقرريزي : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٤٤٥ — ٤٤٦ و ٥٦١ و ٥٦٣ — ٥٦٤
و ٦١٦ ؛ العيني : عقد الجمان ج ٢٠ المجلد الرابع ورقة ٦٢٠ — ٦٢١ (٢) أي طبقات من الحجر الأبيض والأحمر المتلاصقة بالملاط (المونة) .

(٣) Sir William Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt p.41.

(٤) مكس هرتس بك : لمعة في تاريخ فن المعمار وسائر الفنون الصناعية المصرية ص ٣٦ — ٣٧

(تعريب على بك بهجت) .

٦ - الحياة العلمية والأدبية

وجه بيبرس عنايته إلى نشر العلوم الإسلامية ، فشيّد لذلك المدارس وزوّدها
بمخيرة العلماء والفقهاء ، وأعاد الجامع الأزهر إلى ما كان عليه في عهد الفاطميين ،
فصار الطلاب يهرعون إليه من كل أرجاء العالم الإسلامي ، فاستعادت بذلك
القاهرة مكانتها العلمية والأدبية ، ونبغ بها بعض الكتاب والمؤلفين ومن مشاهيرهم :
محيي الدين بن عبد الظاهر وابن خلكان وجمال الدين بن واصل .

ويمتاز ابن عبد الظاهر^(١) بأنه نشأ بالقاهرة وتلقى بها علومه ، وبرع في نظم الشعر
وكتابة الرسائل والتاريخ . ومن مؤلفاته كتاب " السيرة الظاهرية " ويشتمل على
تاريخ الملك الظاهر بيبرس . وهو من المراجع الهامة التي يعتمد عليها في استقصاء
تاريخ هذا السلطان . وقد نقل عنه كل من النويري في كتابه نهاية الأرب ومفضل
ابن أبي الفضائل في كتابه " النهج السديد " .

أما ابن خلكان^(٢) فقد نشأ بمدينة إربل ثم انتقل إلى القاهرة سنة ٦٣٦ هـ بعد
ما تلقى علومه في حلب ودمشق . ومن مؤلفاته كتاب " وفيات الأعيان وأنباء أبناء

(١) ولد محيي الدين بالقاهرة في ٩ من المحرم سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢٣ م) ومات بها سنة ٦٩٢ هـ
(١٢٩٢ م) . ولما تولى بيبرس عرش مصر عينه كاتباً لسره بديوان الإنشاء وعهد إليه بأداء بعض المهام ،
فتولى قراءة نسب الخليفة العباسي سنة ٦٦١ هـ . وكتب تفويض عهد السلطنة لولي عهده الملك السعيد
في سنة ٦٦٢ هـ ، كما كلفه بالذهاب إلى عكا سنة ٦٦٦ هـ ليحلف أميرها على طاعة السلطان . وظل في منصبه
طوال عهد بيبرس وولديه والمنصور قلاوون والأشرف خليل . Enc. Isl. art. Ibn abd al-Zahir .
(٢) ولد ابن خلكان سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١ م) بمدينة إربل من أعمال الموصل وينسب إلى أسرة
يحيى بن خالد البرمكي . وقد بدأ دراسته سنة ٦٢٦ هـ تحت إشراف ابن شدّاد في حلب ثم انتقل منها إلى
دمشق وأقام بها مدة . ولم يلبث أن قدم إلى القاهرة سنة ٦٣٦ هـ ، فعين بها نائباً لقاضي القضاة يوسف
ابن حسن السنجاري . ولما تولى بيبرس عرش مصر عينه سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١ م) قاضياً للقضاة بدمشق ،
ثم عزل سنة ٦٦٩ هـ (١٢٧١ م) فاشتغل بالتدريس بالمدرسة الفخرية التي أسسها الأمير نجر الدين استادار
الملك الكامل سنة ٦٢٢ هـ ، وقضى بها سبع سنوات عاد بعدها إلى منصبه الأول بدمشق ثم عزل منه
سنة ٦٨٠ هـ (١٢٨٢ م) . وتوفي في السنة التالية ٦٨١ هـ Nicholson, a Literary

الزمان“، وهو يحتوي على معلومات قيمة في التاريخ والأدب، ويمتاز بضبط الأعلام وأسماء البقاع والبلدان وتحقيق الحوادث وترتيب التراجم على حسب حروف المعجم .

ولم يكتب لنا ابن خلكان شيئاً عن بيبرس على الرغم من أنه عاصره وتوفي بعده بخمس سنوات ، بخاء ابن شاكر الكتبي في فوات الوفيات فاستدرك ما فات ابن خلكان وكتب عن الظاهر بيبرس .

كذلك نشأ جمال الدين بن واصل^(١) من منبت أجنبي عن مصر . فقد ولد بجماه وبها تعلم وتأدب ، ثم قدم إلى القاهرة سنة ٦٥٩ هـ . ومن تأليفه ” كتاب نخبة الفكر في المنطق “ و ” مفرج الكروب في أخبار بني أيوب “ . وقد وقف ابن واصل عن تأليف هذا الكتاب الأخير أثناء سنة ٦٦١ هـ (١٢٦٢ م) . ويرجع السبب في ذلك إلى ذهابه إلى صقلية حوالى ذلك الوقت وإقامته هناك عدة سنين . أما بقية التي تنتهى بسنة ٦٨٠ هـ (١٢٨١ م) فهي من تلخيص الكاتب الذى استملاه لكتاب آخر اسمه التاريخ . ويظهر لنا ذلك من هذه العبارة التي وردت في كتاب ” مفرج الكروب “ (ج ٢ ص ١٤٢٥) ونصها : ” قال الفقير إلى رحمة الله تعالى وعفوه نور الدين على بن عبد الرحيم بن أحمد الكاتب المظفرى انتهى إلى هاهنا إمام القاضى الإمام العلامة جمال الدين محمد بن سالم بن واصل رحمه الله تعالى ، ولم نستوعب حوادث سنة إحدى وستين وستمائة ، وجرت أمور كثيرة ونحن نذكر بعون الله تعالى مختصراً من تمام التاريخ على حسب الطاقة ونسأل الله تعالى المعونة في ذلك إنه على كل شيء قدير وإليه المصير “ .

ومن ذلك نرى أن دراسة التاريخ في عصر الملك الظاهر كانت في المحل الأول من عناية الكتاب ، ولم يعن أحد منهم بدراسة العلوم النقاية كالجغرافية والفلسفة

(١) كان في أول عهده مدرساً بجماه ، ثم قدم إلى القاهرة سنة ١٢٦١ ، فأرسله الملك الظاهر إلى مفرد ملك صقلية ليتفق معه على عقد معاهدة بين البلدين ، ففرض هناك وقتاً طويلاً ألف فيه كتابه ” نخبة الفكر في المنطق “ Enc. Isl. art Ibn Wasil.

والكيمياة والفلك . وقد يكون هذا راجعا إلى أن الدراسة في ذلك الوقت كانت مقصورة على العلوم الدينية .

وكان من مظاهر الأدب في هذا العصر النثر الفنى والنظم . وقد تجلّى الأول في الرسائل التي كانت تحترق بديوان الإنشاء باسم السلطان وترسل إلى حلفائه من الملوك والأمراء وإلى ولايته وعماله بالأقاليم . وكان يعنى فيه بتزيين الألفاظ وتجميلها بالسجع وغيره من ضروب التحلية . أما النظم فإنه على الرغم مما أصابه كان أرقى من النثر كثيرا ، لأن تقيده بالوزن والقافية لم يجعل فيه متسعا لتراكم المحسنات اللفظية وتزاحمها . ولم يصل إلينا منه إلا النذر اليسير ، وأغلبه مدح للسلطان ووصف لانتصاراته .

ومن أشهر الشعراء الذين ظهروا في عصر بيبرس : الشيخ عبد العظيم بن الجزار وكان من فحول الشعراء^(١) . ومن شعره الرقيق قوله يشكو بعض أبناء زمنه :

من منصفى من معشر كثروا على وأكثروا
صادقتهم وأرى الخرو ج من الصداقة يعسر
كالخط يسهل في السطو ر ومحوه يتمدّر
وإذا أردت كشطته لكن ذاك يؤثر

ومن الشعراء الذين عاصروا بيبرس مجاهد بن أبي الربيع سليمان بن مرهف المصرى المتوفى سنة ٦٧١ هـ . وكان فاضلا أدبيا . ومن شعره^(٢) :

أعد يابرقُ ذكرى أهل نجد فإن لك اليد البيضاء عندي
أشيمك بارقا فيضلُ عقلي فواعجبا تفضل وأنت تهدي
بعثت مع النسيم له سلاما فأعنوا على له برد

(١) ابن إياس ج ١ ص ١٠٨ - ١٠٩

(٢) ابن شاعر الكندي : عيون التواريخ ج ٢١ القسم الأول ورقة ٣١

وهناك شاعر آخر عاش في عصر بيبرس ، وهو شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجى البوصيرى المتوفى سنة ٦٩٥ هـ . وقد ولد هذا الشاعر بدلاص من قرى مديرية بنى سويف سنة ٦٠٨ هـ ، ونشأ ببوصير وانتقل إلى القاهرة ، وفيها تعلم علوم العربية والأدب ، واشتغل بالكتابة والشعر ، وولى الكتابة فى الدواوين ، وتصرف فى مناصب كثيرة بالقاهرة والأقاليم ، وبإشراف بليس قصبه الشرقية فى ذلك الحين . ولم يرق فى نظره هذا العمل لما كان يراه من خيانة بعض العمال وسلب أموال الدولة فقال فىهم قصيدته المشهورة التى مطلعها ^(١) :

تَقَدَّتْ طَوَائِفُ الْمُسْتَحْدِمِينَ فَلَمْ أَرْ فِيهِمْ رَجُلًا أَمِينًا
فَقَدَّ عَاشِرَتَهُمْ وَلَبِثْتُ فِيهِمْ مَعَ التَّجْرِبِ مِنْ عَمْرِى سَنِينًا

و يمتاز شعر البوصيرى بالرصانة والجزالة ويكثر فيه مراعاة البديع . ومن شعره قصيدة البردة وهى من أفضل مدائح الرسول صلى الله عليه وسلم وأولها :

أَمِنْ تَذَكْرِ جِرَانٍ بَدَى سَلَمٌ مَزَجَتْ دَمْعًا جَرَى مِنْ مُقَلَّةٍ بَدَمٌ
أَمْ هَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ تَلْقَاءِ كَاطِمَةٍ ^(٢) وَأَوْمَضَ الْبَرْقُ فِي الظُّلَمَاءِ مِنْ أُضِيمٍ ^(٣)

ومن حكمها البديعة :

وَالنَّفْسُ كَالطُّفْلِ إِنْ تُهْمِلَهُ شَبَّ عَلَى حَبِ الرِّضَاعِ وَإِنْ تَقَطِّطْهُ يَنْفَطِمِ
فَاصْرِفْ هَوَاهَا وَحَازِرْ أَنْ تُؤَلِّيه إِنَّ الْمَسْوَى مَا تَوَلَّى يُصِمُّ ^(٤) أَوْ يَصِمِ

وله قصيدة أخرى همزية فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم لا تقل عن البردة فى فصاحتها وأولها :

(١) ابن شاعر النكتى : فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٠٥ — ٢٠٦ .
(٢) بلدة تقع على ساحل الخليج الفارسى من بلاد الجزيرة العربية على مقربة من مصب دجلة والفرات .
(٣) واد يتدفق من غربى المدينة ويصب فى بحر القلزم (البحر الأحمر) .
(٤) أى ما تولى منه من أصحبت الصيد إذا قتلته وأنت تراه — (أو يصم) من وصم العود إذا صدعه أو من الوصم بمعنى العيب .

كيف ترقى رُقيك الأنبياءُ يا سماء ما طاولتها سماءُ
لم يُدانوك في عَلاك وقد حا ل سنا منك دونهم وسناء^(١)
انما مثَلوا صِفاتِكَ للناس س كما مثل النجوم الماءُ
أنت مصباح كل ضوء فماتص دُر الا عن ضوءك الأضواء

وقد نسج على منوال هاتين القصيدتين كثير من الشعراء بعد البوصيري، ولكنهم لم يشقوا له غبارا بل تأخروا عنه. ولذلك يقول أمير الشعراء أحمد شوقي بك في قصيدته التي عارض بها البوصيري وسماها "نهج البردة" يعتذر عن تأخره عن الخلق بالبوصيري :

المادحون وأربابُ الهوى تبعُ لصاحب البردة الفيحاء في القدم
مديحُك فيك حبٌّ خالصٌ وهوى وصادقُ الحب يملئُ صادقَ الكلام

وقد توفي البوصيري بالأسكندرية سنة ٦٩٥ هـ. وله مسجد كبير بها يعرف الآن بمسجد الأباصيري تقيم فيه الحكومة الاحتفالات الدينية. وقد جدد هذا المسجد في أيام المغفور له سعيد باشا الأول وإلى مصر ونقشت البردة على جدرانها.

وهناك شعراء آخرون نظموا شعرا أشادوا فيه بذكر بيبرس في الحفل الذي أقامه لافتتاح المدرسة الظاهرية وهم: الأديب أبو الحسين الجزار، والسراج الورّاق، والشيخ جمال الدين يوسف بن الحشّاب^(٢) :
ومما قاله أبو الحسين الجزار :

ألا هكذا يبني المدارس من بني ومن يتغالى في الثواب وفي الشنا
لقد ظهرت للظاهر الملك هممة بها اليوم في الدارين قد بلغ المنأ
تجمع فيها كلُّ حُسنٍ مفريق فراقته قلوبنا للأنام وأعينا

(١) السنا : النور. السناء : الرفعة . (٢) المقرئ : خطاط ص ٢ ص ٣٧٩

ومدجاورت قبر الشهيد فنفسه النفيد
وما هي الاجنة الخلد ازلقت
سنة منها في سرور وفي هنا
له في غد فاختر تعجيلها هنا

وقال السراج الوراق :

مليك له في العلم حب وأهله
ولا تذكر ملكا فيبيرس مالك
ولما بناها زعزعت كل بيعة
وقد برزت كالروض في الحسن أنبات
ألم تر محرابا كأن أزاهرا
فله حب ليس فيه ملام
وكل ملوك في يديه غلام
متى لاح صبح فاستقر ظلام
بأن يديه في النوال غمام
تفتح عن الغداة كمام^(١)

ومن قول الشيخ جمال الدين يوسف بن الخشاب :

قصد الملوك حمالك والخلفاء
أنت الذي أمراؤه بين الوري
ملك تزينت الممالك باسمه
وترفعت لعلاه خير مدارس
يبقى كما يبقى الزمان وملكه
كم للفرنج وللتار بيا به
وطريقه لبلادهم موطوءة
دامت له الدنيا ودام مخلدا
فانخر بأن محلك الجوزاء
مثل الملوك وجنده أمراء
وتجمت بمدحجه الفصحاء
حلت بها العلماء والفضلاء
باق له ولحاسديه فناء
رسل منها العفو والاعفاء
وطريقهم لبلاده عذراء
ما أقبل الا صباح والامساء

ولم يكن هذا كل ما قيل من الشعر في عهد بيبرس، بل هناك أشعار أخرى

نظمها محيي الدين بن عبد الظاهر :

فن قوله عندما استولى بيبرس على حصن عكار^(٢) :

يا مليك الأرض بشرا
إن عكار يقينا هي
ك قد نلت الإرادة
عكا وزيادة

(١) كمام : جمع كم، وهو غلاف الثوب. (٢) العنى : عقد الجمان ج ٢٠ الخلد الرابع ص ٥٦٦

ومن قوله أيضا عندما استولى الملك الظاهر على سييس :^(١)
ياويح سييس أصبحت نهبه كم عوق الجارى بها الجارية
وكم بها قد ضاق من مسلك يستوقف الماشى بها المشية

وله غير ذلك قصيدة ينهى فيها بيبرس بعيد الفطر سنة ٦٧٢ هـ وبختان ابنه
نجم الدين خضر وفيها يقول :^(٢)

يامالك الدنيا ومن بعزمه الدين نصر
هنت بالعيد وما على الهناء اقتصر
لكنها بشارة لها الوجود مفتقر
تفرحة قد جمعت ما بين موسى والخضر

فأنت ترى مما أسلفنا لك من النظم الرائع أن الحالة الأدبية في عصر بيبرس
لم تكن متأخرة إلى الحد الذى يظن لأقول وهلة . فإن كثيرا من مؤرخى الأدب
يرى هذا العصر بالجمود الشعرى ؛ ولكنى فى بعض هذه القصائد والقطع روحا
شعرية عالية وطلاوة ومعانى مبتكرة ، كما سنرى قصيدة أخرى رائعة من نظم
محيى الدين بن عبد الظاهر فى رثاء الظاهر بيبرس وتهنئة ابنه الملك السعيد بالملك .
وهى فى نظرنا لا تقل روعة عن غرر القصائد فى أزهى عصور الأدب . ولا شك
أن هناك أشعارا أخرى ضائعة ربما كانت أعلى من هذه فى الجودة . والزمان كفى
بكشف النقاب عنها .

٧ - الحالة الاجتماعية

كان يقطن بمصر فى عهد بيبرس عدّة عناصر من السكان بجانب أهل البلاد
الأصليين ، نخص بالذكر منهم المماليك والتتار والأكراد والأتراك .

(١) ابن شاکر الکتبی : عیون التواریخ ج ٢١ القسم الأول ورقة ٣٦

(٢) بیبرس الدرادر : زبدة الفکره فی تاریخ الهجرة ج ٩ ورقة ١١٥

ولم يكن لأى عنصر من هذه العناصر أى نفوذ سوى المماليك الذين كانت تتكوّن منهم الطبقة الحاكمة ومعظم الجيش ، كما كان يسند إليهم أكبر مناصب الدولة . وقد احتفظوا بجنسيتهم وترفعوا عن الاختلاط بالمصريين والمصاهرة معهم ،^(١) وحرصوا كل الحرص على بقائهم طائفة عسكرية حاكمة .

وكان هؤلاء المماليك مولعين بالألعاب الرياضية وحب القتال واستعراض الجيوش ، كما عنوا بالصيد والسباحة وسباق الخيل والرماية . وقد سبقهم إلى ذلك بيبرس الذى مهر فى السباحة حتى قيل إنه عبر النيل وعليه درعه يتبعه كثير من الأمراء ، كما مهر أيضا فى رمى السهام . وبلغ من عنايته بالرماية أنه أقام لها ميدانا^(٢) خارج باب النصر كان يمكث به من وقت الظهر إلى غروب الشمس يشجع فيه الأمراء على الرمي والنضال ، حتى أصبح فن الرماية الشغل الشاغل لهم ولرجال حاشيته^(٣) .

وبينا كان المماليك يعيشون عيشة الترف ، كان المصريون على العكس من ذلك لا عمل لهم إلا زراعة الأرض ودفن الضرائب . وكانوا يقومون فوق ذلك بصنع ملابسهم الفاخرة وبناء عمائرهم . غير أنهم على الرغم من ذلك لم يحرموا من بعض المناصب الحكومية ، فكان يسند إليهم الوظائف الدينية والقضاء^(٤) .

أما أهل الذمة فلم يعاملهم بيبرس معاملة تنطوى على العطف والرعاية ، لكثرة ما كانوا يقومون به من المناوشات والفتن . فقد حدث أن كثر الحريق بالقاهرة أثناء

(١) Muir : The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 216.

(٢) كان يعرف هذا الميدان باسم ميدان القبق . ويقال له أيضا الميدان الأسود وميدان العيد والميدان الأخضر وميدان السباق وكانت تنزل به العساكر لرمي القبق . المقرئى : خطط ج ٢ ص ١١١ وقد زاد على ذلك المقرئى فوصف لعب القبق بقوله ” إنه عبارة عن خشبة عالية جدا تنصب فى براح من الأرض ويعمل بأعلاها دائرة من خشب وتقف الرماة بقسبها وترمى بالسهام بحوف الدائرة لكي تمر من داخلها الى غرض هناك تمرينا لهم على إحكام الرمي “ .

(٣) Stanley Lane - Poole, A History of Egypt in the Middle Ages

(٤) Stanley Lane-Poole, Op. Cit. p. 253. p. 250-251

اشتغاله بغزو أرسوف سنة ٦٦٣ هـ، وأشيع أن النصرارى هم الذين أشعلوا هذه النيران . فعندما قدم الملك الظاهر إلى مصر أنكر عليهم هذه الأمور التي تفسخ عهدهم ، ثم أمر بإحراقهم ، فشفع فيهم الأمير فارس الدين أقطاي أتايك العساكر على أن يلتزموا بدفع قيمة ما أحرق ، وأن يقدموا لبيت المال خمسين ألف دينار في كل عام . فأطلق سراحهم السلطان وتولى بطريكتهم دفع الأموال المطلوبة منهم ، وتعهدوا بالألأ يعودوا إلى فعل شيء من المنكرات وبالألأ يخرجوا عما هو مقرر لأهل الذمة^(١) .

كذلك كان بالقاهرة جالية من التتار قدموا إلى مصر في أوائل عهد الملك الظاهر ، واتخذوا الإسلام ديناً لهم وأقاموا في دور بنيت لهم في أراضى اللوق^(٢) . وكانوا موضع عناية السلطان فمنحهم بعض الاقطاعات . وكان من أثر هذه المعاملة الحسنة التي عامل بها بيبرس هؤلاء التتار أن كثر عدد الوافدين منهم ، وتزايدت بذلك العمائر في اللوق والجهات التي حوله^(٣) .

أما الأكراد والأتراك فلم يكن لهم شأن يذكر في ذلك العهد . وكان بعضهم جنوداً في جيش السلطان ؛ وفيما عدا ذلك لم يكن لهم أى نصيب في الحياة العامة . وإلى جانب هذه العناصر كان هناك بعض طوائف من الفرنجة يستوطنون الثغور المصرية ويشغلون بالتجارة وليس لهم أى نفوذ في البلاد .

هذا ، وقد حرص الملك الظاهر على نشر الفضيلة بين أفراد رعيته . فالزم رجال حاشيته وبطانته بأداء الصلوات في أوقاتها ليكونوا قادة الشعب في الأمور الدينية كما هم قادته في الشؤون السياسية ؛ وأتى على ما كان بالبلد من منكرات ، فمنع

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثاني ص ٥٣٥ ؛ مفضل بن أبى القضاة : كتاب النهج السديد ص ١٣٤ - ١٣٥

(٢) ذكر المقرئى : خطط ج ٢ ص ١١٧ ؛ أن اللوق كانت تطلق في عهده على الجهات التي تعرف اليوم بباب اللوق .

(٣) المقرئى : نفس المرجع ص ١١٧ - ١١٨

المسكرات ونحرب بيوتها ، كما أصدر أوامره بإغلاق محال البغاء وخاصة ما كان منتشرا منها بالأسكندرية . وكان يسير بنفسه ليلا في شوارع القاهرة ليقف على أحوال رعيته ، ثم يصدر تعليماته بما يجب اتباعه لنشر الأمن والطمأنينة .

وكان بيبرس بجانب ذلك شديد الوطأة على النساء . ولا عجب في ذلك فقد كان سنيا مغاليا في مذهب السنة ، فمنع النساء من أن تتعمم وتترى بزى الرجال ، كما اضطهد المغنين والمغنيات وأرباب الملاهى والحلاعة والمجون ، فضاقت بهم سبل العيش في عهده وقل عددهم واستراحت البلاد من مفسدهم^(١) .

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٠٠ و ٥٠٣ و ٥٤٠ و ٦١٢

خاتمة القول في بيرس

خاتمة القول في بيبرس

نجح بيبرس في سياسته التي كانت ترمي إلى إعلاء شأن مصر، فأخضع الصليبيين ببلاد الشام واستطاع أن يسطر نفوذه على بلادهم، كما صدّ غارات المغول عن مصر ومدّ حدودها جنوباً في بلاد النوبة إلى حدّ لم يبلغه سلطان من قبله . وفي ذلك يقول صاحب كتاب "المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية" : "وكان الملك الظاهر قد ملك فأصبح،^(٢) وسعى في ذات الله فأنجح، وقام بأعباء السلطنة أيما قيام وسهر في إقامة منار الإسلام والناس نيام، وأعمل الركاب في قطع شوكة عدوّ الله من الفرنج والتتار... وجاء والنصر فكأنما كانا على ميعاد . فلم يزل رحمه الله يدأب في افتتاح الحصون المغلقة... ومهاجمة العدو في عقر الدار، واستئصال شأفة الفرنج والأرمن والتتار... فدوّخ البلاد وسلب الطارف والتلاد، وبدأ في غزو أعداء الله بنفسه، وأغار وهاجم وتجهّم، وحكم وتحكم، وعلم وعلم وهزم الجيوش وأوحش حتى الوحوش، واستغرق مدّة ملكه في بلاد يفتحها وغزوات يفتحها بالنصر ويفتحها . وأفنى العداة بعزائمها الماضية وهزائمها التي هي بالدمار على الأعداء قاضية، ومعاركة التي ما برحت لوعده الله في نصره عليهم متقاضية، وجعل الكنائس مساجد والبيع لذكر الله معاهد، وأعدم المغل من التتار، وأخلى منهم الدار والحار، وأدب بسيفه من جار...".

كذلك كسب بيبرس محبة الأهلين بما سنه من القوانين وما اشتهر به من الحكمة والخضوع لأحكام الشريعة الغراء وتقديس فرائضها والعمل على ترقية شعور البلاد وتنمية مواردها، فحفر الترع وأصلح الحصون وأسس المعاهد الدينية والمساجد التي

(١) شافعي بن علي بن عباس : ورقة ١٣ - ٣ ب .

(٢) أصبح = عفا .

كان يجلس فيها العلماء ويؤمها الطلاب من أقاصى البلاد ، وأعاد الأزهر الى سابق مجده ؛ فسجل اسمه بذلك في سجل العطاء وصحيفة الملوك المصالحين .

على أن هذا لم يكن كل ما اشتهر به بيبرس ؛ فقد امتاز أيضا بشجاعته وعدالته .

تظهر لنا شجاعته في جميع أدوار حياته المختلفة في القيادة والملك . فأيام كان قائدا ظهرت شجاعته في كثير من المواقع الحربية ، نخص بالذكر منها موقفه إزاء الصليبيين في موقعة المنصورة التي انتهت بانتصار المصريين على الصليبيين ، وكذلك في موقعة عين جالوت التي صدت فيها جيوش قطز بقيادة الأمير بيبرس جيوش التتار التي أغارت على بلاد الشام إغارة أخافت الأهالي وأوقعت الرعب في قلوبهم . فكان لبيبرس الفضل الأسمى والقدح المعلى في إعادة الطمأنينة إلى نفوس المسلمين ، وإزالة ما نزل بهم من خوف ورعب ، وما حل بهم من اضطراب إزاء إغارة هذا العدو المدمر . ونرى أيضا شجاعته عند ما تولى سلطنة مصر ممثلة في كل الوقائع الحربية التي فصلنا القول فيها ، وطلها — كما رأينا — كللت بالفوز وتوجت بالظفر بهمة بطلها ورجل حلتها بيبرس .

أما عدالة بيبرس فمتجلى لنا — عند ما أصبح قائدا — في معاملته العسكر معاملة حسنة ليس فيها محاباة لشخص ولا ظلم لآخر ؛ فكلهم عنده سواسية ، لا تفضيل بينهم ولا إيثار لأحدهم على الآخر مهما بلغت صلته به إلا بعمل جليل يقدمه للدولة . ونرى أن تلك الصفة قد ظهرت فأضاءت جزءا عظيما من صحائف التاريخ حينما صار بيبرس سلطانا على مصر وما إليها من البلاد التابعة لها . فقد كان أحسن مثل للحاكم العادل ، يجلس بنفسه للظالم فيقضى بين الناس بالعدل ويرد الحقوق إلى أصحابها ، ويضرب على أيدي المعتدين والعابثين بالنظام والأمن ولو كانوا من خاصته .

كذلك خفف بيبرس أعباء الحياة عن شعبه ، وذلك بعطفه على الفقراء والمعوزين . فأرغد المساكين بالعطايا والنعم الجزيلة ، وظهر ذلك جليا عند ما اشتد الحال بالناس سنة ٦٦٢ هـ وهدمت الأقوات وضح الفقراء من الجوع فأحصاهم ، وكلف كل أمير

بالانفاق على عدد معين منهم وتولى هو بنفسه الانفاق على خمسمائة فقير، كما عمل على تخفيف آلام ذوى العاهات، فنقلهم إلى مدينة الفيوم وأفرد لهم بلدة تغل عليهم ما يكفهم^(١).

ولم يكن بيبرس بالرجل المعتدل في كل أموره؛ فقد أخذ عليه المؤرخون غدره بتوران شاه وقطرز وعدم وفائه بالعهد الذى أعطاه للملك المغيث . لكنا نقف من الحكم عليه على هذه التهم موقف الحيطة والتدبر، فنرى أن الحادثين الأولين كان الباعث عليهما خوفه على حياته من أن تمتد إليها الأيدي بالقتل . فإن تورانشاه كان قد اعترم الفتك بجميع المماليك البحرية بما فيهم بيبرس، فارتكب هذا ما ارتكب تخليصا لنفسه ولقومه . وأما تانية هذه الحوادث فسببها أن قطرز كان قد وعد بيبرس بأن يوليه ولاية حلب، ثم لم يلبث بعد ذلك أن نقض وعده وبيت فوق ذلك مكيدة أراد بها أن يقضى على حياة بيبرس . وبذلك لم يكن هناك بد في هاتين الحادثتين من التخلص من عدوبات يتربص به دائرة السوء ويتربص له مصرعا عاجلا . ونحن لذلك نخالف المؤرخين فيما ذهبوا إليه في تصوير هذه الحوادث . فهو لم يقصد إلى الغدر قصدا، وإنما أراد الدفاع عن النفس وهو أمر مشروع . أما تالسة هذه الحوادث فإن بيبرس لم يقتل الملك المغيث إلا حينما اتصل به تواطؤه مع التتار على القضاء على المماليك . عرف بيبرس هذه المكيدة المدبرة من المكاتبات التى دارت بين الفريقين المتآمرين والتى وصلت الى يده وقرأها على رجال دولته حتى لا يعتقدوا أنه غدر بالمغيث . هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنه بعمله هذا أراد أن ينبههم إلى الخطر المحدق بهم وبلادهم ليشاركوه حرصه على حماية البلاد واتخاذ التدابير اللازمة لذلك .

وأما ما ينسب إليه من مصادرة أموال بعض الأغنياء، فنحن نعتقد أنه ما فعل هذا إلا لإعداد جيشه . والرجل الذى أسس دولة حديثة نتطلع إليها نفوس الغزاة

(١) المقرئى : السلوك ج ١ القسم الثانى ص ٥٠٧ — ٥٠٨ و ٥٥٣ .

وعيون المحاربين نفى شدة الحاجة الى المال الذي يعزز به كيان دولته ويقوى به جنده . وليس في استطاعتنا أن نتصور من أين يجمع الأموال لإعداد جيوشه إذا لم يحصل عليها من هذه الناحية . فقد كان على هؤلاء الأغنياء أن يقدروا خطورة الحالة التي تحيط ببلادهم ، وأن يخرجوا عن بعض أموالهم في سبيل حماية بلادهم والزود عن حياضها . فإن الرجل وماله ملك لدولته في وقت الخطر . وما دامت حياته تعد رخيصة بجانب حفظ كرامة بلاده فأولى ثم أولى ماله . لذلك لانعد عمل بيبرس مصادرة بالمعنى المعروف ، وإنما هو درس وطني يلقيه على هؤلاء البخلاء الذين كان يجب عليهم أن يبذلوا عن سعة كما قال تعالى : ﴿ وجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ﴾ . وهذا خير من إرهاب الضعفاء والفقراء من أبناء الشعب بضرائب لا قبل لهم بها ، مما يؤدي الى ثورتهم في وقت كانت البلاد فيه أحوج ما تكون الى الهدوء والسكينة .

وفاة بيبرس

لم يكد الملك الظاهر يتمتع بثمره جهاده ونتائج أعماله حتى عاجلته المنية على أثر عودته الى دمشق من موقعة قيسارية .

وقد تضاربت أقوال المؤرخين في سبب وفاته . فيذكر أبو الفداء^(١) وبيبرس الدوادار^(٢) والشيخ قطب الدين اليونيني^(٣) أنه مات مسموما . غير أن المؤرخين الأقران يرويان لذلك رواية نستبعدها ولا نطمئن الى صحتها فيقولان : إنه لما انخسف القمر خسوفا كليا وشاع بين الناس أن رجلا عظيم القدر سموت ، أراد الملك الظاهر أن يصرف التأويل الى غيره ، فدعا الملك القاهر الأيوبي لشرب القمزمعه . ولما قدم اليه دس له السم وأخطأ الخادم فوضع لبيبرس القمزم في الكأس الذي شرب منه الملك القاهر فاعتزته الحمى ، ولم يلبث بعد ذلك أن مات في يوم الخميس السابع والعشرين من المحرم سنة ٦٧٦ هـ . أما اليونيني فإنه يعزو دس السم للملك القاهر الى سببين : (أولهما) حقد بيبرس على ذلك الأمير عندما كان معه ببلاد الروم وأبلى بلاء حسنا كان موضع إعجاب الناس ، و(ثانيهما) استياء الملك الظاهر منه لأنه انتقده على توريطه عساكره ببلاد الروم ، فأسرله ذلك الى أن قدم دمشق ، فدعاه لشرب القمزمعه ودس له السم .

ويروى المقرئ^(٥) رواية أخرى هي أقرب الى الحقيقة من الروايات السالف ذكرها ، وهي أن بيبرس على أثر قدومه الى دمشق جلس في يوم الخميس ١٤ من المحرم سنة ٦٧٦ هـ يشرب القمزم . وقد عظم سروره من انتصاره على المغول والروم ، فأكثر من الشرب . ولما انتهى من ذلك شعر بفتور وتوعك واشتد عليه الألم

(١) المختصر في أخبار البشر ج ٤ ص ١٠ (٢) زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة

ج ٩ ورقة ١٢٦ (٣) الذيل على مرآة الزمان ج ١٧ ورقة ١١٢ - ١١٣

(٤) القمزم : نبيذ يعمل من لبن الخيل . وكان بيبرس مشغوبا بهذا النوع من الشراب

Stanley Lane - Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 273

(٥) السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ القسم الثاني ص ٦٣٥

عندما ذهب الى ميدان دمشق في اليوم التالي ، فجهز له بعض خواصه دواء لم يكن ناجعا . فاستدعى الأطباء فأشاروا عليه بأخذ دواء مسهل . غير أن ذلك لم يخفف عنه وطأة المرض ؛ فظلت قواه تضعف حتى قضى نحبه ، فكتم الأمير بدر الدين بيلبك الخازن دار نعيه عن الجمهور وأرسل الى الملك السعيد يخبره بوفاة والده ، ثم وضع جثة الملك الظاهر في تابوت ونقلها الى قاعة دمشق ، فظلت هناك الى أن اشترى الملك السعيد دار العميق بدمشق وأعدّها لتكون مدفنا لوالده . ولما تمت عمارتها احتفل بدفنه بها في ليلة الخامس من شهر رجب سنة ٦٧٦ هـ بعد أن صلى عليه في صحن جامع دمشق ^(١) .

وهكذا انتهت حياة ذلك الملك العظيم والقائد المحنك والسياسي الماهر ، فطويت بموته صفحة من صفحات المجد والعظمة ، وورثاه كاتب سره محي الدين ابن عبد الظاهر بهذه الأبيات ^(٢) .

الله أكبرُ إنها لمصيبةٌ	منها الرواسي خيفةٌ تتقلقل
لَهْفَى على الملك الذي كانت به الد	نيا تطيب فكل قفراً مَنزَل
الظاهرُ السلطان من كانت له	مِنَّ على كل الوري وتطول
لهفى على آرائه تلك التي	مثل السهام الى المصالح ترسل
لهفى على تلك العزائم كيف قد	غفّلت وكانت قبلَ ذا لا تغفل
ما للرمال تحولتها رعدة	لكنّها إذ ليس تعقل نعقل
سهم أصاب وما رمى من قبله	سهم له في كل قلب مقتل
أنا إن بكيتُ دما فعذرى واضح	ولئن صبرتُ فإنني أتمثل
خلف الشهيد لنا السعيد فأدمع	منهلة في أوجه تهال

فرحم الله بيبرس وأجزل مثوبته وأسكنه فراديس جنته وجزاه خيرا عن
الإسلام والمسلمين .

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٨ القسم الثاني ورقة ٣٦٨ - ٣٦٩ .

(٢) ابن إياس ج ١ ص ١١٠ - ١١١ .

مصادر الكتاب

(١) المصادر العربية

- (١) ابن أبي الفضائل (مفضل ...) :
 " كتاب النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد "
 (Paris 1911, 1920.)
- (٢) ابن إياس (+ ٩٣٠ هـ ، ١٥٢٣ م) : أبو البركات محمد بن أحمد .
 " كتاب تاريخ مصر " المعروف " ببدائع الزهور في وقائع الدهور "
 (بولاق سنة ١٣١١ هـ) .
- (٣) ابن حجر العسقلاني (+ ٨٥٣ هـ ، ١٤٤٩ م) : شهاب الدين بن علي .
 " رفع الاصر عن قضاة مصر " (مخطوط بالمكتبة الملكية بالقاهرة) .
- (٤) ابن خلدون (+ ٨٠٨ هـ ، ١٤٠٥ - ١٤٠٦ م) : عبد الرحمن بن محمد .
 " العبر وديوان المبتدأ والخبر " (القاهرة سنة ١٢٨٤ هـ) .
- (٥) ابن شاكر (+ ٧٦٤ هـ) : نضر الدين محمد ... بن أحمد الكتبي .
 (١) " عيون التواريخ " (مخطوط بالمكتبة الملكية بالقاهرة) .
 (٢) " فتوات الوفيات " .
- (٦) ابن عباس : شافعي بن علي بن عباس .
 " المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية " (مخطوط بالمكتبة الأهلية
 بباريس) .
- (٧) أبو الفدا (+ ٧٣٢ هـ ، ١٣٣١ م) : اسماعيل بن علي عماد الدين
 صاحب حماه .
 " المختصر في أخبار البشر " .

- (٨) أبو المحاسن (+ ٨٧٤ هـ ، ١٢٥٤ م) : جمال الدين بن يوسف
ابن تغرى بردى .
"النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" (مخطوط بالمكتبة الملكية بالقاهرة) .
- (٩) ابن واصل (+ ٦٩٧ هـ) : جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سليم
"مفرج الكروب في أخبار بني أيوب" (مخطوط بالمكتبة الملكية بالقاهرة) .
- (١٠) بييرس الدوادر (+ ٧٢٥ هـ) .
" زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة " (مخطوط بمكتبة الجامعة المصرية) .
- (١١) السيوطى (+ ٩١١ هـ) : جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد .
(١) " تاريخ الخلفاء وأمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة " .
(٢) " حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة " .
- (١٢) العيني (+ ٨٥٥ هـ) : بدر الدين محمود .
" عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان " (مخطوط بالمكتبة الملكية بالقاهرة) .
- (١٣) القلقشنندى (+ ٨٢١ هـ ، ١٤١٨ م) : أبو العباس أحمد .
" صبيح الأعشى في صناعة الانشا " .
- (١٤) المقرئى (+ ٨٤٥ هـ ، ١٤٤١ م) : تقي الدين أحمد بن على .
(١) " السلوك لمعرفة دول الملوك " (طبعة الدكتور زيادة) .
(٢) "المواعظ والاعتبار في ذكرا الخطط والآثار" (طبعة بولاق ١٢٧٠ سنة هـ)
- (١٥) النويرى (+ ٧٣٢ هـ ، ١٣٣٢ م) : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب .
" نهاية الأرب في فنون الأدب " (مخطوط بالمكتبة الملكية بالقاهرة) .
- (١٦) ياقوت (+ ٦٢٦ هـ ، ١٢٢٩ م) : شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى .
" معجم البلدان " .
- (١٧) اليونينى (+ ٧٢٦ هـ) : الشيخ قطب الدين .
" الذيل على مرآة الزمان " (مخطوط بالمكتبة الملكية بالقاهرة) .

(ب) المصادر الأفرنجية

- (1) ARNOLD, PROF. (SIR THOMAS)
 1. — "The Preaching of Islam."
 2. — "The Caliphate."
- (2) BARKER, ERNEST.
"The Crusaders."
- (3) BROWNE, : EDWARD G.
Vol. II "Literary History of Persia from Firdawsi to Sa'di."
Vol. III "Persian Literature Under Tartar Dominion."
- (4) DAVIES, REV. E. J.
"Invasion of Egypt in A. D. 1249 (A.H. 647) by Louis IX of France."
- (5) HEYD; W.
"Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age."
- (6) JOINVILLE, (SIRE DE)
"Memoirs of the Crusades."
By Villehardouin & Joinville. Translated by Sir Frank Marzials.
- (7) KING.
"The Knights Hospitallers in the Holy Land."
- (8) LANE - POOLE, STANLEY.
"A History of Egypt in the Middle Ages."
- (9) LE STRANGE (G.).
"Palestine under Moslems."

- (10) MITT, (SIR WILLIAM).
 1. — "The Caliphate, its Rise, Decline, and Fall."
 2. — "The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt."
- (11) NICHOLSON, PROF. REYNOLD. A.
 "Literary History of the Arabs."
- (12) STEVENSON, W. B.
 "The Crusaders in the East."
- (13) CAMBRIDGE MEDIEVAL HISTORY, Vol. IV.
- (14) ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM.

* *

كَمَلَّ طَبْعَ كِتَابِ "الظَّاهِرِ بَيْبَرَسَ وَحَضَارَةِ مِصْرَ فِي عَصْرِه"
 بِمَطْبَعَةِ دَارِ الْكُتُبِ الْمِصْرِيَّةِ فِي يَوْمِ الْأَحَدِ ٢٧ رَبِيعِ الثَّانِي سَنَةِ ١٣٥٧
 (٢٦ يُونِيَّةِ سَنَةِ ١٩٣٨) م
 مَجْدُ نَدِيمِ
 مَلَا حِظَّ الْمَطْبَعَةِ بِدَارِ الْكُتُبِ
 الْمِصْرِيَّةِ